الأعمال الكاملة

رجب أبو سرية

(رجب الطيب)

القصص القصيرة

الأعمال الكاملة

القصص القصيرة

رجب أبو سرية

(رجب الطيب)

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٤/١٣٥٥)

الأعمال الكاملة: القصص القصيرة - رجب عطا أبو سرية.

دار البيروني للنشر والتوزيع
جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة العربية الأولى
٢٠١٣

ISPN ٩٧٨-٩٩٥٧-٥٦٨-٢٧-٦ (ردمك)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

تصميم وإخراج: . كمال قاسم العر

شركة دار البيروني للنشر والتوزيع

شركة دار البيروني للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - وسط البلد - شارع السلط - بناية رقم (٢٣)
ص.ب: ١٨٢٢١٢ عمان ١١١١٨ - تليفاكس: ٩٦٢٢٦٤٦٥١٠٠٤+
Email:beyrouni.publisher@gmail.com

شهادة قصصية

شهادة قصصية

لا يذكر الصبيّ الصغير الذي كنته انه قد أظهر «موهبة سردية» مبكرا، وإن كان الصبيّ شعلة من نشاط، فائض الحيوية، كثير الحركة، و «غلباوي» أيضا، وكان متعلقا بأبيه الذي كان يحبه أكثر من أي أحد آخر في هذة الدنيا.

مع ذلك فإني أذكر «خيالات» الطفولة وأطيافها، حيث كنت شغوفا بما يحكيه أبي عن «مغامراته» وعن «مخاطراته» وما كان يصادفه من أحداث، خلال السنوات التي مضت وهو شاب، قبل «الهجرة» وبعدها.

وأذكر أيضا أني كنت أحب الأساطير والحكايا التي تتناثر من حولي، مجزوءة ومجتزأة، حيث لأني كنت قد نشأت في حي فقير من أحياء غزة، أواخر الخميسنيات وأوائل الستينيات، لا كهرباء فيه، ولا شوارع معبدة، موحش بعد المغيب، لا نعرف السيارات، عالمنا محدود، لا يتجاوز تلك الحارة وذلك الشارع، ما كانت الحكايا تصل لا عبر مذياع ولا حكواتي، بل عبر الجدّة في المساءات والليالي الباردة، والتي غالبا ما كانت تحكي لنا «قصص الخوف»: «أبو رجل مسلوخة، الغولة، الشاطر حسن» حتى ننام!

كنت شغوفا بقصة الزير سالم، الذي كنت أراه على هيئة أبي، ومن بعيد كنت مولعا بأدهم الشرقاوي، لكن عالمي كان عالم « عبد الناصر » فقد كان أبي مناضلا، ولأنه كان أجمل الرجال في نظري، فقد كنت أسير في ركابه.

كان عالم عبد الناصر وعبد الحليم حافظ وأجواء الستينيات، هو من أسس ذاكرتي وكوّن شخصيتي الأولى، كان البيئة التي نشأت عليها وفيها، دون وعي مني.

إشارة مبكرة

طفولتي أو بئري الأولى كما يسميها جبرا إبراهيم جبرا، تأسست على ثلاثة أحداث صادمة، هزّت أركاني، وأفقدتني البراءة - حرب ٦٧، ثم أحداث أيلول ٧٠، ثم حرب ٧٣ - كنت في الأولى طالبا في الابتدائية، وفي الثانية طالبا في الإعدادية وفي الثالثة طالبا قي الثانوية. تلقيت الأولى دون أن أعي أبعادها، والثانية أثارت في نفسي حنقا وغضبا لازمني بعد ذلك، والثالثة دفعتني لأن أكون فاعلا !

ولأني كنت تلميذا «شاطرا» متفوقا في كل المواد، ولأني أيضا عشت فلسطينيا، أمضيت سنواتي العشر الأولى في مسقط الرأس ثم التالية في أول بلاد المنافي، لست أذكر أني قد أوليت اهتماما خاصا بالسرد أو القص، فقط وأنا في الثاني أو الثالث الإعدادي، ولأني كنت «ولدا» معتدّا بذاته، راهنني يوما معلم اللغة العربية، على موضوع الإنشاء، ولم أكن قد حضّرت له، ولا أذكر كيف صادف أني رأيت فتاة جميلة، موظفة في البنك العربي بعمان، وبقيت صورتها مطبوعة في خيالي، لذا فقد داعبت صورتها في موضوع الإنشاء، فجاء نصاً جيداً، وما كانت اللغة العربية بقواعدها (نحوها وصرفها) تعجزني أبداً، في يوم توزيع دفاتر الطلبة، ألقى المعلم لي بدفتري وفي عينيه علامات الاحترام، والفرح بتفوق طالبه، شعرت كأني أبنه في تلك اللحظة، كما عرفت أنه يمكن للأدب أن يمنحك اعتزازا بنفسك، حتى لو كان ذلك على حساب معلمك !

غافل عن القص - مسكون بالوطن

أنهيت الإعدادية ومن ثم دخلت مدارس الثانوية، لأنتقل من مدارس الوكالة إلى مدارس الحكومة، فأتعرف إلى زملاء آخرين، بعضهم يقطن المخيم، وبعضهم يقطن جبل النصر، بعضهم فلسطيني وبعضهم أردني، وكنا لتوّنا قد غادرنا أحداث أيلول بفجائعها وآثارها الغائرة في النفس، هنا أنفتح عليَّ عالم آخر غير عالم الكتب، كنا مجموعة الأربعة (سهيل صباح، جمال نافع، محمد مشارقة وأنا) جمعنا التميّز والجرأة، فصرنا نبحث عن خيط الوطن، أولا من خلال ديوان شعراء الأرض المحتلة، وثانيا من خلال برنامج الجبهة الديمقراطية في الأردن. سأذكر ما حييت بعد ذلك أني ما كانت أقوى على قراءة أكثر من قصيدتين أو ثلاثا لمحمود درويش، لأني كنت انفعل وأتوتر، ولا احتمل المزيد، هذة الحالة، تكررت معي مرة ثانية حين كنت استمع لاحقا لأغنية احمد قعبور «أناديكم»، وفور انتهائي من قراءة الديوان، حاولت محاكاة الدرويش بكتابة الشعر، فلم افلح، وبقيت أحاول أن أكتب «الشعر» في دفاتري الخاصة حتى سنة أولى جامعة.

بعد الثانوية، افترقت عن أترابي الثلاثة، بسبب كوني أحمل وثيقة السفر المصرية وهم لديهم جوازات سفر أردنيه، هم سافروا إلى رومانيا عبر سوريا، وأنا وجدتني في القاهرة. هناك وجدتني أبحث عن الوطن الذي ضاع مني، - كما حدث معي في طفولتي حين تبنتني زوجة أبي، فما كانت لي أمي بوجود أمي، وما عادت أمي أمي في ظل احتضان زوجة أبي لي - ما كان يمكن للأردن أن يكون بديلا لي عن فلسطين، بفعل أيلول وبفضل وثيقة السفر التي تلازمني !

تعرفت على اتحاد الطلبة ونشطت فيه، كما تعرّفت أيضا على جماعات اليسار المصري، وأمضيت سنواتي الجامعية أعيش حالة المنفي عن وطنه، الذي يبحث عنه بالثورة !

عدت إلى عمان بعد أن أنهيت دراستي الجامعية أكثر وعيا وإصرارا على الفعل، فكان أن مارست حضورا فاعلا ومؤثرا في الوسط الثقافي / الوطني، ضمن إطار رابطة الكتاب الأردنيين، لم اكتب القصة القصيرة لكني تابعت ما يطبع منها بالقراءة و «النقد»، وكنت مهتما أكثر بشغفي الأول بالأغنية السياسية، فنشرت تباعا وعلى مدار سنوات ١٩٨٠ - ١٩٨٤ مقالات عن الأغنية السياسية في صفحة الثقافة والفنون بجريدة الرأي والتي كان يحررها حسان أبو غنيمة.

كنت فتى الرابطة «المحبوب» من قبل الكتاب سالم النحاس، إبراهيم العبسي، جمال ناجي، والشباب من جيلي: يوسف غيشان، محمد طملية، ماجد شاهين، إلى أن اعتقلت من قبل المخابرات الأردنية بتهمة الانتماء لتنظيم «مجد» ومن ثم إبعادي عن الأردن، وكان ذلك مطلع العام ١٩٨٧.

أفاضل أصحاب فضل:

(جمال ناجي، الحكيم، طلال نصر الدين، يوسف القعيد)

عام ١٩٨٩، ألغيت الأحكام العرفية، فعدت في زيارة، التقيت فيها صديقي جمال ناجي، وهو روائي فلسطيني / أردني من الصف الأول من الروائيين، فسألني إن كنت فكرت في كتابة تجربة المعتقل، حيث كان قد رآني هناك، وكانت قصتي على كل شفة ولسان !

حين عدت للشام لمعت الفكرة في رأسي، فبدأت في كتابة نص «أبو شنب» أحتفاءا بوالدي، ثم بدأت في كتابة روايتي الأولى «دائرة الموت».

في صيف العام ١٩٩١، أتخذ قرار من الجبهة الشعبية حيث كنت اعمل متفرغا، بان أذهب للبنان، لتنفيذ الخدمة الثورية، ولأني كنت أعدُّ لدائرة الموت، فقد احتجت وثائق خاصة بالأرض المحتلة، وتفاصيل عن حياة وشخصية إبراهيم الراعي، فأرسل لي الحكيم كل ذلك إلى لبنان حيث كنت قد ذهبت لأداء الخدمة الثورية.

في البقاع، كتبت النص وعدت به بعد ثلاثة أشهر إلى دمشق. في نهاية ذلك العام، وكان لي صديق مسرحي سوري أسمه طلال نصر الدين، كان قد فاز بالجائزة الأولى في النص المسرحي في مسابقة سعاد الصباح بين الشباب العربي، جاءني فرحا، وتناول عندي طعام الغداء، وحين سألني عما أفعل، أجبته بأني أكتب نصا روائيا، طلب مني أن يقرأه فناولته إياه، جاءني في اليوم التالي وطلب مني أن أصوّره خمس نسخ وان أرسله لجائزة سعاد الصباح.

كانت لجنة التحكيم مكوّنة من يوسف القعيد وجمال الغيطاني، وكان صاحب الفضل علي، الذي انحاز لنصي ومنحه الجائزة الأولى الروائي

الكبير يوسف القعيد، وهكذا انفتحت لي بوابة الجدّية في التعامل مع السرد عموما ومع الرواية على وجه الخصوص.

تتابع السرد

شرعت بعد طباعة ونشر «دائرة الموت» مباشرة بكتابة روايتي الثانية «عطش البحر»: وكان مفتتحها، قد جاءني مخاضه، حين كنت مشاركا في ملتقى ثقافي مع نحو عشرين مبدعا فلسطينيا / سوريا في ملتقى بجنزور على الساحل الليبي قرب طرابلس، وحين انتهيت منها دفعت بها إلى دار نشر أسمها «ينابيع»، فرأت طريقها إلى النور، بعد أن غادرت دمشق إلى غزة، عام ١٩٩٤.

على عكس الإتجاه السائد لدى معظم زملائي من كتاب السرد، الذين يبدأون بكتابة القصة ثم «يهجرونها» إلى الرواية، فتكون كتابتهم للقصة وكأنها بروفة على كتابة الرواية،كنت أنا، فبعد أن نشرت روايتين، شرعت في كتابة القصة القصيرة، لأني أحبها ولأني شعرت بضرورة إعادة الاعتبار لها في وجه من يقلل من قيمتها لصالح الرواية !

عدت إلى مسقط رأسي في غزة ومعي نحو عشر قصص قصيرة مكتوبة في دمشق، وكان الفرق بين كتابتي للرواية والقصة هو أن صوت الرواية جمعي، في حين صوت القصة فردي، وكانت المجموعة الأولى التي طبعت من قبل اتحاد الكتاب «ليس غير الظل» عبارة عن نصوص، قدمت فيها نماذج نسوية، أظهرت فيها المفارقة القائمة

في المجتمع الذكوري على أساس التمييز ضد المرأة. وكان ذلك عام ١٩٩٦.

ثم صدرت مجموعتي الثانية «تهاويم الأرق» عن الإتحاد العام للمراكز الثقافية بغزة عام ١٩٩٨، وفيها قدمت نماذج من عامة الناس، نماذج مشروخة، قلقة، تعيش حياة يتداخل فيها الوهمي والواقعي، تعيش أحلام اليقظة، وكأنها في حالة أرق دائم.

ولأني تجريبي في القصة، أحبها وألاعبها كما لو كانت فتاة صغيرة جميلة، ورائعة، فإني في كل مجموعة أجرِّب شكلا جديدا، كما أني أشتغل على أن يكون الحامل الرئيسي في كل مجموعة، مختلفا عما كان عليه الحال في المجموعة التي سبقتها. في المجموعة الثالثة «نثار الروح والجسد» قدمت القصة القصيرة جدا، متكئا على عامل الإدهاش، كنت ألتقط في قصص المجموعة، كما تفعل الكاميرا، وقائع هامشية، ثم أقوم بصياغتها وتحميلها رؤيتي، لأكشف حجم المفارقات في الواقع بهدوء وحيادية ودون تكلف. وقد صدرت هذة المجموعة عن اتحاد الكتاب أيضا عام ٢٠٠٥.

في الحقيقة قوبلت مجموعاتي بترحاب شديد من قبل نخبة الكتاب والمهتمين ومن الإعلاميين الذين أجروا معي العديد من المقابلات، وهذا كان دافعا لي لأواصل الاهتمام وأتابع حبي للقصة القصيرة.

لكني قوبلت بما لم يكن يخطر ببالي، حين طلب مني عدد من المسرحيين في غزة أن اكتب للمسرح، وبعد تردد دام سنوات، وجدتني عام

١٩٩٨ أكتب نصا مونودراميا «أبو عرب في خانة اليك»، لينجح بدوره بعد مشاركته في مهرجان فوانيس بالأردن عام ١٩٩٩، وما قوبل به من ترحاب منقطع النظير.

وهكذا يمكنني القول بأنَّ تجربتي السردية قد تنوعت بين كتابة القصة القصيرة، الرواية والمسرحية، وقد أجبت عن السؤال المرتبط بهذا الأمر أكثر من مرة، مشيرا إلى انتماء هذة الأجناس الأدبية إلى حقل واحد، هو السرد، ورغم أني لم انقطع خلال العشر سنوات التالية (٢٠٠٠ - ٢٠١٠) عن كتابة لا الرواية ولا المسرحية ولا القصة بالطبع، إلا أن دخول النشر الإلكتروني ميدان الثقافة جعلني أهتم بما يسمى بالقصة الرقمية أو الرواية التفاعلية وبالثقافة التفاعلية عموما، وقد لاحظت أن المبدعين العرب ينشرون إلكترونيا فقط ولا يبدعون تفاعليا أو لا يقدمون نصا تفاعليا خالصا، لكن النص بمواصفاته الذهنية القديمة يخضع للتفاعل الإلكتروني بعد نشره.

فكانت فكرة مجموعة (موبايل - نت/كليكات مشاغبة)، وفي خلال هذة السنوات، ظهرت رواية « نبوءة العرافة» عن دار اوغاريت عام ٢٠٠٣، ومسرحية غزة ع تكة ربما في عام ٢٠٠٢، ثم مجموعات «ضمير الأنا الغائب» و «خراريف» إلكترونيا فقط.

الآن عندي مشاريع كتابة أكثر من رواية وأكثر من مسرحية، ربما في داخلي أشعر دائما برغبة في إحداث التوازن في تجربتي السردية بين القصة، الرواية والمسرحية، وفي الحقيقة أيضا، ليس عندي من مشكلة في التعبير عن ذاتي وعن انفعالاتي المتعددة على الأوجه السياسية

والاجتماعية، لأني أكتب المقال نصف الأسبوعي منذ سنوات طويلة واكتب - كما أشرت - في أكثر من جنس أدبي، حتى أني أكتب المقال الثقافي وأحيانا النقدي، لأعبر عن نفسي دائما، لذا فإن لدي الآن مشروع روايتين، ونحو ثلاث مسرحيات - كلها مونودراما - سأسعى جاهدا أن انتهي منها خلال فترة وجيزة، حتى أقوم بعدها بجمع ما كتبت خلال نحو عشرين سنة، واعتبره أعمالا كاملة أولى، ربما يسعفني العمر والوقت لأكتب شيئا مهما وذا جدوى أو قيمة بعدها.

نثار الروح والجسد

طفولـة

الطفلتان تسيران معاً، وتبدوان كوردتين يانعتين، ينشرح البال لهما، وتنفرج الأسارير، لولا ذلك الحمل الذي يثقل كاهل يفاعتهما، ويتمثل في الحقيبة المدرسية، التى تبدو ككيس من الرمل، يدفع بالظهر إلى الأنحناء، وبالأوصال إلى الأرتخاء...

تغلق الأولى يدها على مصروفها اليومي، وتنتظر الاستراحة اليومية، عند منتصف اليوم الدراسي بفارغ الصبر، أما الثانية فتفتح أحلامها الطرّية على مصراعيها، وتردّد كل يوم كلمـات سيِّد العالم، التى انطوت على الوعد، بأن تغدو حياتها عاديــة، وأن تعـود يوماً من مشوارها اليومي، من المدرسة إلى البيت، وتجد أباً يمنحها القبلة الصباحية، ومصروفاً يومياً، تغلق عليه راحة يدها، وتريح خيالها من عناء الانتظار.

*****

إشــارة

تصعد السيّدة بخيلائها الواضح، إلى سيارتها الفاخرة، فيما تقفز قطتُّها السيامية الناعمة، إلى المقعد الأمامي، وتقعي على ركبتيها الخلفيتين.

تدير السيدة بهدوء محرّك السيارة، وتترك لي فرصة مشاهدة ما أنحسر من تحت ثوبها الضيِّق، لحظة تدفع المركبة إلى التحرك، ومغادرة المكان على عجل.

عند الأشارة الضوئية، تضطّر السيدة إلى التوقف، فيسرع الولد، حامل المنديل المتسّخ، ليمسح زجاج المركبة الأمامي، تشير إليه بيدها أن يبتعد، لا يذعن الولد لذلك، ويبدأ بمسح الزجاج، محركاً يداً تقبض على المنديل، بينما تمتدّ يدها هي إلى القطة تمسح ظهرها.

لحظة، وكانت الشارة قد أضاءت لونها الأصفر، فضغطت السيدة على الزر الكهربائي، إلى يسارها، ليرتفع زجاج النافذة، ثم تندفع بمركبتها مجدداً، مبتعدة عن الولد حامل المنديل، دون أن تعيره أية إنتباهة.

*****

قليلٌ من الذوق... فقط؟

في الساعة الرابعة صباحاً، وبعد أن آويت إلى فراشي بوقتٍ ليس طويلاً، لحق بي رنين الهاتف، ليشّد بخناق راحتى، وليدفع بالصداع الرهيب إلى رأسي، حتى يلازمني طوال اليوم التالي.

ظننته حلماً، ثم بعد الوهلة الأولى كابوساً، ثم سقط قلبي بين قدمي، حين أمسكت بوعي الصحو، وتبادر إلى ذهني للحظة، بأنَّ حدثاً جللاً قد وقع لواحدٍ من أعزائي.

ما أن جاءني الصوت على الطرف الآخر من الخط السلكي، حتى كنت أتهاوى في مقعدي غير الوثير، فهو كان يخبرني بوفاة أخي المقيم في الخارج، والذي لم أره منذ سنوات.

ولأن لي أكثر من أخ، يقيم في الخارج، ولم أره منذ سنوات، تمالكت نفسي بعد أن قبلت بقضاءِ الله وقدره، وسألته عن أي أخوتي، ذاك الذي اختاره الله إلى جواره.

دون تردد بالطبع قال:-

- أنه أبو أحمد

لكن هذا الـ «أبو أحمد» ... ليس لي أخ بهذا الإسم؟!

بعد ذلك فقط، أدركنا، كلانا، بأن «نمرة» الهاتف، التى طلبها محدّثى، كانت خطأ، وعندها، فقط، أغلق الخط، على التّو، من جهته، دون، حتى، أن يقدم كلمة عزاءٍ، أو اعتذار واحدة.

*****

مُعارض

على المنصّة التى تواجه «الحفل» الكريم، كان يبدو بكامل عنفوانه وحيويته وثقته بنفسه، يمنطق القول، و يمنح معنى للكلام، ويهبه جاذبية قصوى، حين يمتد به الخيال إلى مداعبة الأحلام الكامنة، وحين تنفتح الذاكرة إلى ما أنطوت عليه من سالف الأمجاد!

بكامل أناقته ووضوحه وصراحته، تبدو المنصة جزءاً منه، ويبدو الجمهور مكملاً له، يعبّر عنه وله، بكل الحقائق الواضحة والآمال العريضة، في اللحظة الهاربة، التى كبت فيها أحلام الناس، وصغرت آمالهم، التى كانت عريضة.

المجرّد والمطلق وحدهما، مفردات دائمة في قاموس الرجل، الذي لا تعرف الخسّة طريقاً إلى قلبه أو عقله أو سلوكه، وبعد التجربة الطويلة، هو يدرك تماماً مكانته وموقعه في قلوبهم وعقولهم. لذا فهو يظهر في مثل هذه المناسبة، على أفضل وأجمل ما يكون، يجد نفسه تماماً وتشعر وأنت في حضرته، كأنك أمام لحظة أبدية لن تنتهي بقفلة طبيعية أبداً...

حين وصل الألق ذروته بالرجل، الذي صار لزاماً عليه أن يسمي المسميات بأسمائها، ويضع النقاط على حروفها، تقدّم من الصفوف الخلفية واقفٌ على قدميه، ظل يراقب التفاعل الدائم في القاعة، دون أن يشارك.

ودون أن «يموت» همّاً، سار بهدوء باتجاه المنصة، وحين وصل إلى سيّد القاعة، دسّ في يده ورقة مطوّية، فضّ طويتها، بعد أن توقف عن مواصلة

ألقه لحظه..ثم أنهى حديثه -على غير عادته- على عجل، واعتذر بأن أدركه الوقت، وموعد هام، لابد من التقيد والالتزام به.

*****

ثلاثون عاماً فقط

بعد أكثر من ثلاثين عاماً من الرغبة المتصلّة، والتمّني المستمر، التقاها هي السيّدة الناضجة. التى لا مثيل لها في جمالها وحضورها، وجاذبيتها، وهو السيّد المحترم المتزوّج، الذي لديه «دستة» من الأنجال والذي لم يكفّ يوماً عن البحث والرغبة في أن يقع في غرام المرأة، التى شكّلتها خيالاته وأحلامه المتصابية أبداً...

التقاها وتواصل معها في العلاقة التى لا تشوبها شائبة، «يفضفض» لها كل همومه ويتحاور معها في كل الشؤون العامة والخاصة، فيجد توافقاً وانسجاماً، تتوطّد دلالاته يوماً بعد يوم...

لايشعر تجاهها برغبة تداهمه في مواجهة النساء الأخريات، لكنه يشتاق إليها كل يوم، بل كل لحظة، ويعتقد بأن الدافع هو أن كلاً منهما في علاقته بالآخر، إنما يحقق زهواً له، هو بتصريحه الدائم لها بقيمتها كامرأة متميزة، وهي بإعجابها الذي لاتخفيه به كرجل ناجح...

إعتراف أخير، كان ينقصهما معاً، وهو أن يعترف أحدهما، أو كلاهما معاً، بأن الحظ خانهما سوياً، فقط لأنهما لم يلتقيا من قبل... وحين ألمحت له بذلك، قال لها: بأنها كانت له قبل أن تولد، وقالت له:بأنها كانت ستنذر نفسها له طول العمر...فقط لو أنهما التقيا من قبلُ....من قبلِ ثلاثين عاماً فقط.

*****

تـــاج

أصرّت إبنتي التى لم تتجاوز بعد، الخامسة من عمرها، اصراراً عجيباً على ابتياع التاج الفضي، المعروض في محل «الأكسسوارات»، حين ذهبنا إليه ثلاثتنا -هي وأنا وأمها-، لشراء هدّية لها بالذات، بمناسبة عيد ميلادها، راغبين في إحداث المفاجأة المعتادة، لكنها أصرّت بأن يكون «التاج»، فوق البيعة، شأناً خارجاً عن حدود المناسبة، وعن الهدية الواجبة، ارتباطاً بها.

لم ندرك كلانا -أنا وأمها- سرّ ذلك الأصرار، لحظتها، لكننا عثرنا عليه لاحقاً.. حين عدنا إلى البيت، انصرفت عنا، بدعوة صديقتيها اللتين هما في مثل عمرها، وقامت بارتداء أفخم أثوابها، ثم وضعت الأكليل، وجلست بين وصيفتيها، أقصد صديقتيها، معيدة بذلك المشهد الذي رأته الليلة الفائتة، والذي تضمن حفل تتويج ملكة جمال العالم.

أيام كاملة، والصغيرة ابنة الخامسة، ترى في نفسها ملكة متوجة لجمال العالم، تتعامل معنا بالزهو والكبرياء، وتحرص على أناقتها وجمالها، الذي صار ضرورياً للحفاظ على المكانة، أو على التاج، إلى أن رأت يوماً، ودون قصد منّا، شريطاً أخبارياً عن ملك ما، دميم الخلقة، محمولاً على محفة، فوق اكتاف رجالٍ حفاة، ركعت الجموع أمامه ذلاً ووضاعه..حينها، هرولت الصغيرة إلى تاجها والقت به من شرفتها، من على الدور الثامن، وعادت إلى سريرها، تندّس في فراشها، وكأنها تهرب من ذاتها.

*****

حدث في يوم السبت

رغم تغيّر الوضع العام، المحيط بالناس، لم تتتغير عادة أهل السوق، في أن يكون يوم السبت يوماً خاصاً، تزدحم فيه الأرصفة، فضلاً عن المحلاّت، ليس بالمارّة، ولكن بالبضائع أيضاً...

البضائع من كل صنفٍ ونوعٍ ومستوى، تختلف في كل شيء، إلا في كونها مستعملة من قبل، وفي كونها أيضاً قد أستخدمت هناك بالذات، في الجانب الآخر من الخط الأخضر...

تملؤك الدهشة، فأنت بعد ثلاثين عاماً، على تلك الوقائع، لم تكن تعلم بأن الأمر سيتجاوز حدود الإغاثة ليتحول إلى ما يمكن اعتباره عرفاً أو عادة، وربما إلى نمطٍ من الوعي أيضاً...كانت أمك حين تدخل البيت، وهي تضع على رأسها تلك الكومة من الملابس الغامضة، كنت تشم رائحتها، فتعتقد بأن أصحابها القاطنين وراء البحار، على قدرٍ من الثراء والجمال، طول القامة، والامتلاء، الرفاهية...ثم الأهم من كل ذلك، أنهم ذوو رائحةٍ خاصة أيضاً...

اليوم أنت تذهب عن سابق اقتناع وترّصد، لتضع جسدك في الثياب التى سبق وأن عايشت أجسادهم، وتشبعت أيضاً برائحتهم، وتقبل بأن تقتات على قمامتهم...

تتجاهل في بلادةٍ ذلك الاكتشاف، وتواصل بحثك عن حذاء، مشترطاً فقط، أن يكون على «مستوى»، إلى أن تجابهك إمرأة.. تشبه إلى حدٍ بعيد أمك، تضع في حجرها أثواباً فلاّحية، حاكتها أيديٍ متعبة (ولاشك) في

ليالٍ ماطرة (ربما)، غرزة أثر غرزة، وحبكةً وراء حبكة، تنادي بصوتٍ شديد الوقع.

- الثوب بخمسة شواقل.

تنتابك حالةُ خاصة، واستثنائية من التأثر، فتضع في يدها عشرة شواقل، وتترك لها الثوبين، آملاً في أن تعود إلى بيتها، بهما...

تواصل سيرك، مبتعداً، وكأنك تهرب منها..منهما...، تلّف السوق كلّه، ولا تنجح في شراء شيء، وحين تعود، تجد المرأة اياها، تلك التى تشبه إلى حدٍ بعيد أمك، بتجاعيدها وشيخوختها، وضعفها المثير للحنق... تجدها في مكانها، مازالت تنادي

- الثوب بخمسة شواقل...

تضع في يدها عشرة شواقل أخرى، وتأخذ الثوبين، وتخرج من السوق هارباً، ومتسائلاً في سرّك، إن كانت زوجتك ستوافق على مجرد فكرة اقتناء الثوبين في خزانتها، فضلاً عن ارتدائهما!.

*****

موعظة حسنة

أن أضع في يدي «سبحة»، صارت عادة تلازمنى، وانتقلت لي من ذلك الوسط، الذي ابتلاه الله بالوعي اليساري، أو التقدمي، كما في بعض الروايات أو المقولات، عند البعض تنمّ عن حالٍ من القلق، وعند البعضٍ الآخر تكشف عن رغبة في الوجاهة، أو بإعتبارها شيئاً من قبيل «الاكسسوار»، أو ماشابه ذلك.

الجميع يدرك بأن الظاهرة، ليست على علاقة ما، أيه علاقة لا بالتسبيح، ولا بتوارث العادة، أو الأخلاص للتراث، أو أي شيء من هذا القبيل..

المهم في الأمر هو، أنني وبينما كنت يوماً سائراً في شارعٍ ما، أمسك بيد ابنتي الصغيرة، استوقفني شيخ وقور، ونبهني بأدب، لعدمٍ جواز التسبيح باليد اليسرى، قبلت الملاحظة بكل الروح الرياضية، وشكرت الشيخ، ولم أسع لسوق الأعذار، من قبيل أنني «يساري»، أكتب بيدي «الشمال» وآكل بها، وأفكر بطريقة أخرى، تختلف عمّا يدور في أذهان العامة، أو عمّا يفكرون به..إلى آخر ما هنالك من إنشاء ممكن..

تجاوزني الشيخ حتى صار أمامي، يسير وأواصل السير وراءه، كانت بيده «سبحة» بالطبع، لم تكن –على الأغلب- من عوامل «الديكور» ومؤكد أنها لم تنتقل إليه بفعل العدوى من النخبة اليسارية..لكنها كانت -ياللغرابة- تتأرجح بين أصابع يده اليسرى، مثلي تماماً، فكّرت للحظة في أن ألحق به، لأسدّد له النصيحة، أو الموعظة الحسنة، حسب

رواية البعض، لكن الصغيرة في يدي، والزحام الذي لفّ أجواءنا أخذه بعيداً.

ومن يومها، لم تفارقني العادة، باستثناء التغير الطفيف: أن أكون حريصاً دائماً على أن أسبِّح بيدي اليمنى، مهما كانت الأسباب والظروف والعوامل، أو حتى المغريات، التى يمكن أن تحول دون ذلك.

*****

كان صديقي

- قهوة سادة من فضلك

يتأمل العم أبو صالح البخار المتصاعد، قبل أن يلقّم الإناء بملعقة القهوة، وتدور به الأيام، التي تتالت دون أن يقوَ على فهم ما رافقها من تطورات، كان يمكن أن تبقى طيّ القدر، لولا أن طال به العمر صدفة، وأخطأته أكثر من قذيفة، وطاشت عنه غير مرّة رصاصات القنص، حين كانت الدنيا، ليست أكثر من ساحة قتال، وليست سوى مغامرة، لا أحد يدري ما ستؤول اليه بعد يوم، ولا حتى بعد ساعة.

القدر وحده...كان سيداً، يتحكم بكل شيء، ليس بأعمارنا فقط، وإنما أيضاً بصداقتنا ورفقتنا...كانت الأيام لحظات متصلّة من الوقت عديم المعنى، لكن الأمر لم يخلُ دائماً من نزوة عابرة، أو متعةٍ ما كان أحد يضمن أن لا تنتهي بفاجعة...

رغم ذلك كنا... نتقاسم السيجارة واللقمة والحياة...، فالخندق الذي كان يجمعنا وقت الإشتباك كان يحتمل خياراً واحداً فقط من اثنين لا ثالث لهما: أن يكون قبراً...أو ملاذاً للسلامة...

كنا جميعاً أخوة... وكنا جميعاً أصدقاء، أما هذا - يا للقدر- فكان أكثرهم رفقة لي

- أبا صالح هيا بنا!

ثم نسهر الليل بطوله

أبا صالح هل تبّقى لديك شيء من نقود؟

ويفتش جيوبك واحداً واحداً

أخي حمداً لله على سلامتك...على سلامتنا.

وبالمناسبة تحتفلان معاً، حتى مطلع الفجر...يتوسط فنجان القهوة الصينية الفضيّة، فيما الأصابع ترتعش بفعل إرهاصةٍ داخلية تفجّرت فجأة، حين فرّت من العين اليسرى، التي طالما أغلقها صاحبها لحظة التصويب، دمعةُ أسى...

- آه أيها السيد، ماذا فعل القدر بنا؟

تقدّم الساعي من السيّد المدير العام خطوةً إثر أخرى، كان يتحدث بالهاتف والسيجار الفاخر في فمه، فيما كان رفيق الأيام التي مضت، يؤدي مهمته بصمت، ويحرص على أن لا ترتعش يدُه وهو يضع فنجان القهوة برفقٍ على الطاوله، ثم يمضي بخاطرة:

- تقاسمناه حلماً...ثم واقعاً،ولكن على أساس القليل...القليل من المساواة....

*****

مبـدع

بكل الثقة التى لدى المبدع، جمع القاص أشتات نصوصه في مخطوط، وبعد أن أجمع قرّاؤه من أصدقائه ذوي الشأن والدراية، تقدّم به إلى اللجنّة المشرفة على الجائزة الوطنية المعلنة.

لم ينتابه الشك لحظة، في أنه سيفوز بواحدة من الجوائز الثلاث المجزية، ولأنه يعاني من بطالة مهنية، وما يترتب عليها من أوضاع معيشية صعبة، فقد أقدم على الترتيب لمشروع صغير، يمكن له أن يوفر للعائلة الصغيرة، التى ابتلاها الله بالمعيل، قليل الحيلة، شحيح ذات اليد، طويل اللسان، لقمة العيش والمعيشة.

ترتّب على الأمر كثير من الديون التى حسبها صاحبنا بدقة، حريصاً كل الحرص على أن لا تتجاوز قيمة الجائزة المنتظرة، والمتوقع حصوله عليها رسمياً بعد ثلاثة أشهر، حسبها باليوم والساعة، ووعد دائنيه على هذا الأساس، حتى يكون صادقاً أميناً، قادراً على الوفاء بالتزاماته.

مضت الأيام ببطء شديد، وتأخر موعد الإعلان عن الجائزة، وكان صديقنا يقوم بالتفتيش اليومي الدقيق للصحف اليومية، باحثاً عن الإعلان، الذي سيتضمن اسمه لا محاله.

بعد مضي وقت أطول من اللازم، لم ير القاص الجميل في أعيننا - نحن فقط - إعلانه المبتغى، ولم يتصل به أحد، ليزّف له البشرى المتوقعّة، لكنه أيقن بأن خللاً -بريدياً ربما- أو فنياً محضاً، هو الذي

حال بينه وبين القدرة على ردّ الديون والمستحقات التى تراكمت عليه.

إعلان واحد فقط، طالعنا جميعاً، بعد وقت، تضمن إسم صاحبنا، وكان فاجعاً، للأسف الشديد، لأنه إعلان نعي، إنطوى على خبر وفاته على الطريقة الوحيدة، التى يمكنه أن يقررها -الإنتحار.

*****

من قبلُ، من بعدُ

قبل أعوامٍ قليلة، كنت تشبه حلماً هام على وجوهنا، أو غيمةً جابت سماء أحلامنا، أفتقدتك أزقّة المخيم وحجارته، وكل بقعة فيه، فضلاً عن أهله، الذين طالما استحضروك في أحلامهم وخيالاتهم، وأطلقوا أسمك على القادم من أطفالهم.

كنتَ مزّيناً بغار البطولة، ومطوّقاً بمشاعر الناس الطيبيين، تتقافز من على أسطحة المنازل، حين تكون هنالك مطارده، كما الغزال، وتنتقل بين الأكفّ المشرعة، والدعوات الحاشده بالسلامه، حتى استقر بك المقامُ في الأفئده...

بعد أعوامٍ، أنت تتذكر السوط يلهب ظهرك، والقيد يدمي معصميك، وكل عذاب الدنيا يحطُّ على كاهلك...تعتصر ذاتك كليمونة من الألم، وتجيب:

- من أجل الوطن يا أبي
- من اجل الوطن يا أبي

ولا يهدأ السؤال، رغم أن جوابه يعمّ المكان بأصدائه ذات الرنين الذي لا يتوقف إلى أن يداهمك الغياب عن الوعي..

أنت اليوم تواجه ذلك المنكمش على ذاته، في الركن المظلم من القبو، بكلّ التحفّز والجبروت، جاهزا للثأر من ضعفك الذاتي الذي طالما انطويت عليه، وسميتّه صموداً من أجل الوطن.

أنت -طول عمرك- مرهون للوطن، قاتلت من أجل الوطن، طوردت...

اعتقلت...ثم صمدت وتمنّيت الموت أكثر من مرّة...وها أنت تقاتل أيضاً، بكل العنف الذي يفاجئك، و القوة التي حطّت عليك، من فوق اكتافك، من أجل الوطن أيضاً.

*****

مســـؤول

كان أول فعلٍ قام به، إستبدال تلك القطعة الخشبية التى تتوسط مكتب المدير، وتحمل إسمه محفوراً على الخشب، ذكرّته تلك القطعة بجوائز التقدير وجوائز المهرجانات، التى طالما كان يرقبها عن بعد، ويمنِّي النفس بواحدة منها، لكن دون جدوى.

أختال الرجل كثيراً، في اللحظة التى كان يجلس فيها على الكرسي، ويدور حول نفسه، ويتأرجح يميناً ويساراً، ولا يكّف عن دعوته الزملاء للجلوس في حضرته، وزادت في زهوه كثيراً، معرفته العارضة، أن ذلك الكرسي بالذات كان يجلس عليه مسؤول كبير، قبل أن تتطور الأحوال سريعاً، ويقوم باستبداله بآخر أكثر أناقة وأعلى كعباً وأعرض زخرفاً...

لم يفكر الرجل لحظة في أن الأمر مؤقت وأنه لن يتجاوز بضعة أيام هي مدة الإجازة الطارئة التى أضطر مديره إليها، للقيام بمهمة غاية في الأهمية، وبالغة في الخطورة، بعد أن ملّ الفراغ و الرتابة القاتلة، التى تحيط بكل ما يمتّ للدائرة بصلة...

على محدودية أمتدادها الزمني، كانت الأيام القليلة مناسبة عظيمة، لأن يحقق صاحبنا كل ما تراكم في نفسه من اعتقاد وقناعة بقدرته الفائقة على القيادة، ولأن يثبت لكل من يقف في طريق تقدمه على طريق المراتب الوظيفية، أنه كان طالباً نجيباً في مدرسة المسؤولين، وأنه ما زال يحفظ عن ظهر قلب سلوكهم وعاداتهم، كيف يشيرون بأصابعهم، وكيف يغلظون من أصواتهم، وكيف يتصنعون الجدّية، وكيف ينفخون أوداجهم

حين يتحدثون، وكيف يقومون بالإفتاء في كل شأن يدور حوله نقاش بين نفرٍ من الناس...

شخص واحد فقط، صار يرى في الأيام القليلة دهراً، يعدُّ ساعاته ودقائقه بوجل وترقب، وهو إن كان في حقيقته لا يرى في زيدٍ خيراً من عمرو، إلاّ أنها لم تعد تحتمل «أبوية» ذلك الرجل، الذي كان يتودّد لها أستناداً إلى اعتقادٍ صريح، بأنه خير نموذج للمسؤول الذي يمكن أن يكون على شاكلته، هو سيد الدنيا، المغامر بعاطفة الموظفة المتدرّبه، المتطلعّة إلى المجد والشهرة، فقط بمجرد أن يرتبط أسمها بإسمه العظيم، حتى لو كان في أطار الشائعة أو الفضيحة.

*****

لبـاقـة

كان قد أغلق على ذاته نوافذ المركبة، وسار بها بسرعة على إيقاع الأغنية الشبابية، ترافقه صديقته الدائمة، التى ماتلبث باحتراقها أن تحيل المكان الضيّق خاصته، إلى ما يشبه ذلك الكيس، الذي يحشر فيه المحققون رأس المعتقل، مهددين بخنقه وهادفين إلى إنتزاع اعترافاته بكل ما فعل وقال، وحتى ربما بما لم يقل ولم يفعل...

بلحيته الكثّة المتربة بفعل الإهمال المتعمّد على الأغلب، إقترب الشاب من الطريق، متشبثاً بحقيبته التى يضعها على كتفه، وبها كل مستلزمات برنامج حياته العبثي، الخاصة بالشغل أو تلك التى تشكل احتياطاً لمواجهة طاريء المبيت خارج بيت العائلة المثير للحنق والتوتر أو الإكتئاب.

حركته الميكانيكية اعتادها منذ وقت، حين تعرّفت حواسه جميعها،على الطرق السريعة، واعتاد بها أن يتنقل عبر محطاتها، حيث ما عاد بالضرورة ينتقل من مدينة لأخرى، باتجاهٍ مستقيم أو مستمر، دونما تقطّع أو تعرّج، حتى أنه تعرّف إلى معنى الطرق الالتفافية، باعتبارها أطول الطرق، وأحياناً تكون أقصرها، قبل أن تأخذ شكلها ومعناها وحضورها على خرائط العراك السياسي بين المتخاصمين اللدودين، اللذين يحاولان أن يكونا جارين حسنين دون جدوى !

حين توقف من ما كان لوقت مضى، يغلق على ذاته، سعياً وراء حفنة النقود، ورفقة الطريق المتقطعّه، تزامنت حركة يده التى أوقفت الأغنية الشبابية، مع حركة قدمه على الكوابح، وأبدلتها بشريط يتلو فيه الشيخ

آياً من الذكر الحكيم...

وعلى امتداد الطريق التى صارت تبدو كل لحظة أطول وأكثر وحشة، يتتابع تلميح الرجل الذي كان منغلقاً على ذاته، بحاجته إلى أن يستل واحدة من صديقاته الدائمات، رغم جلال الشهر، الذي أنزل فيه ما يتلى على مسمعيهما في «مسجلة» المركبة...

أطال ذو اللحية الكثّة المتربة لا مبالاة متعمدة، حتى وصلت اللباقة والكياسة حدّاً زائداً، حينها فقط، أخرج علبة سجائره من جيبه، ووضع واحدة بين شفتيه وسأل ناقله عمّا يشعله بها من النار.

نظر الرجل إلى من يجلس بجواره، نظرة غيظ، واستلّ على عجل من علبته ما يمكن أن يساعده على أن ينفث كل ما بصدره من حنق، أشعلها وشهق أكبر كمية ممكنة من الدخان، قبل أن يقدِّم لجاره ما يمكن أن يشعل به سيجارته، من غير رغبة حقيقية.

*****

يوم الفـرح والمأتم

لطالما أبدى حرصه على عكس كل التوقعات والتنبؤات، التى رأت فيه شخصاً سيء الطالع منذ أن ولد في الخامس من حزيران، حين هبّت أسراب الجراد على معاقل الحقول اليانعة، التى كان يحضّرها الفلاحون ليوم الحصاد. وإلى أن صارت لازمة حولية، أن يحدث مكروه لأحد من المقربين إليه، أو ممن يعيشون معه أو حوله، في كل خامس من حزيرانات الرجل، الذي صار منحوساً في نظر أهله وأقربائه وجيرانه، وكل من في البلد، ممن يعرفه أو يرتبط معه بعلاقة ما...

رغم ذلك فقد كان الرجل مقبولاً على الجميع، نظراً لإخلاصه في عمله، ولضعفه ولكثرة عياله، يجامل الناس، يحضر أعراسهم وأتراحهم ويقوم بالواجب وفق العادة في كل مناسبة.

ونظراً لطبيعة عمله كاتباً في دائرة الأحوال المدنية، فهو يدّقق بشكل جيد في ملفات المواليد والوفيات، ويحفظ كثيراً من التواريخ كما يحفظ إسمه تماماً. ويشعر بأهميته المتزايدة، كلما «راجعه» أقرباؤه أو أهل بلدته وحارته كثيرو المواليد والوفيات أيضاً، في معاملة يريدونها على عجل، أو كلما داهمهم السهو، وغفلوا عن تسجيل مولودة أو حالة وفاة، واضطروا إلى تمضية حال معاملة لازمة، بعد وقت على حدوث الأمر...

حينها ليس لهم سواه، لم يشعر يوماً بحاجته إلى أن يتوارى عن الأنظار سوى في ذلك اليوم من ذلك العام، الذي أكّد له هو شخصياً، الذي طالما دافع عن نفسه، ورفض تلك الصفة التى الصقها به الناس،

بأن لادخان من غير نار، وأن هنالك أصلاً معقولاً ومنطقياً لما يشيعه عنه الناس، حين شهد بأم عينه نتائج النكسة الناجمة عن الهزيمة في يوم الحرب التى أندلعت في ذكرى يوم ميلاده...

لو لم يولد في ذلك اليوم الحزيراني، لكان شأنه شأن كل أبناء جيله، لايحفظ يوم ميلاده، ولايحتفل به أصلاً، بل لايذكره كما عهد الناس ممن حوله.

مناسبة واحدة عدّها ستجبّ كل ما سبقها، وهي ذلك اليوم الذي شهد عامه الستين، حين عدّ بين يدّيه وبأصابعه المرتجفة، مالاً لم يره منذ ولد، بل إن ذهنه لم يصل يوماً لذلك الرقم في أي تعداد سابق.

حين أحيل إلى المعاش، وقبض مكافأة آخر المدّة، أحتار صاحبنا، الذي ترك صفاً من الأنجال، الذين صاروا أصحاب بيوت وربات لها، وإمرأة رافقته أكثر من أربعين عاماً، في رحلة الحياة الصعبة، إحتار فيما عساه يفعل بكل تلك النقود، ولم ترق له كل فكرة طرحها عليه واحدٌ من أولاده أو واحدة من بناته، وشمّ فيها رائحة مصلحة خاصة به أو بها...

رغبةٌ واحدة لازمته طوال عمره، ولم يكن بمقدوره أن يحققها، فكّر في الإقدام على تنفيذها، هي أن يتزوج فتاة صغيرة، بيضاء، لاتلد له أحداً، وتتقن الرقص الشرقي، حتى ينزّه شيبته، فيما تبقى له من أيام...

ثم أقدم على فعلته،قبض مكافأته، حيث دفع جزءاً مهماً منها مهراً للعروس الصغيرة، وكتب كتابه في نفس اليوم الذي ولد فيه، وحين دخل إلى عروسه، تناول حبة منشط أعتقد أنها ستكون كافية ليقوى على مواجهة شيخوخته، والقيام بواجبه كزوج...

أضطّر لواحدة أخرى، ثم لثالثة فرابعة...

وحين أصبحت عروس الغفلة، كان مستغرقاً بجوارها في نومٍ لا صحو من بعده.

*****

الحب على الصورة الأولى

ما أن رآها حتى إرتدّت ذاكرته إلى الوراء، أكثر من عشرين عاماً، وقد هاله الشبه الكبير بينها وبين تلك الفتاة التى ظلّت فتاةً لأحلامه، ولم تغادرها، رغم ما أحدثته وقتها في نفسه من نكسة عاطفية حوّلت مسار حياته بأسره.

خال أنه، في بادئ الأمر، وقد وصل إلى حالةٍ مرضية من تهيؤ الأوهام، يتخيل ما هو غير قائم، كانا شابين متحابين، يجلسان كل يومٍ على المقعد الخشبي، تثير في قلبه كل هوى، وتلهمه بموهبة الشعر الّتى بشرّته بمكانة أدبية، كانا يحلمان معاً، ويفرشان طريقهما القادمة بكل الورود، ويعدان نفسيهما بحياة أبدية، يكوّنان الأسرة التى تضم أطفالاً أجمل من البهاء وأحلى من السكر.

إلى أن فوجيء يوماً بأنها صارت لواحدٍ غيـره، هكـذا من دون مقدمات، يومها أفجعته المفاجأة، وتضاعف وقعها، حين علم بأنها قد ارتبطت برجلٍ يفوق عمرها بالضعف تقريباً، ثم عرف معنى آخر للحياة، حين رأى العربة الفارهة التى تقوم بايصالها كل يوم إلى الحرم الجامعي...ثم كل معالم الثراء وقد بدأت تتناثر من حول تلك الفتاة التى كانت بالأمس فتاة لأحلامه، وما غادرتها، بعد ذلك، رغم أنه تزوج زيجة واقعية، وانخرط في واقع الحياة، حتى صار على قدرٍ من الثراء، هو أيضاً...

ما عاد بمقدوره بالطبع أن يغامر مع فتاة أخرى، حتى لو كانت شديدة

الشبه بتلك، التى ترّبعت طول الوقت ﬞ مخيلته، وظلّت هكذا إلى الأبد، لكن دافع الرغبة ﬞ مداعبة الخيال المراهق، الذي انطوت عليه الذاكرة، كان وراء سعيه إلى أن يلتقي ذلك الشبه، الذي لابد أن يكون متحاباً مع شابٍ بمثل وسامته وشبابه اللذين كان عليهما قبل عقدين من الزمن.

مفاجأة أخرى كانت بانتظاره هذه المرّه، حين بادرته الفتاة الصغيرة، التى هي بعمر أحلامه التى مضت، وصارحته بحبها، وباستعدادها أن تكون له وحده، زوجاً أو عشقية، تجلس تحت قدميه!

بادرة مثيرة، لكن دافعها بالتأكيد ليس حباً عاطفياً، ورغم ما تثيره ﬞ نفسه من شعور بالزهو والتفوق، الاَّ أنه أدرك على الفور، بأن ما لديها شيء آخر غير الرغبة ﬞ المشاركة بتحقيق حلمٍ عاشقٍ جميل، طالما راوده، وداعب خيالاته...

تمنّى من أعماقه لو كان ﬞ مثل عمرها، ولو كانت ظروفه تشبه تلك التى كان عليها قبل عشرين عاماً، هكذا عاد يحلم مجدداً بالمستحيل، ولم تخطر بباله مطلقاً أيه رغبة بالأنتقام من تلك التى فجعته ﬞ حبه، حتى لو كانت هذه الفتاة هي بنت تلك الفتاة التى مضت، ثم عادت إليه مجدداً بعد عشرين عاماً، دون أن تغيّر بها الأيام شيئاً.

*****

إنتـــرنت

منذ كان صغيراً، هو يميل إلى أن ينسل خارجاً من صخب الحياة وضجيجها، يفكّر طويلاً في كل أمرٍ ينوي القيام به، أو في أي قولٍ يهمّ بالافصاح عنه.

البعض، ممن يحيطون به، رأى فيه إنطوائياً، والبعض الآخر عقلانياً، والقليل منهم، تنبأ له بحياة مغايرة، أما هو فلم يخطط لشيء، سوى أنه توصل مبكراً إلى الاعتقاد بأن العالم، الذي يستحق أن يمنحه إهتمامه، يتجاوز أسرته، عشيرته، وحتى بلده الصغير، وإذا ما أطلق العنان لخياله، وفكّر في الاتساع المذهل للكون، توصل إلى نتائج، تدفعه إلى الجنون، وإلى احتقار كل من في هذه الدنيا الصغيرة، التافهة إلى أبعد الحدود.

على النقيض منه تماماً، كان شقيقه التوأم، الذي لم يكن على شبهٍ به، ليس في الشكل وحسب، ولكن في كل شيء تقريباً، الطباع، الميول، الإهتمامات، الآراء، المواقف. كان على عكسه تماماً، إجتماعياً إلى أبعد حدٍ، وتقليدياً أيضاً، صورة كربونية عن أبيه، بذكورته الاجتماعية البالغة، وميله الواضح إلى العنف والاندفاع والقوة.

قليلاً ما كان الشقيقان يتقابلان، رغم أنهما عاشا معاً، ودرسا سوياً، وبدرجة أقل كانا يتحاوران، وهما يعلمان النتيجة سلفاً.

تابع صاحبنا إهتمامه غير العادي «بالإنترنت»، وانعكست عليه، بشكل واضح ثورة الاتصالات العالمية، وطوّر تحصيله للغة الانجليزية، وانفتح

هو المنزوي في الركن الضيّق من الحيّ الهادئ، في المدينة النائية، على كل العالم الذي صار بين يديه، مربوطاً بمفاتيح الجهاز الإلكتروني.

ثم بعد وقت تعرّف صاحبنا إلى فتاة رآها على الشاشة الإلكترونية، وتحادث وإياها أياماً وليالي طويلة، تعرّفا خلالها على بعضهما بعضاً، فتوافقا واتفقا على الزواج. كانت من غير أهله، تتحدث لغة أخرى، وتعتنق ديناً آخر، أما شقيقه التوأم، الذي أصّر والدهما على أن يزوّجهما معاً في ليلة واحدة، فقد تزوّج، أقرب فتاة إليه، أبنة عمّه، التى بالكاد رآها.

وبعد سنين كانا كلاهما على وئام تام مع زوجتيهما، الأول مع قليل من الأولاد، وكثير من التعاون، والثاني مع كثيرٍ من الأولاد، وكثيرٍ من التحديد في الوظائف والمهمات العائلية بينه وبين زوجته.

*****

إفتراضي

لم تجرّب أن تكون أعزباً يا صديقي

ثم يفهم نظرتي الاعتراضية، فيستدرك: أقصد، أن تكون كذلك بعد طول زواج.

أفهم الحسرة والرغبة المتزجتين في نبرة صوته، وأدرك عمقها، خاصة لواحد مثله، في مثل هذا الواقع القاحل من العواطف ومن الفتيات المنفتحات علىً مثله، اللواتي لا يشترطن الزواج سبباً لنشوء العلاقة بين «الضدّين»: الرجل والأنثى.

زواجه انتهى مع انتهاء الشعار الكبير -ياللمفارقة- ويالسوء حظه، حين كان مثالياً وربط كل مصيره وشؤون حياته الخاصة به. وحين صارت الأحلام أصغر كثيراً من كل التوّقع الذي كان، صار هو على قارعة طريق الوطن، الذي طالما أحبه وقاتل من أجله، بكل الإندفاع والحيوية، اللتين تميّز بهما، كما الكثيرون.

في حضرة الأنثى -أية أنثى- حتى لو كانت كذلك بمجرّد الإسم فقط، يستحيل هذا المتوحش إلى قطةٍ وادعة، حتى صار هو الذي مرّت عليه النساء، كما أسراب الطيور المهاجرة، يفكّر جدّيا في الزواج من إمرأة، أية إمرأة.

لم تكن له شروط، سوى أن تكون قادرة على الإنجاب، وأن تقبل بفارق العمر الذي لابد أن يكون بينهما.

أسخر منه فيقول: ما أصعب أن تكون أعزباً بعد زواج أو أن تكون

قاحلاً بعد خصب...

أصحح له القول مستعيناً بالحكمة: أعزب أبد الدهر...يهلّل لتعاطفي وتفهمي، ويحكي لي كل صباح عن مشاريعه بالإقتران، التى تنتهى كل مرّة عند اللحظة الأخيرة.

لايدرك هو بالطبع، الدافع الذي يمنعه من إتمام الأمر، إلى أن نشأت علاقة هاتفية بينه وبين فتاة عاملة في مؤسسة عامة، فرضت ظروف العمل عليهما التهاتف شبه اليومي.

إعتقد لوهله بأنها مشروع زوجته المفترضه، فصار يحاسبها على مكالماتها مع الآخرين، وعلى كل صغيرة وكبيرة في حياتها، هو يعتقد بأنها صارت خاصته، التى لابد أن تخلص له في الحديث والتهاتف، وأن لا تفعل الشيء ذاته مع الآخرين.

لم يتقدم -بعد- بالطبع في طريق الإجراءات الرسمية اللازمة، وسار على هذا المنوال وقتاً، إلى أن فوجيء يوماً بشكوى، رفعتها ضدّه الفتاة إياها، واتهمته فيها بسوء استخدام الهاتف العام، وبالتورط في شبهة المعاكسات السلكية.

*****

إعلانات

كما هي عادتي اليومية، أدخّن سيجارتي مع فنجان القهوة غير المحلاّة، وأقلّب الصحيفة، ثم أمرّ على عجلٍ على الأخبار السياسية، التى تنغّص المزاج، وغالباً ما تفطر القلب، ولا أتوقف الاّ عند الإعلانات وأخبار الرياضة.

هنا المجتمع بأسره، ينفتح أمامك على صفحات الورق، منذ الصفحة الأولى، تهنئات بالترقية، الزواج، المواليد، سلامة العودة بعد رحلة علاجٍ، أو حجيجٍ، أو إستجمام، تعازٍ على فقدان عزيزٍ ذي أقارب معروفين، متنفذين، قادرين أو مقتدرين، شجب واستنكار، إعلان براءة، حصر إرث، أو وظائف شاغره.

يستأثر المسؤولون والموسرون، كثيراً بكّم الاعلانات، الفقراء هنا، لامكان لهم، لعدم قدرتهم، ربما، على دفع مقابل الإعلان.

تتوقف مطوّلاً عند الإعلان المزدوج بالتبليغ بالطلاق الغيابي، الأول إلى نادية، مجهولة محل الأقامة، يخبرها القاضي الشرعي بأن زوجها غير الداخل بها ولا المختلى بها، قد أوقع عليها طلقةً واحدة، بائنة بينونة صغرى، لاتحلّ له الاّ بعقدٍ ومهر جديدين، ما لم تكن مسبوقة منه بطلقتين.

والثاني الى المدّعى عليه، بلال، مجهول محل الأقامة، يخبره القاضى الشرعي بأنه قد حكم بالتفريق بينه وبين زوجته ومدخولته بصحيح العقد الشرعي، بطلقةٍ واحدة أولى بائنة بينونة صغرى للغيبة

والضرر، ما لم تكن مسبوقة بطلقتين، وأن عليها العدة الشرعية، إبتداءً من التاريخ المبيّن أعلاه.

تفكر برهة في أحوالك. وتستعرض مسيرة الإحباطات والمعاناة والضنك، التى رافقت حياتك كلها، إحتمال وحيد يثير في أوصالك الرعب، فتستدرك الأمر بالرغبة في الإعلان عن شكرك العميق إلى الله، سبحانه، الذي رغم كل ما أبتلاك به، في هذه الدنيا الراحلة على عجل، ورغم أنه خلق المرأة، على أبهى صورة، وأجمل هيأه، فأنه يستحق منك كل العرفان بالجميل، فقط لأنه لم يخلقك إمرأة.

*****

دوام الحــال

تمر الأيام وأعتاد معها الحياة في الدائرة الضيقة، المحددَة بالحواجز الأربعة، ولا أفكر فيما هو أفضل، ذلك أني هذه المرة في وطني، الذي لا تعادل متعة الإقامة فيه أية متعة أخرى، خاصة حين يدور الحديث عن واحدٍ مثلي «مرمرته» المنافي وألقت به نزعة التمرد الدائمة الى عدم الثبات على حال.

ولأن بقاء الحال من المحال، كما يقال، فقد بتُّ أسمع، بعد وقت، وأرى وأتلمس بأن حالي هذا، ليس حالاً عاماً، فهناك إستثناءات لشخصيات مهمة جداً، يمكنها أن تمر عبر الحواجز، في كل ظرف، وفي كل وقت، لم يعنني الأمر كثيراً، لأنني اعتقدت بأنه يتعلق بشخصيات هي فعلاً مهمة.

إلى أن داهمني الإكتشاف يوماً، حين رأيت مبدعاً كبيراً، هو شخص مهم جداً، بكل مقاييس العصر، يتوسل إلى مرافق لشخص مسئول أن ينقل له حاجة عبر الممر المستحيل، حينها قمت بالبحث والتقصي عن المفهوم الملازم للشخصية المهمة، فتوصلت الى النتيجة بأنه لا يتجاوز واحداً من أثنين: مسئولاً عسكرياً يعلق على كتفه ما يدل على مكانته، أو موظفاً كبيراً يحتل مكانة وظيفية أو إدارية ذات شأن.

لا ينطبــق الحــال بالطبع علــى كاتــب أو مبــدع أو فنــان مهمــا بلغت أهميتــه، أو تراكمــت أعماله، و حتى لو طبقــت شهرته ومكانته الآفاق.

تذكرت سؤال الباحثة السينمائية على الفور، لنا، وكنا نفراً من الكتاب، عن المعنى الذي قصده مخرج الشريط السينمائي، زوجة رجل مهم، حين كان إجماعنا على الجواب، بأنه ضابط في الأمن، لم نعتقد نحن أيضاً بأنّ المقصود، يمكن أن يكون كاتباً أو مبدعاً، حينها فقط، كتمت غيظي، وتكوّمت على ذاتي، وأيقنت بأن دوام الحال ممكن، على كل حال.

وفي كل ميدان وفي أي مجال، وأن حياتنا – والحمد لله -تمام التمام وعال العال.

*****

صبوة المراهقة

إنها تحبه حباً حقيقياً، وهي على يديه اكتشفت أنوثتها وحقيقة الرغبة التى تجتاح الأنثى تجاه الرجل. ومعه هاهي تعيش أياماً حلوة، ملؤها الحياة بكل ما فيها من معنى ومن إقبال فتي، لا يعرفه إلا الشباب حقاً.

وهو يحبها من أعماقه، فهي فتاة أحلامه ومشروع حياته، تخلّص معها من وحدته القاتلة، ويشعر برفقتها بزهو لا حدود له، رفيقة يحسده عليها أقرانه، نظراً لما تتمتع به من جمال وشخصية استثنائية بكل معنى الكلمة.

تحت ضوء القمر الربيعي، كانا يقضيان أمسيات عذبة، يناقشان بإنسجام كل أمور الحياة، ويتبادلان أفكارهما المتوثبة، الكتب والأشرطة، التى تتداولها الأيدي بسرية خاصة، ويحلمان معاً بوطن آخر، لا يعدّ فيه المخبرون أنفاس الناس.

يتجولان كعاشقين، إنفتحت عنهما صفحة الأيام في زمن تكثر فيه لوائح الممنوعات، لا يمكنه أن يفكر بحياته اللاحقة دونها، أما هي فلا يمكنها أن تسمح للحظة بأن تمر دون أن تستمتع بالألفة التى توفرها لها رفقته.

سؤال واحد كان عليهما أن يجيبا عليه معاً، هو يلحُّ عليها، وهي دائمة التهرّب منه، هو يرى فيها المرأة الوحيدة في الكون التى يمكن له أن يتخذ معها قراره الأزلي، وهي ترى فيه مستقبلاً غير آمن !.

وحيث أنه كان لابد أن تحضر يوماً اللحظة الفارقة، ودّعته على عجل، ثم عادت الى البيت تعطي موافقتها على العريس، الذي يمتلك كل الشروط اللازمة لتأمين بيت لائق لزوجة فاتنة.

تقّبل الأمر بروحه الرياضية، وتقدم من الفتاة التى طالما تقربت إليه، ورأت فيه زوجاً محباً، قادراً على توفير الأمان العاطفي لها.

ثم عاشا كلاهما بسعادة، هي أمتلكت بيتاً ومركبة ورصيداً مالياً، وزوجاً وجيهاً إجتماعياً، وكان بمقدورها أن تذهب الى حيث تريد، وأن تشتري ما تشتهي، وهو زوجة مخلصة تحبه وتفضله على كل الرجال جميعاً.

أما الأيام العاشقة فصارت تجول بالخاطر، كمزحة، أو كصبوة المراهقة، التى تمر كبرقٍ خاطف في ليلة حالكة الظلام.

*****

وردة

تبدو جميلة تفتحت للتو، وهي إضافة لصباها تتمتع بقدر من الجمال والرقة، يدفع من حولها إلى إبداء إهتمامٍ خاص وواضح بها.

أما أنا، فإن ما يدفعني إلى أن أوليها الإهتمام، إضافة إلى ما لديها مما يثير اهتمام الآخرين، هو ما لدي أنا من رغبة، ومن استعداد للاهتمام بهؤلاء الصبية وأولئك الفتيات، نظرا إلى ما يضفونه على حياتنا من حيوية ومن إقبال واستعداد للتجدد المفترض، وربما أيضا تحقيقا لدافع نفسي، نسعى عبره إلى إقناع أنفسنا أولا، بان حياة الشباب لم تغادرنا بعد.

لذا فانا دائم التودد والتقرب واللجوء أيضا، أخترع المبرر أحيانا كثيرة للحديث والكلام، تفهم بالطبع وتشعر بما أكنّه من ودًّ لها، ثم ندور كلانا في نقاش، كنت أظنه في باديء الأمر مفيدا لباحثٍ إجتماعي مثلي، يهتم بأمر الشباب وهمومه ومشكلاته.

تحادثنا مطولا عن الجلباب. الذي يحجب القوام، وعن المنديل الذي يخفي شعراً حريرياً تحت طيّاته، وتبادلنا آراء في السياسة والحياة والتكنولوجيا...

سألتني عن سر إهتمامي بالمرأة فأجبت: لقناعتي بضرورة وأهمية أن تتحرر من الظلم والإضطهاد، الذي تتعرض له في مجتمعاتنا الشرقية ....

أنكرت بإحتداد أن تكون المرأة عندنا مضطهدة..توقفنا عن الحوار، واكتفينا بصباحات الخير والسلام عن بعد فقط...

هـو . . . . .هـي

هو تجاوز الأربعين من عمره.

هي تخطت العشرين ربيعا بقليل من السنين وحسب.

هو متزوج وأب لعدد من الأولاد، ومسؤول عن عائلة.

هي ليست كذلك، وما زالت بنتا، تخضع للرعاية والولاية، من قبل الأب، الأم والأشقاء الذكور.

هو هوائي، يمكن أن يشعر بالرغبة، وأن يكنّ الهوى لكل نساء الدنيا.

هي تنتظر نصيبها الذي تعتقد بأنها ستمنحه قلبها بعد أن تمنحه حقه الشرعي في جسدها.

هو لا يقوى على التفكير بالزواج من أخرى رغم إستعداده للوقوع في هوى إمرأةٍ أخرى.

هي تنتظر وعداً بالزواج، حتى تفتح الباب إلى قلبها.

هو لا يبدي إستعداده لذلك.هما في إتجاهين متعاكسين.

هو دائم التنقل والتحول

هي دائمة الانتظار

*****

ضــدان

رغم إختلافهما البيّن، الدائم والمستمر، ليس في الطباع وحسب، ولكن في الأخلاق والإمكانيات والمعتقدات أيضاً، إلّا أنهما ترافقا في مسيرة الحياة. في البداية كانت الصدفة هي التي حطّت بهما إلى حارة الصبا، ثم بعد ذلك، صارا يمضيان في الرحلة معا، رغم الإختلاف الذي كان احيانا، يؤدي بهما الى التنابذ والتباعد، والإنخراط في إتجاهين متباينين.

كلاهما كان مقتنعا تماما بحياته وإتجاهه، لكن أحدهما لم يكن يقوى على التفكير في الحياة دون الآخر، وربما كانا كلاهما، يدركان في أعماقهما بأن الآخر يشكل خط رجعة للذات، يقلل من إندفاعهما في التطرف، ويمثل ضمانة أيضا في حال أثبتت الأيام خطأ الإتجاه والتوجه.

وهما على فرادة حالهما، في تلازمهما، على ما هما عليه من تباين، لم يكونا ليشكلا إستثناء في التباين، الذي كان سمة عامة للمحيط من حولهما، الذي كان على أي حال يضع حدودا، يقرُّ بها الجميع لما هو ممكن، ولما هو مستحيل.

وحدتهما بدت أبدية، لا يمكن للمرء حتى، أن يفرِّق بينهما، وهو حين كان يقترب منهما أكثر من اللازم، كانا يمضيان معاً في مواجهته كرجل واحد.

الوظيفة العامة وحدها فعلت بهما ما كان مستحيلاً، حيث كان بمقدور الأول أن يحقق بإستعداده الفطري للتزلف، ما لم يقوَ الآخر على فعله، رغم كل ما بذله من جهدٍ وما دلّل عليه من قدرةٍ وأقتدار.

الفتى والكهل

الأول،فتى في مقتبل العمر، بهيُّ الطلّة، في ريعان الشباب.

الثاني،كهل في آخر العمر، أبيّض شعر رأسه، وغزت التجاعيد وجهه وغادرته النضارة على عجل.

الأول، يواظب على التقاليد، ويدور في دورة الحياة الصامتة، دون أن يسعى الى تجاوزها بخطوة واحدة.

الثاني، دائم التوثب والتجاوز، يتعامل بإستعداد مكتسب مع كل جديد، ويمتلك قدرةً خاصة على التأقلم مع الوقائع.

الأول، ثابت على الفكرة الأولى، من درسه الأول، سائر على درب السلف، دونما تردد أو توجس.

الثاني، دائم المراجعة والإجتهاد، متوقد الذهن، واسع الخيال.

الأول، لديه ذاكرة لا تقبل الجدل، ولا تتعامل مع الشك.

الثاني، يملك عقلاً شكاكاً، لا يأخذ بالقشور، وينفذ الى جوهر الأشياء.

الأول، يتتبع سير الحياة منذ أزلها حتى نهايتها الموصوفة.

الثاني، يبدع في الحياة، ويضع نصب عينيه نهايتها الغامضة.

الأول، شيخ في هيئة شاب يافع، خذلته الفكرة الصماء.

الثاني، شاب على هيئة كهل، خذلته سنّة الحياة الفانية.

هما الكهل في الشاب والشاب في الكهل، يحتاج أحدهما الآخر،

الأول يحتاج هيأة الثاني، والثاني يحتاج هيئة الأول.

هما ينزعان الى المستحيل.

*****

عماد باشا

تثقل النياشين على كتفيه، حتى أنه لم يجد بُدّاً من التمدد على مقعده الوثير، ينظر بطرف عينيه إلى الكؤوس الملقاة بإهمال على الطاولة المضطجعة أمامه بترهل، يفكر في ما هو فيه من ملل وفي أيامه التي تمضي كسولة باردة.

لم تعد الألقاب تعني له شيئاً، بعد أن منّت عليه القيادة العليا بكل ما جال بخاطره منها، ولم تعد الأوسمة التي تلقاها، دونما مناسبة أو سبب يؤهله لأن يكون جديراً بها، تثير في نفسه السرور الحقيقي، وحدها النياشين المعلقة على البزّة الرسمية، هي ما تثير في نفسه زهواً بارداً، لأنها ترافقه على الدوام، وبها يمكنه أن يتقدم من النساء بقوة، لا يخالها تتوفر لدى الرجال الآخرين!

ولأن مصاحبة النساء، تكون أجمل، حين تتم في إطار طقسه الخاص، فقد إعتاد أن يبدأ ليلته بكامل «بهائه» المصطنع، ثم يلج فيها مصطحباً كل العوامل المساعدة على الإنتشاء، من السوائل إلى الدخانيات المهرّبة، يراقب وحده، فضائيته المحببة، والتي عبرها أمكنه أن يتعرف على الوسائل والأشكال الحديثة للتعامل مع المرأة.

هكذا يمضي العماد وقته، وهكذا إعتاد أن يقضي لياليه، بعد أن هدأت جبهته، وتراخت أعصابه وإهتماماته، وما عاد يشغل باله، سوى فتوحاته المشتهاه، على الجبهة الطبيعية الأولى التي اكتشفها الإنسان البدائي

الأول، حين أخرج الشيطان آدم من الجنة.

وحين يرتفع الخط البياني لليل، ويدور الخدر في الجسد العجوز، ويشّف الشعور ويستحيل إلى حال أثيريه، يبدأ كما الرفيقة المتخيلة بخلع نياشينه، ثم ملابسه قطعة ... قطعة، إلى أن تنفتح الطبيعة على بلاهتها، ثم في لحظة الذروة يلطمه القدر على قفاه، حين يصطدم كفه- خطأ- بجهاز التحكم عن بعد، فتنقلب قناة البث، لتعرض شريطاً إخبارياً للحرب الدائرة في مكان آخر.

*****

مبادرة

زرقة السماء في عينيها، ولاعج الشهوة الضاج بين شفتيها، يغويني إلى الإندفاع في المغامرة إلى أبعد مدى ممكن.

لكنّ ما يدفعني إلى التفكير ملياً في الأمر، هو أن شيئاً خاصاً، أو فعلياً لم يتم بعد على طريق هذه المغامرة المأمولة، وأن شيئاً لم يتعد حدود الإطراء الذي يدير رؤوس الحسان، الذي إعتدت أن أزجّ به لكل جميلة تصادفني هنا أو هناك.

هي تدرك هذا، لكن ذكاءها، كشف لها أيضاً حقيقة هشاشتي وضعفي إزاء الجنس الآخر، وقابليتي للسقوط في هوى أول إمرأة تأخذ بيدي على طريق المغامرة اللذيذة.

كان يمكنها بالطبع، وهي الرائدة في العمل النسوي، وذات الشخصية القوية، والكيان المثير، أن تصفق لي بأصبعيها حتى أهوي ككومة من القش، أو أن أشتعل كعود ثقاب.

لكنها لم تفعل، في حين أنا لازمني ضعفي وترددي، وخوفي من أن أخسر المرأة التي أشتهي، شر خسارة، بتهمة قلة الحياء، إلى أن صدمت أوهامي، في نقاشنا العام، حول إن كانت المرأة المتحررة، مستعدة للمبادرة في إعلان حبها، وفي اختيار شريكها، أم أنها ستبقى تنتظر منه التصريح بحبه ورغبته، حتى لو كان ذلك واضحاً في عينيه وفي شوقه ولهفته فقط لأنه الرجل!

*****

مطلّقة

هي ذات المرأة التي طالما حلُم بها، وإشتهاها في لحظات خلوته، وكان يبذل كل جهده، ليظفر منها بنظرة عين واحدة.

قبل أعوامٍ قليلة، لا تصل عدد أصابع اليد الواحدة، كان يبني كل أحلامه وأمنياته على أمل أن تكون زوجته، التي طالما رآها طيفاً من البياض القادم من عالم الأحلام، تودّد وحاول بكل الوسائل أن يتقرب منها.

لم تكن فظّة، وكانت أرّق من أن تؤذي مشاعر أحدٍ آخر، لكنها لم ترد له اللهفة بمثلها، ولم تقابل تودده تودداً، وهو إزاءها لم يحتمل ضياع الوقت، فإعتقد أنها كمثل الأخريات، تصدّه طمعاً بإدراك حقيقة رغبته ومآلها.

لم يتردد لحظة في التقدم لخطبتها، بعد ذلك فقط إقتنع بأنها لن تكون زوجته التي يشتهي، حينها أغلق باب قلبه على طيفها، مكتفياً بالعاطفة الطفلة، وبالرغبة الأولى، مقتنعاً بحقها في إختيار شريك حياتها، الذي لم يكن ولعظيم أسفه هو شخصياً.

لم يتزوج هو، حتى هذه اللحظة، لأنه لم يلتق بعد إمرأة، كتلك التي إنغلق نبض قلبه على طيفها، هي فعلت، ولم تنخسف الدنيا، لكنها بعد عامين فقط، كانت قد تطلّقت.

لم تكن صدفة، على الأغلب تلك التي جمعتها به، مجدداً وكانت قد صارت إمرأة أكثر أنوثة وجمالاً، توَدّدت إليه، وعبّرت له بشكلٍ صريح عن

رغبتها في أن تلتقيه دائماً، باحت له بمكنونات صدرها، ومعه فقط كانت على إستعداد لمداواة جراحها، والمغامرة بتكرار التجربة.

دونما إندفاع، وبتحفظ واضح، وافق على أن يقضي وقته معها، لكن دون أية أوهام، ترتبط بمجرد التفكير بالزواج منها، إنها مطلّقة، هذا هو الجواب الذي ردّت به دواخله، حين قفز السؤال من قلبه إلى رأسه، وهو يراقب حركاتها الودودة، وحديثها العاشق!

*****

«وجيه»

تتنقَل جماعة الخير ببطء، يتلفَع أعضاؤها بعباءاتهم الثقيلة، يتوسطهم المختار، في موكبٍ مهيب، بين طرفي النزاع، اللذين دبّ الشقاق بينهما على توزيع التركة الكبيرة بين الأشقاء الورثة.

لم أكن مقتنعاً يوماً بالمخاتير، ولا بدورهم الإجتماعي أو الوطني، حتى سنحت الفرصة النادرة لي، في الوقوف على منطق هذا المختار، مركز «جاهة» الخير تلك، فأطرقت أستمع إلى كلماته العادلة، التي وضعت الحق في نصابه، حين إحتجّ أحد الأخوة، وكان على غير وجه حق، وقف في وجهه، وفنّدَ بمنطقٍ لا يقاوم رغبته الطامعة في الاستئثار والتفرد.

على غير عادتي،صرت جليساً في ديوانه، أستمع كل يومٍ لقصةٍ من قصصه في إصلاح ذات البين، وأقف على واحدةٍ من مآثره في إحقاقٍ الحق ومنع وقوع الشقاق والفرقة بين الأخوة والأهل، الأقارب والجيران.

إلى أن ذهبت إليه يوماً، ووجدت في حضرته «جماعة» أخرى للصلح، جاهد مختارها معه، بما أوتي من قوة منطق، ليثنيه عن الرغبة الواضحة والعارمة في الإستئثار والتفرد بتركة أبيه، الذي مات وترك له ثروة كبيرة، لكن مع قليلٍ من الأخوة، الورثة.

*****

عنوان

زميلنا المتدرب في قسم التحرير الصحفي، الوافد حديثاً إلى «المجلة»، صار موضوعاً لتندرنا الدائم، ذلك أنه إعتاد أن يضع عنواناً مثيراً ثم يبحث له عن مقال!

الذي دفعه لذلك، هو رغبته في محاكاتنا، نحن الأقدم منه في المهنة، الذين كان حين يقوم بالإطلاع على مقالاتنا، تثيره عناوينها، حتى أيقن أهمية العنوان ودوره في اصطياد القاريء، أما الموضوعات فكانت تقريباً متشابهة، تشترك في الدوران حول الموقف «المركزي»، والدعاية الإنشائية له.

تذكرت زميلنا ذاك، في أيامنا هذه، التي تزخر بالموضوعات الكثيرة والمثيرة، تبحث عن عناوين مثيرة فقط، تذكرته بقوة، وأنا جازم الإعتقاد بأنه لو واصل معنا مهنة الصحافة، لصار اليوم صحفياً مرموقاً، لمجرد قدرته على إقتناص العناوين فقط، ومعها جموع القراء الباحثين عنها، دون جدوى.

*****

تكنولوجيا

١- مصعد

شعرت بحنقٍ ما، وببعض الغضب، حين توجهت إلى مكان العمل، ووجدت المصعد الآلي معطلاً، بسبب انقطاع التيار الكهربائي، فأضطررت -على مضض- إلى أن أصعد درجات السلم الطبيعي، التي كانت كلما إزدادت صعوداً، كلما شعرت معها بصدري يصعد ويهبط في لهاث واضح.

كان الأمر مناسبة، لأن ألقي تحيات الصباح على الزملاء والزميلات، ثم وجدتني أعرِّج على بعضهم، فأتناول فنجان قهوة هنا، أو كوباً من الشاي هناك.

لم أكن أعلم بالطبع، دافعي لذلك، أكان الرغبة في الظفر بقسطٍ من الراحة لجسدي الذي ترهل، مع إعتياده الصعود آلياً، أم التمني في إسترداد لحظة من أيام مضت، بسرعة البرق، كنا خلالها على عادةٍ التحلق حول فناجين القهوة الصباحية، نقرأ الصحيفة معاً، نتناقش ونتداول ونتحادث، ثم ندوِّر «النكات» بيننا، فتتنفرج أساريرنا على مداها.

٢- سيارة

قبل وقت قصير جداً، كنت فتياً، رشيقاً، لا أخشى مرضاً يداهمني على حين غرّة، أشعر بقوة داخلية، تمنحني القدرة على ممارسة دوري الوحيد في الحياة: الكتابة...

أسير من منزلي إلى مكان العمل، في رياضة صباحية، تبثّني إقبالاً

واستعداداً لعملٍ يومي، لا تتسع له الساعات الست على طولها.

وكانت لي صداقات حميمة، نبتت على طول الطريق، المنبسط، على إمتداد شاطيء البحر، كنت آخذ منها حكاياتي ومواضيع قصصي، أناقشها في هواجسي وأحلامي، وحتى في موضوعات مقالاتي.

لم يعد الأمر كذلك الآن، بعد أن شعرت يوماً بالضيق والكسل، وصرت أرى رحلتي اليومية من سرير النوم، إلى مكتب وثير لا يختلف عنه كثيراً، أو صرت أراها رحلة بين موتين عابرين، يتكرران كل صباح.

الهموم تثقل صدري، دون أن أقوى على معالجتها، بما إعتدت عليه، طوال رحلتي في الحياة، كأنه الموت قبل أوانه، ذاك الذي جاءت لي به تلك المركبة التي نزعت مني البهاء، حتى شخت معها، رغم أنها أحاطتني بزهوٍ فارغٍ، وبمعنى جديد للحياة، لكنه دون مضمونٍ أو معنى.

*****

تهاويم الأرق

إهـداء

إلى فاضل الربيعي، راسم المدهون، خليل عادي، علي الكردي، ماهر رجا، بسام عمر، صبحي حليمة...

وكل أولئك الأصدقاء الذين إنطوت عليهم الذاكرة.

في المدينة الغريبة

حين خطى خطوته الأولى، سمع وشوشات خافتة، تنسل إلى داخله، فتثير في نفسه شيئا من الإضطراب والقلق، أسرع خطاه كأنه يهرب منها، إلا أن إرتخاء حلكة الظلام في المحيط الذي حوله، زاد من وقعها المثير في نفسه.

الصمت والسكون والهدوء القاتل الذي يملأ المكان ألقى في نفسه شيئا من الريبة، فصار شيئا فشيئا، ودونما وعي منه، يتدثّر في ثيابه، وينقبض على نفسه، حتى تخيّل أنه ليس سوى ساقين تحثّان خطاهما إلى المجهول.

همهمة الوشوشات علت، حتى صار عصيا عليه تجاهلها، أو إعتبارها شيئاً من بنات أفكاره، أو خروجاً مسموعاً لهواجسه ومخاوفه، المتأتية من مشاعر الوحدة في مدينة غريبة يلفها الظلام والموت.

... فجأةً توقف، بعد أن إصطدم بنتوء، خاله شاهداً لقبر، إرتجف حين سمع الصوت، يجيئه من تحت التراب، أنيناً صارخاً.. آخ..

أطلق ساقيه للريح، وركض بأقصى سرعته، حتى إذا وصل حافة المدينة، إصطدم في البعيد بكلبة تتلوى، لها أربعة أرجل، ودونما رأس، تربض على بوابة المخرج الذي لاح له كآخر مطاف لركضه الهروبي..

تلفت وراءه، فظهرت له الخيالات أناساً أو كائناتٍ تتشح بالسواد، تتصايح بلغة غير مفهومة، وكانت إندفاعات الهواء الناجمة عن تصايحها، تحدث حركة هوائية إندفعت حتى وصلت كأنها ريح لاهثة.

لم تعد فيه أعصاب تحتمل حالة الرعب الشديد، الذي نجم عن الصداع الذي ألمّ برأسه، وهرب منه إلى الفراش، فصحا من نومه، مفضلا آلام الرأس على كوابيس المنام..

*****

العمق الدفين

هبَّ المعلم يونس من قيلولته التي يرتاح فيها قليلا قبل أن يواصل عمله اليومي ملبياً إستغاثة جاره أبى الفوز، وفي لحظات كان يدّق باب بيته الخارجي، حيث فتحت له الصبية صابرين الباب، ثم أشارت إلى حيث أبيها يقف كمن لدغته أفعى، لا يعرف ماذا يفعل، فتوجه الرجل إلى حيث جاره وبادره بالسؤال:

. ماذا بك يا أبا الفوز ؟

لم يجبه الجار، لكنه أشار إلى الحفرة، التي كانت كأخدود سحيق شقتّه عوامل الطبيعة القاسية، بين سوافي الرمل، تحت شجرة التين المنتصبة في باحة الدار منذ زمن طويل، إمتدّ عبر شجرة العائلة، حتى غدت التينة لأبي الفوز شجرة العائلة ذاتها، التي توارثها عن أبيه، عن جده، إلى بداية الجذر السحيق من الأصل.

تطلع المعلم إلى الحفرة فبانت له التشققات والانهيارات والنتوءات على جوانبها، وفي العمق بدت كتل الظلام مخيفة ومرعبة، فردّته الذاكرة إلى اليوم الذي مد يديه فيه فتناول الجسد المتصلب الملفوف بالقماش الأبيض، ثم طرحه على طولها قبل أن يهيلوا عليه التراب فتتوارى إلى الأبد ضحكاته الحانية ومخاوفه الرطبة كلما ألمّ به كدر أو سوء، ثم دقق النظر في القاع، فتراءت له أجزاء غير محددة الملامح، تسوخ في الرمل الذي بدا كمستنقع من السبخ أو كدوامة في بحر من اللزوجة العكرة، ما أن يستقر بجوفها جسم صلب حتى تبدأ بامتصاصه وشدّه إلى أسفل

حتى يستقر في قاعها.

. ما هذا ؟

سأل يونس

. إنه الولد.

أجاب الوالد وهو يفرك يديه ويحترق كالعاجز أمام الكارثة التي تقصف عمره، ويبقى حتى اللحظة الأخيرة ينتظر رحمة الله، وحين لا تأتي، لا يقوى على فعل شيء إلا الصراخ والاستغاثة، فكان أن فعل، وكان أن لبّى نداء استغاثته جاره المعلم يونس.

إنبطح الفتى على حافة الحفرة ومدّ ذراعيه على إمتدادهما ولكنه بالكاد لمست أصابعه أطراف الطفل، حاول وحاول، وحين لم يقو على سحبه، طلب من جاره أن ينبطح وراءه وأن يمسك بكل قوته بقدميه حتى يستطيع أن يتدلى، ففعل، قبض المعلم على طرف الولد وشد، فخرجت بيده ساق كانت كجذر حبة البطاطا المتصلبة، وضعها جانبا وشد طرفا آخر، فخرجت معه ساق أخرى، وهكذا إلى أن احتضن بكلتا يديه حافتي الجسم الصغير وأخرجه من الحفرة، ثم نهض ووضع الأطراف في مكانها. كان الجسم محمرا كدجاجة مشوية في فرن، ويميل لونه إلى البني كلون الشوكولا، وكان الجو حارا، وتفتّت الأعضاء يؤدي إلى تعفنها، لذا طلب المعلم من جاره أن يحضر غطاء لفّ به الطفل وأعطاه لأبيه، ثم طلب منه أن يحضنه بشكل جيد، حتى لا يصاب بالبرد. ثم أسرع كلاهما باتجاه المستشفى عسى أن يصلا في الوقت المناسب، فيجمعا الأعضاء التي تفسخت بفعل الرطوبة والعفن وحرارة الباطن الملتهب.

صحا من غفوته فتوجه إلى الحمام ولطم وجهه بالماء البارد، فشعر بالنشوة ثم فتح باب الثلاجة وشرب ماء باردا رطّب به حلقه الذي جف مع المنام.

تذكر جاره ابا الفوز وبناته الأربع، ثم تذكر بطن زوجته المنتفخة، فتمنى من أعماقه أن يحقق الله رغبة جاره فيرزقه الولد الذكر.

*****

الدمية

إنه الليل يقترب وأكاد أن أرى خيوط الشمس تنسل من نسيج الكون خيطا خيطا، وكل لحظة، تمر تشتدُّ في الخارج حلكة الظلام، فيطبق السكون على ما يحيط بي، فتتحرك الكائنات بداخلي، ضوء الشمعة التي إقتربت من نهايتها تنتهي أطرافه في جوف العتمة السحيق، يلح عليَّ قضاءُ الحاجة، أتهيب، لكن الخوف يمنعني، أتشجع فأذهب إلى المرحاض، فتمتد أذرع الليل من كل إتجاه كأذرعة الأخطبوط تود أن تطبق على خناقي، يتملكني الرعب، فأهرب عائدا وأندس في الفراش، تتقطع أنفاسي، بينما جبيني يتصبب عرقا.

قضاء الحاجة يضغط مثانتي، والعرق يواصل سريانه من على جبيني، أخرج رأسي من تحت الغطاء لألتقط كمية من الهواء، فأراني غريقا يصارع تلاطم أمواج الموت، أتذكر أنني لا أتقن السباحة، فيملأني الرعب، إنها اللحظات الأخيرة التي أتوقعها كل لحظة، ولا من قشة تنقذني.

تبدأ جدران الغرفة بالإقتراب من بعضها، فتنحصر المساحة الصغيرة التي هي لي من هذا العالم، تقترب وتقترب، حتى كادت أن تتلامس، ربما هي الشهوة التي دفعتها للتوحد بعد طول إنتظارها، لكنها تسحقني ! يتضاعف الرعب في داخلي، ما عدت أحتمل، لحظة واحدة وكنت أقفز من فراشي، وأصير خارج البيت.

أجساد الناس تتزاحم من حولي ولا أرى سوى الوجوه، وجوه عديدة

إختفت ملامحها تكشر لي فتنفرج عن أنياب حادة، أتحسس لحمي، فأحثّ الخطى هربا منها، أحرص أن أسير ملاصقا للجدران، أتلفت ورائي، أمامي، شمالي، أهرب من تلك السيارة اللعينة التي أتوقعها كل لحظة تهرس عظامي، يحييني أحدهم، أتطلع إليه، أرفع يدي وأواصل السير.

أدخل في حارة مظلمة، فأرى عيونه الكثيرة تبرق لي من كل الزوايا وأكاد أن أرى لسانه يشمت بي، أركض لكنه يلاحقني، يعاود العرق تصببه من على جبيني. أصل إلى الجسر، أنظر تحتي فأرى المياه الراكدة والسبخ في أحشائها، يبدأ الجسر يطقطق تحت قدمي، فيملأني الرعب من جديد، أنني لا أتقن السباحة فماذا لو إنهار الجسر الآن ؟ أركض وأركض لأهرب من عيونه التي كانت تحملق بي من بين المياه الراكدة.

أجدني على باب حانة، فأندفع بكل قواي، أدلق كؤوس العرق في جوفي الملتهب. شيئا فشيئا يتوزع الخدر في أعضائي، ولأنني كنت جائعا، فإنني ما ألبث أن أغفو، بعد أن ينتصف الليل يلقي بي صاحب الحانة خارجا، فألملم أعضائي إلى غرفتي كفأر وجد نفسه فجأة في ساحة مليئة بالقطط، إنسل إلى الداخل كلص، أسير على رؤوس أصابع قدمي، أندس فيما تركت لي كتلة الشحم من مساحة بالفراش، أتمدد على جنبي وأتأملها..

إنها امرأة من ذهب، تجيئني في الليل وتسبح في أعماق قلبي، ثم تطوف برأسي فتحيلني حلما، يلملم النجوم ثم يصنع منها عقدا أطوق به جيدها، فتكافئني بقبلة، أنتشي وأصير طيفا يجوب الدنيا التي صارت سهولا من الثلج لا يسكنها سوى الفراش الملون وأنا.. تتململ في نومها، أفتح عيني، ما أشهى النساء، ليس كل النساء، بلى كل النساء إلا واحدة.

أتذكر تعليقا كتب تحت لوحة جميلة:

المرأة أشهى من في الوجود شريطة أن لا تكون زوجتك.

يعلو في رأسي الصراخ، صراخ.. صراخ، إنه صراخها الذي جاء بالمخاض، بعد أيام من طول الإنتظار، أخيرا.. ينتابني شعور غريب، إنه مزيج من القلق والرهبة والفرح، قليل من الفرح، أتساءل: هل سأتمكن منه ؟ وأطفيء عينيه المتلصصتين بي دائما واللتين تلاحقاني منذ وعيت الدنيا ؟

أخيرا.. جاءت الطفلة إلى الدنيا، قطعة صغيرة من اللحم، من لحمي ودمي، عينان صغيرتان تتطلعان في الأفق. من يومها لم يغمض لي جفن، إنها كل عالمي أراقبها طوال الليل والنهار، ها هي تكبر ولكن ببطء شديد، أداعبها حين تصحو، أتوحد معها، إنها تتحرك، ها هي تمد يدها لي، تعانقني، أضمها إلى صدري، أقبلها، أكاد أطبق عليها جوانحي، أتلمس شعرها، فأشعر أنني قد إمتلكت الدنيا، أنها تخطو فيصير للأرض مكان مقدس عندي، أشمها فتملأني الطمأنينة، أتلمسها فينتشر الحنان في كل خلايا جسدي، يا للروعة هكذا سيتضاعف عمري وسأعيش مرتين، سأمتد عبر الزمن بخط أكيد لن ينتهي..

يرقص ما بداخلي، أتحرر من جاذبية الأرض، وأحلق كطائر جميل في السماء، أتوحد بالغيوم، وأخالني قطرة ماء تنزل مع خيط المطر لتعانق نبتة ورد، أذوب في أريجها فأنتشي برائحة العطر، تهتز أوصالي، فأرقص إلى أن يلقي بي التعب، فأضحك وأضحك إلى أن أبكي من الضحك.

ما كانت الدنيا على رحابتها تتسع لي، فقد تمددت خلاياي واسترخت

حتى شملت الكون بأسره، تمددت بقربها، ضممتها كالعادة وغفوت مرتاح البال.

لحظات قليلة تلك التي غفوت فيها، وحين صحوت، حملتها، لكنها كانت هامدة لا تتحرك، وضعت يدي على المفتاح وأدرته، لكنها بقيت على حالها، فقد فرغت الشحنة من البطارية !

*****

وحدة

ما إن عدت إلى البيت مهدودا من التعب، حتى استلقيت على السرير، ثم غفوت ساعة أو ساعتين وكنت أصحو ببطء، ثم وجدتني أنهض فأصنع فنجان قهوة أرتشفته مع لفافة تبغ دون أن أشعر بمتعة تذكر، شعرت بالملل فقررت أن أزور أحدهم، وقفت لأغير ثيابي، إنتظرت قليلاً فأثار إنتباهي شعاع من ضوء يتسرب عبر باب الحجرة الأخرى، خطوت عدة خطوات ودخلتها ثم تأملتها، كان سريرها مرتبا وكانت خالية، رغبت بشيء من الطعام فنهضت توا إلى المطبخ ووضعت إبريق الشاي على فتحة الغاز وعلى الأخرى وضعت المقلى وكسرت بيضتين ثم جلست إلى المائدة، لقمة.. اثنتان وما عدت أرغب بعدها بتناول لقمة أخرى.

جلست على الأريكة أمام التلفاز، صور متحركة وبرامج أطفال،

إنتظرت قليلا عسى أن يحضر عندي أحدهم، لكن عبثا، لحظات وكنت خارجا في الشارع، تمشيت قليلا وأنا أراقب الناس يروحون ويجيئون برتابة معهودة لدي، وقد بدأت إضاءات المحال الملونة تضيء وتنطفيء في محاولة لتبديد حلكة الظلام الذي بدأ يرتخي بأطرافه على المدينة التي تغص في جوفها بكل أنواع الناس. وجدتني قريبا من بيت مجموعة من الأصدقاء، فقرعت الباب.

ألقيت التحية على الحاضرين، ثم أخذت مكانا لي، كانوا يلعبون الورق بانسجام، راقبت حماسهم وانتظرت، وقد خطر ببالي بأن زميلي قد يكون عندهم، لكنني لم أسألهم عنه.

بعد فترة استأذنت وتوجهت إلى بيت آخر ومجموعة أخرى من الزملاء وتكرر المشهد ولم أجده عندهم أيضا.

عدت إلى نفس الشارع وسرت متراخي الأعضاء، أراقب حركة الناس، ولا يعلق شيء منها بالذاكرة، حتى وصلت البيت وألقيت بجسدي على ذات الأريكة، أراقب التلفاز الذي لم يشدني كثيرا، حاولت أن أقرأ شيئا، حاولت أن أنام، وكان الوقت مبكرا، ذهبت للغرفة الثانية وكان السرير ما زال مرتبا على حاله، خاليا من ساكنه، شعرت بالوحشة وبدأت أتساءل عن سر تأخره، ربما يكون قد وجد صحبة مسلية، فضّلها على قضاء الوقت معي بالحديث الفارغ. ذهبت إلى الشرفة، كانت البيوت المجاورة تسهر أمام شاشات التلفاز، وصوت هنا وضحكات هناك، وحوارات متناثرة لا تلتقط الأذن شيئا مفهوما منها، بقيت بعض الوقت إلى أن بدأ بعضها يطفيء أنواره وينام.

في اليوم التالي ذهبت إلى الجامعة، بحثت في الكافتيريا دون أن أسأل أحدا، ثم بين الحاضرين في المحاضرة الأولى فالثانية، ثم عدت للبيت، جلست إلى المائدة أتناول طعام الغداء، وحدي، أدرت جهاز التسجيل، ثم ألقيت بجسدي على الفراش، ثم نهضت، وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة، ماذا أفعل بالوقت ؟ نزلت إلى الشارع أتنقل من واجهة إلى أخرى، ثم من بيت لمجموعة من الزملاء إلى آخر، وكنت أتلصص بنظراتي بحثا عنه دون جدوى.

عدت إلى البيت وكان الليل قد إقترب ولم يزرني أحد، رفعت سماعة الهاتف، إتصلت بهم واحدا تلو الآخر، هل رأيتم عصاما ؟ ولم أعثر له على أثر.

قضيت ليلتي وقد أخذ القلق يجتاحني بقوة حتى أنني فكرت في إبلاغ قسم الشرطة عن غيابه لكنني إنتظرت حتى الصباح، فنهضت باكرا وذهبت إلى الجامعة وبدأت بالسؤال عنه كل صديق، رأيت سلوى في الكافتيريا فتوجهت إليها، ألقيت التحية وجلست إلى طاولتها هل رأيت عصاما ؟ لا منذ يومين لم أره، أجابت، لعله مريض ؟ قلت، إذا علينا أن نسأل عنه ! قالت، وهكذا إتفقنا كلانا أن نذهب للسؤال عنه بعد أن ننهي محاضراتنا.

عند العصر كنت أرافقها، حتى صعدنا الدرج، طرقت الباب، إستقبلنا بوجه بشوش وكانت لديه مجموعة من الأصدقاء والزملاء، قاموا بضيافتنا وقضينا ساعات لديهم دون أن نشعر بالملل، وحين غادرنا شعرت براحة لم تدم طويلا، لأنني اكتشفت أنني أسكن وحدي.

*****

القلق الحار

حين خرج من البيت، لفحت وجهه موجة هواء حارة، تسربت إلى داخله بشيء من الضيق لكنه تحامل على نفسه وتابع سيره حتى صار يجد صعوبة في التقدم بين الأجساد الذاهبة والآيبة على رصيف الشارع التجاري، الأمر الذي أخذ يلقي في نفسه ضيقا وراء ضيق، لكنه كان يقنع نفسه بأنه ليس على عجلة من أمره، فما خرج سوى ليتجول وليبعد السأم عن روحه.

كان كلما تقدم في سيره، توزعت نظراته يمينا وشمالا، لإلتقاط المتعة المجانية الموزعة على المكان الذي ترطّبت أجواؤه رغم كل شيء بفعل الأجساد الطازجة، التي نزعت عنها صاحباتها الأردية الثقيلة في محاولة للتخلص من حرارة الطقس، التي تبث في النفوس الملل والقرف، فكان الأمر لا يخلو من رؤية سيقان تفسرت إستداراتها تحت السراويل الضيقة أو جزء من أفخاذ لامعة تحت تنورات قصيرة، أو حتى أثداء تكورت ولاحت ظلال حلماتها تحت القمصان الشفافة.

كان معظم الناس يسيرون مجموعات تأنس بالصحبة، إلا هو، فشعر برغبة في أن يصادف أحد أصحابه ليتمشى وإياه، عسى أن يتمتعا معا برؤية الناس عند ساعات الليل الأولى في مثل هذا اليوم، الذي يبدأون فيه خروجهم من بياتهم الشتوي الذي إمتد طوال فصل المطر.

ما كان ينوي شراء شيء ما ولكنه ككل الآخرين كان يتوقف قليلا

أمام المحلات التجارية، يتأمل الأحذية والملابس الجديدة، فيرى أشياء كثيرة تعجبه، لكنه لا يلبث أن يتذكر النقود التي لديه، ثم يحسب ما تبقى من أيام في الشهر، فيكتم رغبته ويواصل نقل قدميه مع إتجاه الشارع.

على الرصيف المقابل ومن بين الأجساد المتزاحمة التي تفصله عنه، رأى صديقه مؤنس، فأشار له بيده، لكنه فوجيء به يواصل سيره ولا يهتم به، وقف مكانه وواصل التلويح بيده، حتى إنتبه له بعض الناس القريبين منه، إحتار بأمر صديقه، وبقي لحظات واقفا في مكانه يفكر في السبب الذي دعا صديقه إلى أن يتجاهله، وتساءل عما فعل له، ليشيح عنه بوجهه، وبقي هكذا إلى أن غاب عنه طيف صاحبه.

واصل سيره وحاول أن ينسى الأمر، وأخذ يتوقف دونما هدف أمام المحلات والدكاكين، يقوم بتوزيع نظراته على العابرين من حوله، لكنه بين لحظة وأخرى كان أمر مؤنس يعود إلى ذهنه فيشغله، ويستعرض في ذاكرته آخر لقاء بينهما.

لقد شربا القهوة معا تلك الليلة ودخنّا السجائر وكانت ملاحظاته على النص الشعري لصديقه إيجابية، وبقيا يتحدثان بود إلى أن إنصرف، ولم يبد عليه حينها أي إنزعاج تجاهه أبدا، فماذا حدث ؟

ما إن صار في نهاية الشارع حتى عاد أدراجه، وفكر في أن يحث الخطى عسى أن يلحق صديقه فيستطلعه الأمر، ولكن ماذا سأقول له، إن كان قد قرر أن يقطع علاقته بي ؟

تذّكر لقاءه عصر هذا اليوم مع أصدقائه وما دار خلاله من حديث،

واستعرضه كلمة.. كلمة لربما كان قد تفوّه بكلمة بحق مؤنس، وتذكر أنه لم يقل بحقه ما يسيء فهو كان للحظة أعز صديق لديه.

ما أن وصل البيت حتى توجّه من فوره إلى الثلاجة وصب لنفسه كأسا من العرق واستمر في تقليب الأمر. فإنتبه إلى أنه قد مرت ثلاثة أيام لم يزره فيها مؤنس على غير عادته حتى أنه لم يسهر عنده كعادتهما هذه الليلة، وكانت ليلة الخميس، إذا لا بد أن يكون في الأمر شيء ما، لكن ماذا عساه أن يكون هذا الشيء؟

دخّن بشراهة وقضى أكثر من ساعتين يفكر في الأمر، ولم يصل إلى السبب الحقيقي وراء تجاهل مؤنس له، حتى انتابه قلق عميق، حاول أن ينسى الأمر فذهب إلى مكتبه وحاول أن يقرأ شيئا ما، لكنه لم يستطع أن يركز. طوى الكتاب وحاول أن ينام، لكن عبثا.

بعد أن إنتصف الليل، قفز من فراشه وغير ثيابه على عجل، واتجه إلى بيت صديقه، دقّ الباب بقلق، حتى إذا فتح له، بادره بالسؤال.

. لماذا تجاهلتني هذا المساء ؟

. أنا ؟

. نعم أنت

أكد له مؤنس أنه مر هذا المساء بذلك الشارع المؤدي إلى بيته، لأنه كان في طريقه إليه، ليسهر عنده كعادته، ولكنه لم يجده، ولو كان لمحه في الشارع، لوفر عليه عناء البحث عنه.

*****

إعلان تعارف

دون أن ينظر إلى جهة اليمين، لملم الفتى أطرافه وجلس إلى حافة المقعد الخشبي زامّا عينيه إلى الأسفل ومغمغما بكلمات كانت ترتد إلى داخله دون أن ينفتح عنها فمه الذي بدا كسجن يحبس الرغبة، فيقتلها قبل أن تنطلق كعصافير ترف بأجنحتها، فتوزع الفرح، ليس له فقط، بل وربما إلى تلك الجالسة على الحافة الأخرى للمقعد، والتي كانت بدورها تبدو كتمثال من الشمع، ألقته يد مبدعة في ذلك الركن النائي بعيدا عن الصخب.

بعد لحظة همّ الفتى بفتح فمه، فتطلع إلى الأفق، حيث ظهرت له زرقة السماء بصفائها الآسر، صفحة متسعة لإطلاق أحلامه كحزم من النور الملون، خفض عينيه بعد ذلك، فتراءت له شجيرات خضراء مزينة بعناقيد الفل التي لفحت منخريه برائحة منعشة، ثم تأمل مطولا جهة اليسار، حيث رأى على البعد مجموعة من الصبية يتراكضون وراء كرة بدت له بانتفاخها، مملوءة بهواء مضغوط كالذي في صدره. بعد ذلك تشجع الفتى وألقى نظرة خاطفة سريعة، طارت فيها خيالاته مع خصلات الشعر الكستنائي، التي تموجت بدلع أنثوي مع نسائم الربيع، لكنه سرعان ما شعر بشيء من الخجل مع ارتفاع حرارة الدم في عروقه، وسهم برهة. ثم نظر إلى ساعته.. إنها الرابعة إلا ثلثا، فقد تكون ساعتي غير مضبوطة، إذا أسألها: كم الساعة لأتأكد من ساعتي ولأفتح معها الحديث، فكرة جيدة، لكنها سرعان ما تكتشف أنني أتمحك بها، ثم لا بد

وان تجيب باقتضاب، فبماذا أواصل الحديث بعد ذلك ؟ وربما أحرجتني أكثر من ذلك، فنظرت إلي باشمئزاز ولم تجب، حينها ماذا سيكون موقفي، إذا لماذا لا أسألها عن إسم الحديقة وادّعي أنني غريب عن هذه المدينة ؟.. لا.. لا، إن هيأتي لا تدل على ذلك، فستكتشف أنني عابث كاذب، فتشيح عني وجهها، وربما أيضا تكون قد رأتني قبل ذلك، فيتأكد لديها الأمر بأنني رجل مراوغ يعابث الفتيات، لماذا إذن لا أسألها أن تعيرني تلك المجلة التي تقرأ فيها، فتعرف أنني أهتم مثلها بأخبار الفن، فترتاح لي وتكون مناسبة للحديث عن النجوم، ولكنني لا أعرف شيئا عنهم، فماذا لو سألتني سؤالا فنيا فأحرجتني واكتشفت جهالتي، فصغرت في نظرها وبتّ غير مؤهل لمصادقتها.. عطست فجأة، فانتبه إليها، داهمته عينان سوداوان برموش طويلة معقوفة، وخال على الوجنة اليمنى، تمنى حينها لو كان شاعرا، فصب الغزل العذب لهما، هزّه الإعجاب بجمالها، فنكس ناظريه وعاد يفكر في الطريقة الأمثل للتعرف إليها.

أما هي فكانت تضع على ركبتيها مجلة فنية تقرأ ما فيها من أخبار النجوم، إلى أن جاء هذا الفتى وجلس إلى جوارها، فأثار إنتباهها منذ اللحظة الأولى لمجيئه، إستمرت في تقليب صفحات المجلة، وبين الفينة والأخرى ترفع عن وجهها خصلة إرتخت أمام عينيها فتبعدها إلى مكانها، وكلها إنتباه وإنتظار لأية حركة أو كلمة قد يبادرها بها هذا الشاب المهذب الذي جلس إلى جوارها، وبدا كأنه جاء لينتشلها من وحدتها، تركّز تفكيرها.. وتنتظر.. لابد انه يهيىء نفسه الآن للمبادرة، لاشك أنه بعد قليل سيقترب مني، فيصير بجواري تماما، ثم يبادرني بالتحية: مساء الخير.

سأرد عليه بما يشبه الهمس: مساء النور، ثم قد يتابع بأنه قد رآني قبل الآن، وأن وجهي ليس غريبا عنه، لن أقهقه على تصنعه البراءة، بل سأشجعه قائلة: وأنت ليس وجهك بغريب عني، ثم بعد ذلك مؤكد أن يسألني عن إسمي وعملي، فأجيبه، ثم أسأله بدوري وهكذا يتم التعارف بيننا، بعد ذلك أنظر إلى ساعتي.. ياه لقد تأخرت، لابد أن يكونوا في البيت الآن قد قلقوا علي ! ثم أنهض مستأذنة منه، وبدون شك لا بد أن يسألني موعدا، أثقل عليه قليلا، ثم نتفق على موعد، وقد أعطيه رقم الهاتف.

تنحنح، فظننت أنه قد همّ بالكلام، تطلعت إليه. أثارت انتباهها مجموعة الكتب التي بين يديه، لكنه ما إن التقت نظراتهما، حتى خفض عينيه وانكمش على ذاته خجلا كما كان منذ لحظة جاء، هل أبادره بالسؤال أن يعيرني هذه الكتب، وأسأله من أين اشتراها متصنعة الإهتمام بعناوينها ؟ ولكن ماذا سيقول عني، لابد أن يظن بأنني فتاة رخيصة.. لكن ما باله صامت هكذا وكأن شيئا قد ربط لسانه، ألم يتابعني منذ نزلت من الحافلة، وسار على بعد خطوات مني، وكنت أنتبه إليه، فلا أحرجه وأشعره بأنني غير منتبهة إليه، كلما دخلت إلى محل تجاري وقف بالجوار يتأمل الواجهة، حتى إذا ما خرجت تابعني محافظا على المسافة إياها بيني وبينه فسار ورائي كل ذلك الوقت، ثم جاء إلى هنا وجلس بجواري.. فلماذا فعل كل ذلك إذا ؟ أليتأمل السماء بقربي أم ليشم رائحة عطري أم.. ؟ !

لعله يخشى أن يرانا أحد، وربما يكون معروفا في هذه المنطقة،

فيتجنب أن يحرجه أحد الأصدقاء لو رآنا نتجاذب أطراف الحديث ؟

ربما.. ؟

بعد أن طال الوقت بهما على هذه الحال وبعد أن وصلت إلى هذا الإستنتاج، نظرت في ساعتها كانت تقترب ببطء من السادسة مساء، نهضت، ولملمت خصلات شعرها المتناثرة على زوايا وجهها، وحملت حقيبة يدها بعد أن وضعتها على كتفها، ثم لفّت مجلتها، وسارت ببطء من أمامه، ثم نظرت إليه نظرة عميقة، فارتبك.. ثم قام بدوره فلملم ما تناثر من أجزائه في أرجاء المكان، وسار بصمت وراءها..

بعد أيام، خرج مبكرا وتناول على عجل الصحيفة اليومية من البائع، وفتح صفحة الإعلانات، حيث قرأ بارتياح: شاب في الخامسة والعشرين، جامعي، يهوى المطالعة والمراسلات، خصوصا مع الجنس الآخر، يرغب بالتعارف إلى فتاة جامعية أو موظفة، ذات شعر كستنائي وعينين سوداوين وقوام رشيق !!

*****

حلم مراهق

كان قد إعتاد رؤيتها، شأنها شأن سكان الحي الآخرين، كلما سار في طريقه إلى المدرسة، أو عاد إلى البيت منها. يراها أغلب الأيام، أو كلما أرسله أحد أفراد أسرته لقضاء حاجة من دكان البقالة، التي تجلس فيها بعد إنتهاء دوامها المدرسي، منذ أن مات أبوها.

ولم يكن الولد الحالم يعلم قبل أن تدهمه حالة المراهقة، على حين غرّة، سر تعلقه بها، سوى أنها جارة مهذبة ومكافحة، تبيعه ما يطلب من احتياجات البيت التي تتوفر لديها، بدقة وتهذيب، وفوقهما ابتسامة بريئة، وما إن تنتهي، حتى تجلس على الكرسي البائس، وتفتح كتابها المدرسي، تراجع دروسها.

تعود رؤيتها، كما تعود رتابة أيامه، وكان يراها في أحلامه الطفولية شيئا خاصا، حتى إذا ما بدأ يدرك معنى الرجولة والأنوثة، صار ينتبه إلى رغبته في أن يجالسها ويحادثها، وينتبه إلى إحتدام فورة دمائه، إذا ما جاءها للشراء.

ثم صار للأمر معنى آخر، منذ أن إشترى يوما حاجياته المعتادة، ونقدها الثمن فلمست أطراف أصابعه يدها الدقيقة، فشعر بكهرباء تلسعه في أعصابه، في اللحظة التي احمرت فيها وجنتاها. ومن يومها بدأ يدرك أنه ما عاد ولدا، وما عادت روعة بنتا بريئة.

ورغم تأجج رغبته في رؤيتها، صار يرفض من يومها، وقد صار شابا أن يذهب مراسلاً للأسرة في شراء احتياجاتها من بقالة «أم مريم» القابعة

في منحنى الحارة التي تبدأ بالمدينة الرياضية، وتنتهي بمقبرة الشهداء في طرف المخيم. لكنه ظل يحرص على السير في طريقه إياها الموصلة إلى المدرسة الثانوية، يسير ببطء ويتطلع بعينيه مراقبا الأجساد الغضة، التي بدأت تفور منها الصدور، وتهتز منها الأرداف، مثيرة مراهقة الفتية. يلمحها من بعيد، فلا يقترب منها، بل يراقبها عن بعد، ويحلم بخصلات شعرها الكستنائية، ولا يسمح لعينيه أبدا أن تتفرسا في صدرها أو في أردافها، كما أنه لا يذكر أبدا أنه قد رآها في أحلام يقظته أو نومه، عارية أو مضطجعة أو معانقة.

كل ما كان يخطر بباله أن تهفّ على وجهه بخصلة شعرها الناعمة، فيغفو، ثم حين يفتح عينيه، يهتز كيانه للحظ الجارح وللفم الذي يفترّ عن ابتسامة ساحرة، كانت كافية لديه لأن يجمع يوما كل شجاعته ويتقدم منها بلطف. بعد أن خلا الشارع إلا منهما ثم يهمس برقة وعذوبة خاصة، وكأنما يكلم نفسه: أحبك.

لم تكن الكلمة توترا لحظيا أحدثته شفتاه في الهواء، بل كانت فاتحة اللقاءات والمشاريع الخاصة، التي بدأت بالخطبة والزواج وإنجاب الأولاد، ثم تعليمهم وتزويجهم وانفتاح الحياة على امتداد اتساعها الممكن، حتى أقفلت دورتها، بعد أن أعطته كل ما اشتهاه.

في ذلك الصباح تراءت له كالإلهة، حين إنفرجت شفتاها عن ابتسامة خضراء، ثم سارت ضاجّة بالمرح والحياة، فسار بقربها، يود لو يصرح لها بكل ما يعتريه من مشاعر، وما يؤرق لياليه، ويقض مضاجعه.. لكنه لو يفهم حقيقة شعورها نحوه ؟

أيطلب موعدا في مكان هاديء ؟ أم يكتب لها ؟ أم يلقي برأسه كمجنون على الأفق الذي يلامس وجنتيها ؟

إنسلت من دائرة الهواء الرطب الذي يحيط بمخيلته، وغابت بين البنات داخل المدرسة، قبل أن يتفوّه بأمر تردد في تحديد ماهيته.

في مساء ذاك اليوم الربيعي، إكتظت الشوارع بالمارة، لكن حدسه الداخلي دفعه للبحث عنها، وبعد برهة، لمحها من بعيد برفقة صديقة لها، تضج شبابا وحيوية، وترتدي تنورة توحي بمفاتن عذراء، مثيرة، وقميصا اشرأبت النهود من تحته، فائرة ومتحفزة للإنطلاق، كاد أن يحسد ذاته على نصيبه من الدنيا، فهذه الحسناء ستغدو زوجته، حين أبطأت المركبة الفاخرة، وسارت بهدوء شديد بمحاذاتها حين همس رفيق السائق لهما كلاما لم يسمعه بالطبع، لكنه خمّن كنهه، ثم توقفت السيارة، وركبت الفتاتان بهدوء.

وفي لحظة كانت تنطلق المركبة مع آهة حرّى، حرقت كل ما في صدره من مشاعر الطفولة البريئة.

*****

قراءة ليلية

أغادر البيت في الصباح، سائرا على قدمي بين الأزقة، متجها إلى عملي، حيث أبقى حتى الثانية بعد الظهر، ثم أعود إلى بيتي، أتناول طعام الغداء وأنام وقت القيلولة ثم أعود للعمل إلى أن تغيب الشمس وتبدأ السهرة.

هكذا تمر الأيام برتابة مقيتة، وتموت معها الساعات الفارغة، إلى أن ينام الناس، ويمتد السكون في أرجاء المحيط، فأتناول كتابا أو رواية، أقرأ، فتسكن الطمأنينة روحي، ولا تضيع الساعات سدى.

كالعادة أسير في الشارع، تدهشني رائحة الهدوء وتفاجئني عجلة السائرين على قلتهم ومن زقاق لآخر يتكرر مشهد الرجلين الواقفين دونما مبرر واضح، إلا انهما يقفان في المكان الذي يسمح لهما برؤية كل من يسير في الزقاق، لا أهتم كثيرا بالأمر، أسارع الخطو حتى أصل إلى البيت، أتناول العشاء، أسمع الأخبار، أشاهد المسلسل، ثم أبدأ سهرتي مع «زوربا».

تشدّني الرواية ولكنني بعد حين أشعر بالتعب أو بالنعاس، أنهض فأصنع فنجان قهوة، يهزني السكون، أتطلع من النافذة، أرى ضوء الجيران مشتعلا، أشعر بالرفقة فتأنس نفسي وأستمر بالقراءة، وبين حين وآخر، أتطلع فأرى أنها مازالت سهرانة تراجع كتبها، أتمنى لها النجاح وأرغب للحظة أن تستمر إلى الأبد في حالة إمتحان، لتؤنس سهرتي مع القراءة، أسخر من أنانيتي، وحين يقترب الفجر من المجيء، أندس في الفراش وآخذ قسطا من النوم.

هكذا إعتدت أن أقضي أيامي في الفترة الأخيرة، لكنني الليلة ما إن بدأت سهرتي حتى وجدت نفسي مقتنعا بضرورة عدم التوغل في السهر، فوضعت ساعتي أمامي على المكتب وأخذت أراقب عقاربها، إنها الواحدة، أما زال التلفاز يبث برامجه ؟

أعتقد ذلك، إذا لا بأس أن استمر. الواحدة والنصف، أتردد قليلا.. حتى انتهي من قراءة هذا الفصل، وبعد ذلك أهرب مع آخر كلمة إلى الفراش، ولكن الرواية تشدني وماذا لو علا الطرقُ على الباب الخارجي ؟ أو حتى على «الشبّاك» ؟

آه لو كان يمكنني أن أقرأ «على العتمة» ! أطل من النافذة، إنها لم تنم بعد فأستمر أنا بالقراءة. إنها الثانية بعد منتصف الليل، أشعر بالخوف، صوت ما بعيد، لكنه صوت، كأنه طرق خفيف على باب ما،ربما كان على باب الجيران أول الحارة، لكنه صوت، أقفز من على الكرسي، أطفيء النور، لم يحن موعد نومي، ومازال الفصل لم ينته بعد، والرواية حارة بين يدي مازالت!

خمس دقائق كاملة قضيتها وأنا أترقب شيئا ما، أتشجع بعدها وأشعل النور، ثم أعود لقراءة الرواية، تسحرني أحداثها، إنها الثانية والنصف. أنظر إلى الساعة فأقفز إلى النور، أضع يدي على المفتاح، أتردد.. أنصت السمع، لا أسمع شيئا، فأعود لأكمل الفصل الروائي. في الساعة الثالثة أنتهي منه، ثم أنظر من النافذة، أراها تنهض في اللحظة ذاتها وقد أغلقت كتابها وأطفأت النور، فأفعل مثلها وأندس في الفراش.

في اليوم التالي، أبدأ من حيث انتهيت بالأمس وقد قررت أن أنهي الرواية هذه الليلة، لكنني لا أتذكر تماما ما قرأت، أتغاضى عن هذا

الإكتشاف المحبط وأواصل القراءة. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، لا أحفل بالأمر، فالوقت مازال باكرا كما أن ضوءها مازال مشتعلا، في الواحدة والنصف لا أهتم للأمر أيضا، ولكن هل أنهى التلفاز برامجه ؟ أتساءل، ربما؟ أجيب.

أصنع فنجان قهوة، ثم أشربه مع سيجارة وأواصل القراءة، أفتح النافذة لأتنشق شيئا من الهواء، فأفاجأ بأن نورها قد انطفأ، أحاول أن أنسى الأمر، أعود للقراءة، يشرد ذهني قليلا، أتساءل لماذا نامت مبكرا ؟ لا بد أن الطرق قد اقترب من بابهم: لكنهم جيراننا تماما ! هذا يعني ؟ معقول؟ أقفز وأطفيء النور، لكن الوقت مازال مبكرا على موعد نومي ولكن ماذا لو.. يتملكني الخوف، فأذهب منكسر الخاطر إلى الفراش وأنام.

أصحو مبكرا، لا أراها على موقف الباص ذاهبة كعادتها إلى الجامعة، ربما كانت مريضة ؟ وربما كانت.. ؟ لابد أن أعرف حقيقة الأمر، أعود أدراجي، أظن أنني سأراقب بيتهم، وسأنصت طوال اليوم إلى حديث الجارات، وقد أعلم شيئا من أمي عن حقيقة ما حدث.

ألتقي صديقي حازم في الطريق، وجدتها ! من هي ؟ يسألني، أنت طالب بالجامعة، ما هو امتحانكم هذا اليوم ؟ يضحك ويسألني: لماذا ؟

.أخبرني أولا.

.ولكن امتحاناتنا انتهت منذ يوم أمس، لماذا تسأل ؟

.لا شيء.. لا شيء

أجبته، وواصلت طريقي إلى العمل.

*****

أحلام !!

في الشرفة الرحبة، تلقي الألوان ظلالها وتمتد لتتكسر في الظلام المحيط، والأفق يعلو ليرفع سقف السماء، ويفتح عمق المدى للذاكرة، تشفّ الرؤى وتنحسر الغلالة وينكفء الوجه الدفين، حين يهفّ النسيم برائحة الياسمين، ولا تسمع الأذن سوى هسيس العذارى وبوح العنادل والحساسين الطليقة تجوب المدى.

ارتخي فلا من عذاب ولا من لوعة ولا من ألم، يحوم الفراش، يحط أمامي، يحدثني عن فرحته العارمة، أبوح له برغبة دافئة، يفرد جناحا أمتطيه إلى حيث تجمّع حشد الورود في باحتنا الواسعة، أراقب حفل التلاقح بين الندى والمطر، تدبُّ الحياة في خلاياي، أودعهم وأرغب في احتضان المدينة.

أجول كطائر العندليب، أدندن شدو البلابل، أهفو كطائر تحمله أمواج النسيم العليل، فراش كل ما حولي، أناس ودعوا الطين، وصاروا خلائق من ضوء تعددت ألوانه الزاهية، أحيي، أقبل، أسلم، لا من حبيب فقيد.

صدفةً، أمرُّ أمام مبنى، أضطرب، أحاول أن أتذكر السر، لكنني لا أستطيع، زخارفه تناثرت بإبداع واضح، واحتضنت حجراته كل أنواع الورود، وكل أنواع التحف، وأقسامه احتضنت كل أنواع الفنون، يغص بالناس، فهذا يشاهد عرضا وذاك يسمع شعرا، وآخر يشم وردا، ورابع يغني ما يشاء !

شيء أكثر من المتعة وأعمق من الغبطة ما ينتابني، أجوب الشوارع فلا أرى سوى ثنائيات متحابة تتأبط أذرعة بعضها بعضا، ولا أسمع سوى الأنغام ولا أرى إلا ألوانا، وكأن الناس جميعا ليسوا سوى جمع من الفنانين والمبدعين، هذا ينشد الشعر، وذاك يغني، وآخر يرسم، هذه ترقص وتلك تشدو.. أواصل سيري لا أشعر بالوحدة أبدا فكأنني جميع الناس أو كأن الجميع هم أنا، لا غربة ولا قلق، ولا خوف، لا ألم. أمد يدي.. هنا كمثرى، هناك موز، فراولة.. الورود بكل أنواعها، النفس شبعى والقلب مفعم بالارتواء.

أسير وأسير ولا أشعر بالتعب ومجرد أن تخطر ببالي الرغبة في الفتاة التي طالما تمنيتها، أراها بجواري تقول:

شبيك.. لبيك

لا أرغب سوى بقبلة، فتنطبق الشفاه.

يلفت انتباهي حشد من الناس يشاهدون متحفا، يشيرون بأيديهم إلى مخلفات العهود البائدة ويضحكون، هذه هراوة، هذا سوط، تلك فلقة، ذاك دولار، هذه سكين، هذه بندقية، تلك قنبلة.. هذا صبي محنط مات من الجوع، وتلك فتاة صرعتها رصاصة، هذا خازوق ...

وكان الدليل يفتح كتاب التاريخ ويشرح الاستعمالات المنقرضة للأدوات، فتبدو الدهشة على الوجوه البيضاء الناعمة.

أدخل ورفيقتي إلى الحديقة، أقطف لها وردة، فتهديني ابتسامة، أحدثها عن كل ما يجول بخاطري دون تحفظ، نشرب عصيرا مسكرا،

ثم نرقص مع الجموع، على أنغام موسيقى صدحت في كل أرجاء المدينة.

بعد أن ينتصف الليل نعود معا، أتعودين معي إلى بيتي ؟ أسألها، لا فرق، بيتك أو بيتنا، تجيب، نكتشف أننا نسكن جوار بعضنا، نلج مدخل العمارة، نصعد الدرجات كفراشتين لفتهما السعادة.

فتحتُ الباب، دخلت، كانت الشقة تمتليء هواء راكدا، توجهت إلى النافذة، ما رأيك أن نجلس في الشرفة، حيث الهواء الطلق، أومأت بالموافقة، ذهبت ثم عدت بالشمبانيا وحبات الفستق، كان الطقس خرافيا، ستكون الليلة ليلة من الجنة.

أطرقَتْ، ناديتُها: أحلام، حبيبتي ما بك ؟ كان صوتي مسموعا هذه المرة، وما كدت انتهي من النداء، حتى سقط كيس على رأسي من شرفة الشقة الجاثمة فوق شقتي، صحوت من الشرود الذي إنتابني لحظة، تفحصتُ الكيس، كان مليئا بقشور حبات الفستق، نظرت إلى فوق، كانت جارتي، الفتاة المشتهاة أحلام، التي طالما حاولت التودد إليها، ترمقني من فوق، ثم ابتسمت وقالت: خرجك !

*****

القرط الذهبي

بعد أن دبت السمنة في أوصالها، وصارت تجلس على العتبة الأمامية لبيتها الذي إتسع وتميز في الحارة، وقت الضحى، بعد أن تعلو شمس الصباح، تفترش غطاء وتبدأ بحفر ثمار الكوسا، المتكومة في الوعاء أمامها، وقد شمرت يديها اللتين تضطّر إلى رفعهما بين اللحظة والأخرى. لتعيد تثبيت أساورها الذهبية إلى ما بعد المرفق، تحيط بها هالة من الزهو والارتخاء، تخترقها نظرة مجاورة متلصصة، تنظر إلى الذهب في يديها وحول جيدها، فترى جسدا متصلبا مازالت غلالات طيفه الميتة تتأرجح على سطح المعدن الوهاج.

ظلال الموت تفرض حالة من السكون، وجوّاً من الرتابة، التي تسمح للسيد أن ينسل بهدوءٍ، خالٍ من القلق، ويؤكده التكرار، فيدس يديه في جيوب الجسد الممدد بتصلب الموت ويتحسس صدرها، ليس بهدف المتعة الجنسية، وحين تفلت منه التفاتة إلى الوجه النضر، يبتسم بخبث، ثم يمد يده فيسبل الجفنين، وهكذا يقوم بتجريده مما لديه من ممتلكات.

الذهب لا معنى له دون يدين أو عنق، والحي أبقى من الميت، وأن يرافق الحلي جسدا بضّا زاهيا وضاجّا بالحياة، أمتع من أن يدفن مع جسد ميت، لكنه على كل حال يرى نفسه مغتصبا على مرفقي وعنق السيدة خديجة.. آه منك يا خديجة، لم تعد كنوز سليمان قادرة على إشباع نهمها للذهب، كانت البداية على شكل لقية، قلنا جاءتنا من عند الله، أفرجت حاجتنا إلى شراء الغاز، ثم الثلاجة، ثم التلفزيون.

وحين صارت أمورنا كمثل حال الناس من حولنا، صار بمقدورنا أن نشتري غرفة النوم، التي ما استطعنا أن نحلم بها يوم زواجنا، ثم طلبت الفيديو والبيت الملك، الجديد، الواسع، ثم غرف الأولاد، ثم السيارة..

وانفلت الحبل على غاربه، حتى صار لنا رصيد في البنك، وصرت مسؤولا عن ثلاجة الموتى، التي بدأت فيها عاملا مسكينا، حافظ على المهنة الموروثة ... آه عشر سنين ابتعدت بنا عن أيام الجوع والعري واصطكاك الأوصال أيام البرد، وصرت الآن سيدا يا ديب يا ابن الحانوتي، لا ينقصك شيء سوى أن تعود إلى تل العفار، الذي خرجت منه يوما جائعا، وهربت بخديجة، بعد أن رفض أبوها «المقلعط» أن يزوِّجها لك، دون مهر. كنت تنظر إلى حقول الفلاحين، فتتحسر، وتصاب بالمرارة، إلى أن دفعك الحب والفقر الى أن تترك المكان الذي احتضن قبر أبيك.

كل ما كان لدى الزوجين الهاربين، قرط ذهبي يتدلى في أذن خديجة، لم تتردد لحظة في نزعه وإعطائه زوجها، الذي دفعه بدوره إلى الرجل العجوز الذي كان يجلس أمامهما في الحافلة المتجهة إلى المدينة، وكان على حساب إيجار غرفة و"منتفعاتها" في الحارة التي احتضنت لجوءهما.

كان لمعان القرط لا يبرح مخيلة ديب الحانوتي، طوال الأيام الأولى التي قضاها في البحث عن عمل إلى أن حطّت به الرحال عاملا في ثلاجة الموتى الملحقة بالمستشفى العمومي، ومازال يذكر ذلك القرط الذي كان يتدلى في أذن المرأة المتمددة، حين دفع الممرضون بسريرها إلى «ثلاجته»، وصار يفكر فيه، حتى واتته اللحظة المناسبة، فتسلل ونزعه من أذنيها، وعاد فرحا إلى زوجته، فقد استطاع أخيرا تعويضها.

وتواصلت حكاية تعويض الزوجة الوفية، وبعد أن «طهق» ديب من معاملة الأوقاف له، ومن ترددهم في إعطاء الموافقة على التكفل بتكفين ودفن جثة مجهولة، لمعت في رأسه الفكرة، فباعها إلى طلبة التشريح في كلية الطب، فحقق فائدة مزدوجة للأوقاف ولزوجته، ثم توالت عليه الزبائن التي تطلب أعضاء لمرضى، وجثثاً لطلاب.

وصارت عادة عند ابن الحانوتي، أن ينسل إلى غرفة الموتى، وتطورت الحال به، فصار يقوم بتفتيش جيوبها ويتحسس صدرها، بعد أن يخلص ما بيدها من ساعات وخواتم وأساور، إن كانت الجثة لسيدة. وفي يوم أبدى استغرابه من ورقة، كانت مدسوسة، في جيب قميص رجل، دهسته سيارة، فقتلته، وبعد أن همّ بإلقائها، فكّر بإعادتها إلى مكانها، لكنه في اللحظة الأخيرة، إقترب بها من الضوء، وبدأ يقرأ، شعر بلذة لكلمات العشق فيها، ثم بدهشة دفعته إلى الفكرة باستثمارها، حين قرأ الإسم، إنه كان لإمرأة مشهورة وثرية.

ومازال ديب في أعماقه، يعترف، بأن أقسى فعل قام به، هو ذاك الترتيب للقاء المريب بين رجل عاشق، لم يتمكن من نيل صبوته، من المرأة، التي ظل طوال حياتها، يشتهي التحدث إليها، وحين ماتت فجأة، جاء لأكثر من إلقاء نظرة الوداع الأخيرة !

لقد اقتربت من عتبات الشيخوخة يا ديب، وانقضت عشر سنين، ومازال ذلك الموقف يؤرق راحتك، حين قمت بإخفاء دليل براءة عز الدين، المتهم بحادثة قتل، ذهب ضحيتها، القتيل الذي قمت ذلك اليوم، بالسطو على ما في جيوبه، وخفت من إبراز ذاك الدليل، مخافة أن تسأل عما كان

لديه من نقود.

صحيح أن سنوات السجن الطويلة، أبعدته عن عالمك، لكنه لابد أن يخرج يوما، فماذا عساك تقول له حينها، لا لا لن تقول شيئا، بل ستفعل، ستعرض عليه مبلغا من النقود، وإن رفض، فستقوم بقتله، أن تتغدى به قبل أن يتعشى بك.

أن أقتله ؟ أصير قاتلا بعد أن كنت مجرد لص، لص ظريف، نعم لص ظريف، فماذا ينفع القتيل ماله بعد موته، وما الفرق عنده بين أن آخذه أنا أو غيري من أقربائه ؟

أنا لا أسرق الميت، بل أسرق الأحياء، الذين هم على الأغلب يستحقون السرقة، وربما أنني لا أسرق حتى، فهم لم يصيروا بعد مالكي أموال الميت، بل ربما أقوم أحيانا بتقديم خدمة له، فربما كان على خلاف مع ورثته، حتى لو كانوا أقرباءه. كل هذا شيء وأن اقتل شيء آخر. لكن إذا كان لا خيار لك، فإما أن تكون قاتلا أو تكون قتيلا، فأيهما تختار.. سأحاول أن أقنعه بالمال.

لمع القرط مرة أخرى في مخيلته، فلاح له بالحل.. آه ربما كانت زوجته بحاجة إلى قرط ذهبي، حينها لن تكون هناك مشكلة.

*****

رجع الرؤى

لم تكن الطريق شاقّة وطويلة فحسب، بل وموحشة أيضا، لدرجة أن قلبه بدا إليه مربوطا بآخر شعاع مضى للشمس الغاربة وراء الأفق، والتي كانت لتوها، بالرغم من ميلانها بإتجاه الغرب، سببا للزوجة والضيق اللذين إنتاباه، وهو الذي بدأ رحلته بقدر ما من الغبطة، التي ترافق مستكشفا أو راحلا فضوليا، وليس جنديا ذاهبا إلى الخدمة الإجبارية، في موقع متقدم، تغلغلت في أوصاله حال الترهل، بعد طول انتظار ممضّ.

رغم ذلك، واصل سيره يرافق الهسهسات والوشوشات، وزقزقات العصافير، يشاطرها بين فينة وأخرى بترانيم بدوية، كان يحفظها منذ أيام الطفولة، يغذُّ خطاه باتجاه الموقع المجهول، الذي لم يعد على أي حال، سوى على بعد مسير ساعة أو إثنتين، يتطلع إلى لحظة أولى، حين يستقبله الرفاق مرحبين، فيجلس وسطهم يحدّثهم عن الدنيا، التي غادرها وراءه، وعن الناس الذين يمارسون حياتهم، ويكادون ينسونهم في مواقعهم، يأكلون ويشربون، ويتسامرون، ثم يندسون آخر الليل في فراش دافئ، مع صحبة أنثوية طازجة.

مع كل خطوة باتجاه الغرب، صار يهييء نفسه، كي يكون المحتفى به، من قبل القابعين هنا في برية مجهولة، يمضغون الانتظار والنجوى، يحدثهم عن طراوة الأحياء، وعن الغرف المضيئة، حتى إذا ما مرت الأيام، ودارت دواليب الإنتظار، تشهّت روحه نظرة الأنثى، وموعدها المدبر في الخفاء، أو ساعة التجوال على غير هدى بين الحوانيت والمقاهي، في المساءات العجولة.

كم من الوقت سيمضي قبل أن يقوى على اقتناص لحظة الخدر البدائي، مرة أخرى، بين تلابيب «الرواق» ؟ هاله الأمر، فاختلجت جوانحه، وتقلّصت عضلات صدره، وتتابعت أنفاسه، فتمنى طلّة الأنوار كما الأيام الخوالي، يسكب النار في البلعوم، فتهدأ ثورة، تعددت أسباب توهجها بين الجوانح.

لن يطول بك المسير، يا أيها الولد المكبل بالرؤى، واستباقات المراحل، والتوقّع والتوجّس من قادم الأيام، فلتحفظ عليك عقلك، يا أيها الرجل الذي سطرّته أوامر كسلى، ودبّجته تعاليم الصرامة في الزمن الرخي، بلا هوى. ماذا لو إنفتحت حوانيت الظلام في العتمة القصوى، أو ماتت الطرقات التي تفتّر عن إحتمالات التردي، أو هوت الهواجس من بؤرة الرأس إلى أسفل الدنيا؟ هل كانت «رواقاتك» تغلق بابها ؟ أو تهدأ الخلجات في صدرك ؟ أو تهمد الأوهام والأحلام والأنغام بين الثنايا والحنايا، والفتافيت المبعثرة في كل ذرة حس من خلاياك ؟ أم ماذا ؟

لا يجيب على التساؤل، لكن خطوا فضوليا مضى، وارتخت همة المستكشف الأولى، تهاوى على ركبتيه، ورغب ببرهة من راحة البال، فجلس، ثم ألقى برأس مثقلة، بين كفّين مرخيتين، ولم ينتبه إلى ما تعطل مما كان مثارا في كل أنحائه.. غابت الوشوشات، لكن شيئا يدل على حياة، بدا له، يشق خفيضا هالة الصمت.. توجّس، ثم إنتبه، وصار ينصت، فعاود نصب قامته، ولحظة بعد أخرى صار ينقل خطوه، صوب الذبذبات، القعقعات، أمواج التردد.. ثم تجاوز تحدّر المرتفع، فرأى نقاطا مضيئة، بدت نجوما خفيضة، أو مشاعل ينشّق عنها صدر الظلمة

الدائرية، يشتدُّ لمعان البريق منها، مع كل خطوة إضافية، فغذّ الخطى، باتجاه المعسكر..

شيئا فشيئا، صار الكيان الإنطباعي، الذي تشكّل مع الخطو، واللهاث ورجع الصدى، يرى أناسا يرقصون، يتصايحون، ويدبكون، فدون أن يقوى على ضبط حاله، هرول، حتى إذا إقترب من محيط التحلق، ألقى متاعا، ثمّ شبك ذراعا بذراع مرمري، وأطلق لكل كوامنه العنان.. حتى إذا مضى كثير وقت ولم ينتبه، وبدأ تجمُّع العرس بالإنفضاض، تطلّع إلى الوجه الصبوح، وصبّ في نظرة نشوى، كل معاني الغرام، وما كان سواه يتمنطق واشيات العساكر. فصحا من غفلته، وعاد إليه رشد غفا، فوعد ومنّى.. ثم تابع سيره، بهمّة كانت قد غادرته.

بدت له دلائل الثكنة وجهته، ثم فوجيء بصوت، هزَّ أوصاله، قبل أن يرد بكلمة السر، فهبّ إليه ظلٌّ، تفتّحت عنه أوراق العدم، قاده بعد التصافح، إلى قلب المقر.

وفي خيمة كالحة، حيث سيأوي، كانوا في انتظار أحاديثه عمّن، يهجعون وراء الأفق، لاذ بالصمت، تذكّر حكواتي «النوفرة»، ثم إنفتح الفم، الذي انغلق طوال اليوم، بالسؤال عن الجيرة المؤنسة، وعن فتياتها اللواتي يقطعن وصف أعتى خيال ؟ ثم تدفق حلو الكلام من شاعرية صبّ، عشق للتّو صحبة ناعمة..رنا الصمت، وتطلعت عيون في الظلام إلى بعضها، ثم علا التساؤل سمر الجباه !!

كفُوّا على غير عادتهم عن الإستماع لوافد قدم من وراء الأفق، وضرب أولُ كفا بكف، ثم إنسحب، تفوه ثان: أيعقل ؟ ثم إنسحب، وثالث قهقه

ملء شدقيه، ثم انسحب، ورابع أطلق ساقيه للريح خارجا. وآخر قال: لا عليك، رفيقي نكمل غدا.

توسّد ساعديه، ثم حملق في وجه القمر، وغفا على آخر رفة رمش، مؤملا الروح، برقصة حب تهبّ على روحه في المنام.

*****

إختلاج مفاجئ

الصمت الذي يلفُّ المكان، بدا مثيرا للضجر، بل وأكثر من ذلك، بدا له كأنشوطة، تلتف حول عنقه، أو كبلاطة قبر، تجثم على صدره، الوحدة قاتلة، والأيام تفرُّ كقطرات ماء من بين أصابعه، وتذهب معها متعة ممكنة، والرتابة مملة، تثير الحنق والرغبة العارمة في التمرد.

تطلع حواليه، فلم ير غير كتب مكتظة، خالها للحظة، تتهيأ للسقوط فوق رأسه، تلك التي سكنتها، وعششت فيها كل تلك السنين الطويلة، الضيق الذي إنتابه، والذي جرّ معه غلالة الكآبة، دفع إلى رأسه التساؤل الذي يداهمه كل مساء، في مثل هذا الوقت، أيبقى يقتل وقته في القراءة ؟ أم يخرج على غير هدى، هائما في الطرقات المحايدة، دونما هدف محدد؟

في هذا المساء بالذات، إنتابه حنين عارم لأيام الشباب التي مضت، فنهض، كمن مسّته أفعى، عن مقعده، وذهب من فوره إلى الخزانة التي يحتفظ فيها بأوراقه وأشيائه الخاصة، وجلس بينها، ثم أخذ يقلب أوراق الذكرى..

عالمٌ فتيٌّ ضاجّ بالحياة والصخب، تراءى له، حتى كاد أن يلمس تفاصيله بأطراف أصابعه، التي توترت لحظة أمسكت ببطاقة مازالت، رغم لونها الكالح، تفوح بعطر الصبوة الأولى، النافح من رسم الغرام.. قلّبها.. ثم قرأ الإهداء.. انتفضت عضلة القلب، وفي لحظة كان يدسها في جيبه، ويخرج بعد أن خطرت له الفكرة المراهقة.

سار على قدميه، يغذُّ خطاه، كفتى بدا على عجلة من أمره، يصارع

الزحام، ويبدو شاهدا محايدا على الضجيج الذي ملأ الشوارع، حتى استوقفه الصوت الصاخب، المنطلق من محل للتسجيلات، إنتبه إلى المغني الذي يجهله، فشعر بالتعاطف معه للمرة الأولى، وبتقبل إيقاعاته.. وفي اللحظة الأخيرة نجح في كبح رغبة مفاجئة في الرقص.. واصل، حتى إذا ما صادف بائعة قلائد الفل، إندفع نحوها، واشترى عقدا خرافيا، ضمّه بين كفّيه، وغمر أنفه بينهما، ثم أخذ يعب الهواء، كمن يتنفس للمرة الأولى.. أو الأخيرة.

كان الفتية يمرون من حواليه بقراطيس الآيس كريم، فتوجه من فوره إلى البائع، واشترى واحدة، بدأ في التهامها، كوافد من صحراء حارقة.

تابع الرجل دورانه، دون أن يقوى على قهر التردد، الذي داخله، إلى أن صار وجها لوجه، أمام مكتب الهاتف العمومي، فغالب إضطرابه، وتابع نشوة المغامرة ثم أدار القرص بالأرقام التي كانت بالبطاقة.

رد عليه صوت طفوليٌ خاله مألوفا لديه، لكنه إنشغل عنه، وسأل عن الآنسة «سالي»، تساءل الصوت:

سالي مين ؟

إنتبه إلى أن خطأ محتملا، يمكن أن يكون قد وقع، فأعاد نظرة خاطفة إلى البطاقة، وفي اللحظة ذاتها، كان صوت إمرأة يتابع الهاتف، فاعتذر مستفسرا، إن كان الرقم صحيحا أكدت له المرأة صحة الرقم، ثم سألته عمن يريد بالضبط. فأجاب بأنه يريد الآنسة «سالي»، ثم استدرك قائلا بل السيدة «سالي» (لابد أن تكون آنسة تلك الأيام، قد تزوجت) !!

. يا أخي، ربما أنك تقصد السيدة سلوى ؟

. نعم ... نعم أريد السيدة سلوى

أجاب

. لكنها الآن في بيتها

ثم أعطته رقم هاتفها،

أدار القرص، وأنصت للرنين، الذي كان يزيد من دقات قلبه، منتظرا أن يجيبه صوت مخملي، غاب عنه طويلا.

. نعم ... من ؟

. مساء الخير.. سالي !!

صمت الطرف الآخر، فاستدرك قائلا: قصدي، سيدة سلوى، ربما تكونين قد نسيت صوتي، لكنني معرفة قديمة، وأريد أن أراك لأمر هام.

. لكن.. يا سيد..

قاطعها: لن آخذ من وقتك كثيرا، ستعرفينني، عندما ترينني، أنا بانتظارك في كافتيريا الشاطئ الأزرق.

ثم تابع قائلا: إلى اللقاء

توجّه على عجل إلى الشاطئ الأزرق، وتطلع إلى الطاولة التي طالما شهدت مواعيده الحلوة، قام بحجزها، ثم جلس يدخن بعد أن وضع عقد الفل، كعادته القديمة أمامه، وأخذ يتطلع مرة إلى صفحة البحر، المتلألئة بانعكاسات الأضواء الساقطة عليها من الفنادق المجاورة، ومرة أخرى إلى البوابة، فيما المظلة فوق الطاولة، تحجب الضوء، وتضفي جوا شاعريا مضاعفا.

طال انتظاره، وهو يرقب البوابة إلى أن توقفت سيارة أجرة، نزلت

منها سيدة بالغة الأناقة، تضع على كتفيها شالا، كان يحبه، وكانت هي تعتز به لأنه كان هديته الأولى لها.. ما إن رآها، حتى شبَّ على قدميه، وأندس في زاوية الركن البعيد من الصالة، وقد أذهلته المفاجأة..

لحظة وكانت السيدة تعرف مكانها، وتتوجه إلى ذات الطاولة، ثم تأخذ مكانها، وكعادتها القديمة أيضا، تناولت عقد الفل، ثم وضعته حول عنقها، وتلفعت بشالها الأزرق.

بعد لحظة، كان ينضم إليها، ملقيا تحية ناعمة، تطلّعت إليه، فانتابتها دهشة، هزّت كيانها، لكنه، مد يده مصافحا وقال:

لا عليك، أخذتنا الأيام، وفرّت منّا دون أن ندري.. ثم سأل: ليمون أليس كذلك ؟

احمرّت وجنتاها، وأرتد إليها صبا، ما رآه منذ عشرين عاما، وما كان الليل بطوله، قادرا على أن يشبع نهمهما إلى الهوى والسهر.. وبعد أن انتصف الليل، قالت:

مولاي، لقد أدرك شهرزاد الصباح، وأعتقد أنه وجب علينا أن نعود، فلا بد أن يكون الأولاد الآن قد ناموا.

كان لا بد له من أن يوافق، فنهض، ومدّ ذراعا شابّة، تأبطتها السيدة بغرام فتي، ملتصقة بجسد وجدته حارا وطاغيا ومثيرا، رغم أنه قد رافقها طوال عشرين سنة.

*****

روعة الأزرق

كانت الشمس قد غطست في البحر لتوّها، وكان الزحام يثير في نفسه ألفةً يرغبها، وقدماه تتهاديان عبر الانسياب الذي يشق المدينة إلى نصفين متقابلين، عبر خط من الوهم، المصحوب بالجلبة الهادئة والصحبة العامة.

كان وحيدا، وإن كان يتوقع رفقة تداهمه في أية لحظة خاطفة، يتنقل بين الواجهات المتراصة، التي تحتوي كل ما يشتهي، دون أن يقوى بالطبع على تخطي العتبة الفاصلة، فيكتفي بالتلصص المجاني، غير آبه بحركة الذاهبين والآيبين، يتطلع بعمق عبر الزجاج، الذي يضفي لمعانه المضيء رونقا إضافيا، على محتوياته المتعددة.

وكان أيضا، لا بد لتلك «المانيكان» أن تداهمه بثوبها الملائكي، وبقوامها الممتشق، فتأمل كل كيانها، حتى أصابع القدمين، ثم غامت الدنيا، ولوّحت العرائس مناديلها لفارس حملته الأكف، على أطراف الأصابع، وتهادت المواويل كما في أغنيات الطفولة.

سحر الأزرق الدافئ، كان صديق الصبا، يزداد فتنة حين يطلق عصافير قلبه على شاطيء البحر، في الفصل المخملي، ثم مع الوقت صارت العصافير حماما زاجلا، يربط في ذيلها خصلة الشعر الناعمة، وما تخلى عن لهوه الأزلي في مداعبة السماء.

الزجاج المضلع الأملس يباغته فجأة، ويسحبه من لجة الأزرق، ثم يضعه وجها لوجه مع زرقة صاخبة، أربكته، فدار نصف دورة، حتى إذا

ما صار في مقابلة الخيال المجسّد، تلعثم، وكان أن تمتم في سرّه، مستعينا بالإله. ثم استدار إلى المدخل، وتوقف يرقب تفاصيل تحفة الآلهة، حتى إذا فاجأته بالسؤال، تدارك الأمر، وغطس في غبطة نادرة.

ودّ لو طال المساء السماوي دهرا، لكن التواعد كان يكفي لإغفاء لهفته الجارفة.. ثم كان اللقاء والحديث الذي يذهب العقل، ويهصر تجاويف الفؤاد، وكانت أنفاس روعة حين تهمس، تبدو له عبقا من الجنة، ما عادت الدنيا كما الدنيا، ولا عادت الأيام كسابقاتها، وصار العمر كرنفالا دائما، حتى بات على قناعة، بأنه لا بد من الاقتران الأبدي.. فطار في غدوه إليها، يفاتحها برغبته في الحلال !!

بعد دلال أنثوي وافقت، فطار من فرحته، وأخذ يرقص في المكان العام، فشدّته وأجلسته قبالتها، ثم جرّته إلى الحديث في ترتيبات الأمر، وكان لابد له أن يسألها عن أهلها..

استبّد بروعه الكدر، وغام الأزرق في بحره، حين كانت الطفلة، تغلق عينيها على آخر مشهد للعجوز، التي أحضرتها قبل عقد ونصف، إلى ذاك المكان.

مدّ يده حتى لامس أصابعها الباردة، وشدّها إليه، وسأل عما جرى، فانفلتت الدمعة، بعد أن ترددت برهة في المآقي.. ثم أجابته عن حالها.. أصابته مفاجأتها بحالة من الأسى،فنادى على النادل، ثم دفع الحساب، ودون أن يلقي تحية الوداع، غادر المكان على عجل !!

*****

جدّي

لم أنس وجه جدّي عبد الدايم، منذ مات عن ألف عام، قضاها في جدٍّ واجتهاد، لتأمين الحياة الحرة الكريمة، لأبنائه وأحفاده، الذين عدُّوا العشرات من البنين والبنات، في آخر إحصاء له قبل الممات.

كنت أتطلع إليه، فأراه مرتفعا، أسأله عن السرِّ، فيقول: أنها السنين.. أستوضح، فيجيب: ستنمو كل عام سنتمترا واحدا، وبعد ألف عام ستكون بطول قامتي..

سألته عن عمره، فأجاب: ألف إلا واحدة، وبعد سنة كان قد مات.

كنت أستغرب بياضه المطلق، فأسأله: يا جدّي لماذا أنا شعري أسود، وأنت شعرك أبيض، فيقول: أنت صغير وأنا كبير.

أعاود السؤال: ولماذا ينبت الشعر الأبيض في ذقنك، وأنا لا ؟

فيجيب: أيضا لأنك صغير وأنا كبير..

جدّي كان يأخذني كل مساء من يدي، ويشرّق، وعند حافة القطع الحدودي، يصوِّب نظرة حادة ويصمت، أسأله، عما يوجد هناك، فيجيب: الأحبة.

أنت كبير يا جدّي ؟ أسأله: أأنت في عمر أبي ؟ يضحك ويقول: أنا أكبر من أبيك ومن أعمامك جميعا.. أعترض وأقول: ولكن عمي حسن أكبر منك، لا يا بني فكل هؤلاء أبنائي، وقد أنجبتهم بعد أن صرت شابا، وهل ستكبر أكثر ؟ يجيب بصبر: كل يوم يمضي أتقدم في العمر، لكنني لن أتجاوز هذا الطول، الذي أنا عليه منذ عقود.

أسأله مجددا: وكم عمرك ؟ يقول: كثير، ما يقارب ألف عام وهل تذكر يوم كنت بعمري ؟ يقول بحماس: كأني كنت أنت.. ثم يتابع قائلا بجملة واحدة، لا يوضحها: يرحم هذيك الأيام.

حين عدت من المدرسة في ذلك اليوم الجلل، سألتهم عن جدّي، فقالوا: انه سيسافر. سألت إلى أين ؟ فقالوا: إلى السماء.. نظرت إليه من شق الباب، كان ممددا ومجللا ببياضه الناصع.

طالت سفرة جدي، وطال شوقي إليه، فصرت أجلس في الليالي المقمرة، أتطلع إلى السماء، فأرى كتلا من البياض، تتحرك باتجاه القمر، أظنها عباءته، فأستبشر بقرب عودته، التي تتم فعلا في المنام.

وهكذا كنت أراه كل ليلة، إلى أن أخذ الشيب يغزو هامتي، والوهن يمتد في أوصالي، حتى صرت جدّا، أتمدد في فراشي كل مساء، فأراني كتلة من البياض، تسبح في السماء، عسى أن تتاح لي فرصة الإلتقاء بذاك الذي مضى، وما عاد منذ أربعين سنة.

*****

وفاء السيدة

تمطّت السيدة وفاء في فراشها ذاك الصباح، وودّت لو كان اليوم هو يوم إجازة رسمية، لتستمتع بكل لحظة فيه، وتعيش ساعاته الأربع والعشرين، بدقائقها الستين وثوانيها وثوالثها اللامتناهية، وعلى مهل نهضت، تستقبل صباحات الخير المعتادة، من الزوج والأولاد، في انتظار ساعات ما بعد الظهر والمساء، التي ستشهد لحظة اعتراف الجميع بها، ملكة البيت المتّوجة.

لم تذكر السيدة شيئا جديرا بالاهتمام تخللته ساعات عملها الرتيبة، غير إيقاعها البطيء المثير للملل، رغم ما هو معروف عنها من حيوية خاصة، ومن مبادرات عملية، لا تقابل من المسؤولين بأدنى بادرة إهتمام، مردها ما تتميز به شخصيتها، من إحتداد يعود إلى التربية الصارمة، وإلى الجرأة المكتسبة، من تقاليد وقيم العائلة الفلاحية، التي لا تقيم وزنا للمجاملات التي لا تخلو من نفاق.

ورغم أنها توقعت، أن يبادر زوجها، في ذلك اليوم بالذات، بدعوة العائلة، إلى طعام الغداء، في مطعم ما، يريحها من عناء التفكير اليومي، فيما يمكن أن تعدّه من طعام، إلا أنها شغلت بالها، ككل يوم بذلك، ولم تعوّل كثيرا على إمكانية التوقع، التي طالما علمتها التجربة، تجنبها، خصوصا في العشرة أيام الأخيرة من كل شهر.

ودّت من أعماقها، أن تفاجيء الأولاد، بطبق «البيتزا» الشهي الذي يحبونه، لكنها تذكرت أنها قد فعلت ذلك منذ يومين فقط، وهي ممنوع

عليها، أن تكرر كثيرا وجبة الطعام الواحدة، تجنبا لردة فعل الزوج حاد الطباع، المعروف بمزاجية إعتادتها طوال تلك السنين، وباتت تتقبلها كقدر عصي على التبدل.

لم تنتبه السيدة إلى زميلها القاص، الذي قام بمتابعة انفعالاتها، في ذلك اليوم، وإلا لكانت قد تحفظت قليلا، ولكانت قد سعت إلى التقليل من إشهار توترها وشرودها البيّنين، ولقللت أيضا من تناول فناجين القهوة، التي ما توقفت عن شربها بنهم، رغم أن إستحقاقات العمل، ما كانت تقتضي نصف تعدادها.

بعد وقت كانت ساعات العمل اليومي قد انتهت، فلملمت السيدة هواجسها، وأغلقت أدراج مكتبها، على شؤونها العملية، وعادت على عجل أدراجها، إلى حيث شؤون البيت والأسرة.

لحظات وكان الأولاد يعودون إلى البيت تباعا، ومعهم هداياهم الرمزية وتهنئاتهم الحارة، فتستقبلهم بقبلاتها الصادقة على جبهاتهم البريئة، وتحضنهم واحدا تلو الآخر، إلى أن حل المساء.

أمام الشاشة الفضية، جلس الجميع كعادتهم كل ليلة، ينتظرون مسلسل السهرة، أما هي فتوقعت فيلما لـ «شادية»، لا بد أن تبثه فضائية عربية ما بالمناسبة.

وحين حل موعد نوم قرة العين ومهجة الفؤاد، إندست بينهم كعادتها المسائية تحكي لهم حكايا الجدّات التي تلقتها أيام الطفولة، وكان عليها منذ أن وعى الولد الأول متعة الحكاية، أن تقوم بهذه المهمة أيضا، نظرا لأن المنفى غيّب أيضا، عن الأولاد جدتيهما.

دون تردد، وفيما بدا أنه اتفاق مضمر بينهم، طلب الأولاد منها أن تحكي لهم قصة عن «عيد الأم»، ترددت لحظة، ثم ما كان عليها سوى أن تعمل خيالها قليلا، وأن تتقمص شخصية زميلها القاص، فحكت لهم عن الجدة «أم الخير»، المرأة المسنة، المقيمة وحدها في «حارة الفراش» التي ظلت تنتظر صباح يوم كهذا، أن يهاتفها أولادها بالتهنئة، حتى أغرورقت عيناها بالدموع، وبعد أن أكثرت من الدعاء لهم ولأبنائهم واحدا واحدا، بعد صلاة العصر، إندفع إلى بابها كل أولاد الحارة مهنئين، ثم كان الرنين المستمر للهاتف، من أقطار تقع في قارات الدنيا الست.

انفرجت أسارير الأولاد للحكاية، وناموا بهدوء على نسيج أهدابها، أما هي فقد قفزت على الفور من سريرها، وهاتفت على عجل أماً، إغرورقت عيناها ولا شك وكادت هي للحظة بدت كالدهر، أن تقع في محظور السهو عنها، في زحام هواجسها بين البيت والعمل.

*****

مداهمة التضاد

نوبات الصداع المتواصلة تكاد تفجر الرأس، الذي ما يلبث أن يستسلم بكل بساطة الأشياء الموزعة من حوله، والتي لا تثير سوى الضجر والكآبة، إلى حلها الرخو، ومن ثم يحلق في ملكوت الأثير، حيث يسبح في فضاء لا ينتهي، ولا يخضع لكل معايير الصخب العبثي المضطرم في أجندته اليومية.

وهو، رغم حبه المتأصل للقلق، إلا أنه صار رويدا رويدا ومنذ أن وطأت قدماه أرض المخيلة، يخضع لسطوة الإنسياب الهادىء في المياه العذبة، يتطلع إلى الصمت الكامن تحت قشرة الإرتجاج، فيرى ذاته الميتة، ملفوفة بالبياض، كفراشة سكنت في بحر الرحيق الدبق، تهجع بالصلاة التي ترتد منها.. إليها، دون أن تحرك ذرات الهواء الراكدة من حولها.

منذ وقت والفتى الأهوج يلهو بالسبات، الذي يحيل إلى الموت أحلام الصبا، ويافعات الخيال، ويعبث بتزجية الوقت إلى مثواه، وينتظر دونما لهفة خاتمة الحكاية.

هكـذا تتابـع الأيام والأيـام، دون أن يقوى على فكـاك من أسرها الشرطي، غادرتـه كل عاداته الليليـة الطازجـة، وهجرتـه كل أحلام الصبـا وصبوات التلهـف المخملـي. التي طالمـا طبعت أيامـه بالحلاوة وإحتمـالات التقبـل وإرتعاشـات الحيـاة، عنـد نقطة إنطلاقها الأولى.

في هذه الليلة، وعلى حين غرّة، ما اعتادها منذ وقت مضى، دهمته

غيمة مفاجئة، أخذته في برهة مقتضبة إلى رحلة لا قرار لها، حين إنشق صدر الأفق من تلقاء نفسه عن قرينة مشتهاة، وقد تشكلت من رؤى متمنعة، ومن رغبة طاغية، ليحط على رضاب شفاهها، كاهله الذي أثقل عليه أيامه، وزرع في أوصاله الخدر البليد، ونثر بين أعصابه الموات، ودّ لو تتسع اللحظة لكل رحلة العمر، التي إستلّها القدر من بين إحداثيتيه: الرحم والردم.

ما أروع الأنثى حين تداهمك، بعد أن يطول اشتهاؤك، وما أجمل اللحظة حين تمتد كدهر من السنين الصاخبة.

لكنّ ليل الفجاءة لا ينتهي عند حدود الإشتهاء، وعذب اللقاء، فكل ما سكن من هاجس الأحلام يضطرم في اللحظة التي ترى فيها عيون التشكك ذراعا فتيّة تطوق كتفا رافقتك طوال سنين. حينها يفور الإنبعاث الذي ركد بأكثر مما ينبغي، وتنفلت شراهة التملك إلى غيّها، وتطبق في لحظة فارقة، مخالب الموت حول جيد الطريدة.

تصحو من الأحلام والأوهام، وتسقط عنك نثارات التضاد، وتتكور مهزوما في محيط الدفء، الذي يعيد حالة ما قبل «الفزع» إلى طبيعتها، ثم تعاود نوما هانئا، لا يتوقف إلا عند حدود الموت، الذي لا يستحق حتى صلاة الترحم أو تراجيع الإله.

*****

ثلاث قصص قصيرة جداً

١- إشتهاء

رغم افتراقنا منذ أكثر من عامين، مازلت أذكر ذلك الرجل الفتي، الذي ما كان يكف عن مغازلة النساء، والتعبير عن إشتهائه الدائم لهن، رغم بلوغه الستين من العمر، وبالرغم من رفيقة عمره التي تصغره كثيرا، وتبدو كسيدة ناضجة، تثير رغبة وقورة، من الممكن لي أن أمعن في وصفها، لولا أنها زوجة صديقي الوحيد، في هذه الدنيا، الذي يبلغ عمره ضعف عمري..

كان يتأفف ثم يفضفض لي عن غيرة رفيقته السيدة «ناضجة»، هكذا كان يقول أمامي ساخرا مني ومنها، ثم يستدرك قائلا: أنت وضعك أرحم، فما زالت زوجك صبية، لم تشتعل بها نار الغيرة المزعجة.

ثم يحدثني عن كل النساء اللواتي حلم بهن.. بالأمس، وبدرجة خاصة جدا، تذكرته بقوة، حين تذكرت في اللحظة الأخيرة، زجاجة العطر وباقة الورد، قبل أن يقفل السوق، لأعود بهما إلى زوجتي، مهنئا بذكرى زواجنا العاشرة، ومفتشا بقوة عن فتى من بين أصدقائي، أحدثه عن اشتهاءاتي المتمنعة لكل نساء الدنيا، عدا واحدة..

٢- حكمة

كلما صعدتُ أو هبطتُ درجات السلم، المؤدي إلى شقتي في الطبقة الخامسة، من تلك البناية الكالحة، إستبد بي الفضول لرؤية تلك الصبية، التي ما أن تشعر بخطواتي، حتى تغلق الباب.

أصعد وأهبط وأكاد أرى كل خطواتها، وحبات الهواء التي تدخل صدرها.

البيوت أسرار، هذا ما يقوله دائما مختارنا المبجل، فلا أعلق، رغم ما ينتابني من رغبة عارمة لا توصف، لإدراك بعض هذه الأسرار، التي تغفو على طيّاتها بيوت حارتنا.

على رجع صدى خطواتي، تغلق الباب في اللحظة المناسبة، ليستبد بي الشوق لإدراك كنه وجهها على الأقل.. أتوقف عسى أن تكون قد أمنت لذهابي، فعاودت فتح الباب، أتمهل، لربما ؟

لا بد أن تكون هي قد رأتني، وليس من العدل أن لا أراها، آه لا بد أن تكون بالغة الجمال، رشيقة القوام، فتية الصبا ؟ بعد مائة عام من الضجر، باغتها، حيث لم تسعفها خفتها المجربة باغلاق الباب، في اللحظة المناسبة، لأنني كنت هذه المرة، أنسل كلص، وحين رأيتها، مضغني دوار مفاجئ، وانتابتني رغبة طاغية في التقيؤ.. على حكمة المختار.

٣- مسؤول

يحدثني كل يوم عن سذاجة مديرهم المسؤول وعن عدم كفاءته، بل وقلة أدبه التي لا تحد، فهو يتدخل في كل أمر تافه، «ويتمنظر» على الموظفين ليس كمجرد مدير عادي، بل وكأنه وكيل وزارة أو أكثر، وللحقيقة، أنني أدركت بعد زيارة لم تطل، صدق تشخيص صديقنا، واجتاحتني رغبة في قتل هذا المدير، حين رأيته، ووقفت على مدى سطحيته وسذاجته.

ويحدثني صديقي كل يوم أيضا، طوال الطريق المشترك بيننا، إلى مقر العمل المتجاور، عن أنه سيفجر اليوم بالذات قنبلته، ويبصق في وجه هذا السخيف، ليضعه في مكانه، ويضع حدا لتطاوله على الناس المحترمين، من الكفاءات مثله، وفي آخر الطريق، يمضي كل منا إلى مقر عمله، وأنسى على الفور كلامه الذي يشبه كلام الليل، المدهون بالزبدة.

في ذلك اليوم، وإمعاناً منه في التأكيد على عزمه الذي لا يرد، دعاني إلى مشاهدة الواقعة، فذهبت يدفعني الفضول، معه لتناول فنجان القهوة الصباحية في مكتبه، في تلك المؤسسة الحكومية،التي تحيطها هالة الرهبة.

بعد لحظات كان هاتفه يرن، ثم كنت أسمعه يجيب:

. حاضر، على رأسي..

ثم يمضي دون أن ينتبه لوجودي، إلى خارج المبنى، ويعود بعد وقت بعلبة سجائر، يدخل بها، ثم يرجع إلى مكتبه من دونها..

*****

هذه القصص

ليست دعوة عامة للقراءة، أو التمعن، أو التحليل،أو إثارة الجدل أو التحريض من أي نوع، وهي أشبه ما تكون نثارا من البوح والتهويم، الذي يترنح بين لحظة الجنون وتخوم العبث، الذي تثيره المفارقة، يسعى إلى الكلام، فتردعه الرغبة العميقة بالصمت، ويقترب من التمرد، فتعيده غرائز السكون.

المؤلف

ليس غير الظل

بروش شيلو(*)

بروش شيلو... بروش شيلو...

صاح الجندي المختبيء خلف سيارة الجيب العسكرية بفرح، ودون أن تهتزّ بندقيته المنتصبة أمامه، والتي بدت كأنها جزء منه، وقد كان يكزُّ على أسنانه، فتخرج العبارة التي ردّدها عدة مرات حادة ومثيرة، كأنها صلية رشاش. ثم أخذ يتقافز جذلا، فيما كان مصطفى، الفتى الذي أصابته الرصاصة في رأسه، يتهاوى مثل جذع شجرة يانعة، قصّه منشار على حين غرّه، يترنح يميناً فتميل الأرض معه باتجاه اليمين، ثم يميل شمالاً فتميل الأرض معه ناحية الشمال، ثم يكبو على ركبتيه ويتطلع بنظرات مذعورة إلى كائنات غير منظورة لفّها الأفق.

منذ ساعات والجندي عازار يراقب الفتى الذي كان ينطلق كالسهم من زاوية لأخرى، يكتم غيظه، ويتحيّن الفرصة للتصويب، رغم أنه قد انضم منذ الصباح، متثاقلاً، إلى المجموعات المشرفة على أمن مخيم عسكر في نابلس، بعد أن قضى ليلة خائبة مع صديقته راحيل حاول طوالها أن يثبت رجولته معها حتى الصباح، لكنه لم يفلح، وكان يمنّي النفس لو يطول به الوقت، فحمل شعوره بالإحباط والغيظ من حيوية هؤلاء الفتية، الذين لا يكلّون ولا يتعبون، وما عاد يفكر في شيء سوى أن ينهي مهمته بأسرع ما يمكن، ليعود إلى فتاته، يحاول معها. وبقي هكذا طوال يومه، وكلما ألقى فتى بحجر، تذكر قذفته الخائبة وضحكات

(*) بروش شيلو بالعبرية تعني: في رأسه

راحيل فيضطرب كيانه، وتنطلق منه الرصاصات عشوائياً وبكثافة في كل إتجاه، حتى إذا ما أصاب الرأس صاح منتشياً «بروش شيلو»، ومن البعيد كان يخال وجه راحيل يفترّ عن علامة الرضا، فيهدأ قليلا، ثم تدفعه النشوة، ليحاول مرة أخرى.

إلتقاها عصر أمس، وسارا يدا بيد في شارع هادىء، تلفهما السعادة، كطائرين التقى أحدهما الآخر أول مرة، ينظر إلى المتطاير من خصلات شعرها، بعد أن تنكسر أشعة الشمس وهي تهوي صوب المغيب، يجتاحه الخيال والأمل، فيهمس كعاشق عذري، بعد أن يتلفت حواليه: أحبك، تحمر وجنتاها، وتطرق رأسها، في حين تتكور أصابعها في حضن يده المتعرقة، وبعد إلحاح منه، تهمس: وأنا كذلك، لكنني قلقة عليك يا مصطفى! فيجيبها بحماس: لا عليك، يمكنني أن أقاتل الدنيا بحبك. وحين إفترقا قال لها:

- موعدنا غداً، أو بعد غد، بعد شهر أو سنة، أو قرن من السنين، في وطن جميل، لا قتل فيه، ولا غبار.

غام الأفق وإنتثر الغبار، لكنها جاءته على عجل بفستان أبيض، وكان لها جناحا ملاك.

مدّ يده ليطير معها مخترقاً حواجز السنين الراعفة، ثم تطلع بعينيه للمرة الأخيرة وصوّب نظره باتجاه قاتله وهتف: القاتل.

انتبه رفاقه من حوله إلى الجندي الذي ما توقف عن إطلاق الرصاص، فداروا دورة بإتجاه القتيل، ثم حملوه على أكتافهم، وقد ألهب الدم الحار حماسهم، فاندفعوا يهتفون:

- بالروح... بالدم نفديك يا شهيد.

أما الجندي عازار فتوقف برهة، وفتح سحاب بنطاله، وقبل أن يعاود ترديد عبارته التي كانت تختلط مع أصوات الرصاص والجلبة في الجهة المقابلة، صوّب فتى مقلاعه وقذف به باتجاه الجندي المنتشي لقذفته القاتلة، عندها ترنّح الجندي من الألم ودون أن يقوى على كتم صرخته، انطلقت العبارة من فمه:

- يا حيوان بروش شيلو!

*****

أحاديث الناس

﴿المكان: بقعة مما يسمى بالعالم الثالث.

الزمان: لحظة عابرة لن تعلق في ذاكرة الأجيال القادمة.﴾

في كل محطة جديدة كانت تتزاحم الناس وتتشعلق بالحافلة العامة، التي أقلت بداخلها وعلى أطرافها أضعاف ما تحتمل، حتى بدت كامرأة بدينة عرجاء تميل في سيرها على جنبها، فيشفق عليها من يراها ويخال المرء أن الحافلة لو كانت كائناً حياً «لطقَّت» من كثرة حمولتها وماتت.

وكانت الأجساد المتراصة تشعل الدوار في رأسك من حرارتها، ولا تترك لك مجالا للتنفس سوى زفير جيرانك وروائح العرق والأفواه النتنة، فتشعر أنك في جهنم.

صاح أحد الركاب بالسائق:

- إمش يا.. تأخرنا عن أعمالنا.

تابع آخر:

- شو طالع من القبر بسند كفالة؟

أجاب السائق:

- من لا يعجبه يأخذ تاكسي!

وهكذا إمتدت الملاسنة بينهم حتى كادوا أن يشتبكوا لولا أولاد الحلال.

في هذا الجو والوقت يسير بطيئاً ومملا، حاول أحدهم أن يخفف عنا، وربما بالأساس عن نفسه.

فقـال:

- هذه الزحمة أصبحت جزءاً من حياتنا، لا نقوى على الاستغناء عنها، أمس مكثت أكثر من ثلاث ساعات في طابور الجمعية، وحين وصلني الدور، إنتهى الدوام وعدت إلى زوجتي خائباً، فلم أحصل على الثلاثة كيلو رز، التي كانت مقررة لنا: حتى كاد أن يقع بيننا أبغض الحلال!

أضاف آخـر:

- من الساعة السادسة صباحاً نهضت اليوم، وبقيت أزاحم على شباك الفرن، حتى تخيلته الحجر الأسود، الذي يحج إليه الناس كل عام، وحتى تمزقت ثيابي وانهدت أوصالي، ولكنني أحمد الله أنني حصلت أخيراً على ٢ كيلو خبز.

تبادلت الأجساد المتراصة النظرات الزائغة، وتلصصت حواليها، فأضاف الرجل الأول وكأنه يطمئنهم:

- أنا لا أتدخل في السياسة، بل أتحدث في الأكل، في الخضار وخلافه، يعني في الاقتصاد، فيما تواصل الحديث في الاقتصاد العائلي:

- يا أخي إعمل حسبه بسيطة، تجد أن مرتبك يكفيك أربعة أيام في الشهر، وبعد ذلك نحن محرومون وأطفالنا من كل شئ.

حينها إنضمت إلينا امرأة شابة فقالت:

- أمضيت أكثر من أسبوع من صيدلية لأخرى، أبحث عن حليب لطفلي ولا حياة لمن تنادي.

- قال آخـر:

- أنا أبي مات وما زلنا نحن وأهل الحارة جميعاً نبحث له عن الدواء الذي وصفه له الطبيب.

قال الرجل الأول:

- ماذا يمكنك أن تحكي أو تحكي، أي لو إحتجت لمعاملة، كم من الأوراق والأختام وكم من دائرة تدور وتلف عليها حتى تنتهي، كأن الواحد لا عمل له سوى اللف على الدوائر.

- علّق آخر:

- أنا أمضيت ثلاثة أيام وأنا أبحث عن موظف الكهرباء حتى أُسدد الفواتير ولا أجده، فكان أن أخذت عنوانه وذهبت إليه في البيت، وكادوا أن يتهموني بقضية رشوة، ولا أراك الله، مئة واسطة حتى نفدت بجلدي.

تدخل رجل كان يصمت طوال الوقت قائلاً:

- ما هذه الروح الانهزامية؟ نحن في حالة حرب!

فسأل الرجل الأول:

- حسن ولكن أين هي؟

- لا أدري.

- أجابه الرجل وأضاف:

- المهم، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة؟

ردّ عليه الرجل الأول:

موافقون، لكن سلّحونا بالخبز.

ردّ من كان صامتاً:

- أي إحمدوا ربكم أنكم لا تدفعون ثمن الشمس كما تدفعون ثمن الكهرباء، وانهم لا يعدون عليكم الهواء الذي تتنفسونه بدون مقابل وهو ثروة قومية!

سألني الرجل الأول:

- هل سمعت مونت كارلو الساعة الثامنة؟

- نعم.

أجبتـه:

- ما هي الأخبار؟

سألني:

- إنتخب الأمريكان رئيساً جديداً.

- أجبته:

- يا لحسن حظهم، كل أربع سنين ينتخبون رئيساً جديداً.

وأضاف:

- يا أخي أمريكا دولة عظمى، وكل أربع سنين تنتخب رئيساً جديدا ولا يحدث لها شيء.

توقفت الحافلة، فنزل الرجل واختفى.

مال إليّ رجل كان صامتاً طوال الوقت وقال:

- انظر ابن الـ... قال أربع سنين قال:

وتابع الرجل الذي ما كنت أعرفه قبل ساعة بحماس:

- من حسن حظه أنه نزل، ولو بقي حتى المحطة الأخيرة، لكنت أرسلته إلى جهنم. نظرت إليه وأنا أكتم ضحكة في صدري، فيما أضاف:

- كنت سقته مثل نعجة إلى بيت خالته، حتى يرى نجوم الظهر وينسى إسمه.

وقبل أن يسترسل أكثر من ذلك، بادرته قائلاً:

- أنا لست من الأمن.

- هيء ولا أنا.

وانفجرنا كلانا في ضحك عميق.

*****

الظــلال

الجدران صماء والشوارع ميتة والبيوت ملقاة في فوضى هنا وهناك، الصمت مخيم والسكون موزع على الأركان، والعنكبوت نسج خيوطه على حواف النفس، فانبثق همس الأنين، وترددت أصداؤه بين جوانح القلب، الذي إنكمش كقنفُذ صفعته موجة برد مفاجئة يترقب في مكانه.

الناس أشباح تمر بك بين لحظة وأخرى، تمر على عجل، فلا تنتبه لك، كيانات مكتومة على ذاتها، تملؤها الهموم، وألقت بها العذابات على هوامش العجز، حتى صارت كيانات، مجرد كيانات من ورق، أشباح.. ظلال.. أوهام.. تسير في كل اتجاه، وما أن تهب ريح ما، حتى تلقي بها في مكان ما.

البحر هادر، وهي ككومة قش طافت ثم تناثرت على سطحه المائج. ظلال.. لا ترى العين إلا الظلال، كيانات ميتة، لا يربطها بالحياة سوى نفس يصعد ويهبط، الهم في القلب، والجرح في النفس والصوت مكتوم، وليس سواه يصخب في أذني، صوت آلة السحب «الستانسل»، بم.. تك، بم.. تك، وأنا أراقبها في هدوء وهي تلفظ من جوفها خارجاً الورقة تلو الأخرى، إلى أن تجمعت «رزم» الورق الجاهزة للتوزيع على عباد الله، كنت أتأمل تلك الأوراق، فأقوم «بحسبة» سريعة لتكلفة الورق والحبر، وأتمنى لو أنهم يتبرعون لي برزمة منها حتى أستفيد منها بكتابة شيء ما، أقرأه بشغف على أصدقائي.

بم.. تك، بم.. تك، وتدور الآلة في رأسي، وتطبع آلافاً من الأوراق التي

ما تلبث أن توزع على الناس، وأنا واحد منهم، أدسها في جيبي وحين أعود إلى البيت، أتأملها، كانت ورقة بيضاء رائعة، إلى أن فضّت نصاعتها تلك الخطوط السوداء، التي سالت في أكثر من جهة بفعل الفوضى الناجمة عن الإهمال، وعن بدائية الآله، اقرأ فيملأني الصخب، أعيد القراءة فينتابني التوتر، يا إلهي أن الوضع خطير، أستر يا رب، العالم على حافة الهاوية!

أعيد طيّ الورقة، أتأملها من جديد، ماذا عساي أفعل بها؟ أشعر برغبة جامحة لفعل شيء ما، أشعل سيجارة، وأحاول أن أهديء من روعي، تعود التكتكات إلى رأسي ويتواصل سحب الأوراق، فأعود إلى حالة التوتر من جديد، أنهض وأخرج من البيت. أصل إلى بيت زميل لي، أدق الباب، يستقبلني الرجل بشيء من اللامبالاة، أطرح السلام، تفضل! أدخل وأسلم على الحاضرين، لحظات ويبدأ النقاش:

- أنا أعتقد أن الوضع في غاية الخطورة، وأن الحرب التي لا بد منها على الأبواب!

- ستكون حرباً مدمرة.

- أنا أتفق معكما ولكنني أتساءل عن ردة فعل الجماهير.

صاح آخر:

- سيكون عنيفاً!

أكمل الرابع:

- ولكن كم ستكون درجة هذا العنف؟

هتف الأول:

- أنا أعتقد . . .

صاح الثاني:

- أنا أتفق . . .

أكمل الثالث:

- ولكن من سيكسب الحرب؟

سأل الرابع:

- المسألة تتعلق بالظروف الموضوعية

تدخل الثالث:

- ولكن ماذا عن الظروف الذاتية؟

تساءل الثاني:

واحتد الجدل الذي إستمر ساعات دون أن تلوح في الأفق بادرة بانتهائه إلى أن تدخلت قائلاً وقد لاحظت أن الجماعة كادوا أن يشتبكوا:

- يا جماعة، ولكن ماذا لو لم تنشأ الحرب؟

- وهنا دار الجدل من جديد.

- في هذه الحالة أنا أعتقد بأن صفقات عديدة سوف يتم عقدها بين العملاء!

- ولكن ماذا سيكون موقفنا؟

- أنا أعتقد أنه لابد أن يكون لنا موقف حاسم.

- نعم وماذا عن الآخرين؟

دارت الآلة من جديد، تك.. تك، يا إلهي تتحرك الشفاه الثمانية دون أن تميز أصحابها، أغمضت عيني وحاولت أن أفهم شيئاً، لكن الأصوات

تشابهت فاختلط الأمر أيضاً ودارت الآلة. كان كل واحد منهم يمسك بورقته ويقرأ.. وتدور الرؤوس وتهتز وترسم علامات التعجب.

خرجت وأنا أسابق ظلي، تتقطع أنفاسي، إلى أن وصلت البيت، ألقيت بجسدي المنهك على الفراش، وحاولت أن أنام، فعادت الآله من جديد والورق ينساب من جوفها كسيل من الحليب الأبيض الذي تغطى بالحبر، حاولت أن ألتقط لحظة هدوء واحدة فرأيتهم أرقاماً.. عيداناً من القصب: واحد، اثنان، ثلاثة.. وقد اصطفوا طابوراً واحدا وراء الآخر، ومن وراء الأفق رأيت رجلاً واحداً ضاعت ملامحه وقد تتابعت من وراءه مجموعة من الظلال ضائعة الملامح، تابعتها، واحد...، اثنان.. ثلاثة.. أربعة وكانت تصغر كلما امتد الأفق بالنظر إلى أن تصير مجرد ظل باهت.

*****

الأستـاذ

إنه الأستاذ درويش!

صاح صديقي محمود.

- ليس معقولاً.

أجبت. واندفعت أزاحم القامات التي تراصت باتجاه بوابة الخروج، وما أن إنتهيت من آخر درجات السلم الذي ينتهي إلى رصيف شارع الملك حسين، حتى بدأت أهرول، فيما كان صديقاي محمود وعبد الله يسيران مسرعين خلفي حتى وصلت إلى تقاطع الإشارة الضوئية المقابلة لمحلات جبرى.

إضطرته الإشارة أن يتوقف، وكان يجاهد أن يبتعد عن جموع رواد السينما بعد أن انتهى العرض، وقفت بجانبه وكانت إندفاعة الجرأة التي امتلكتني لإحراجه قد خفّت قليلا، فيما كان الإصرار على أن لا يفوتني كل شيء، ما زال يجتاحني.

هممت بالكلام وأنا أشيح بوجهي عنه، أخاطب صديقيّ وأنا أتعمد في نفس الوقت أن يسمع ما أقول:

- لقد كان فيلما ممتعاً ؟ أليس كذلك.

لحظات وأضاءت الشارة لونها الأخضر، فقطع الشارع، فيما واصلنا طريقنا، كل إلى بيته. ما أن استلقيت على فراشي حتى انتابني شعور بالظفر من هذا الرجل الذي طالما أحرج زميلنا غسان، الذي كان يناقشه بجرأة في أمور الدنيا والدين، وفي حرية المرأة بالعمل وكان يهزأ به:

- هيء، هل تسمح لأختك بأن تعمل؟
- نعم.
- وأن تحب؟
- نعم.
- وأن تتزوج بمن تختار؟
- نعم.

فيجيب مختتماً الحوار. أنتم ملحدون، الواحد منكم لا يتورع أن يتزوج من أخته.

كنت معجباً في أعماق نفسي بجرأة زميلنا غسان، ولكنني كنت أحجم أن أكون مثله أو أن أوافقه الرأي، مخافة أن تتأثر علامتي النهائية في التربية الدينية.

ما أن دخلنا المدرسة الثانوية، حتى بدأنا نشعر بأننا قد أصبحنا رجالا لنا رأينا الذي نحاجج به أساتذتنا، وما أن جاءت الحصة السادسة، وأطلّ علينا معلم التربية الدينية، حتى شعرت بالإنقباض من شكل هذا الأستاذ ذي الحاجبين الكثيفين والشاربين الموزعين في فوضى واضحة على جانبي وجهه، المتكاثر اللمحات، الممتليء القامة الذي لا يضحك للرغيف السخن!

ولكنني رغم كل شيء، رغم انقباضي من رؤيته، ومن حزمه، ورغم أنني لم أكن أقتنع بكل وجهات نظره وتعاليمه إلا أنني كنت أصمُّ ما يفرض علينا من آيات وأحاديث حفاظاً على الدرجة النهائية التي تعودت أن أتحصل عليها في نهاية كل عام.

كان يعتبرني طالباً مثالياً، مجتهداً، ما أن يدخل حتى يشير إلي أن أقرأ الآيات المطلوبة. في تلك الحصة، وكالعادة طلب مني يوماً أن أقرأ فاختلطت عليّ طريقة الإلقاء الشعري بالتجويد، فقرأت، وما صحوت إلا وضحكات التلاميذ ترتجُّ لها زوايا الفصل.

في ذلك المساء إتفقنا ثلاثتنا على الذهاب إلى أستوديو زهران، لنشاهد شيئاً من المتعة، التي بدأت تثير كياننا، وقد بدأنا لتوّنا نكتشف أسرار تلك التغيرات التي طرأت على أعضائنا، وحولتنا رجالا نمارس فحولتنا في المراحيض، أو في الفراش حين تغمض العيون من حولنا وننتشي لذاك الإحتلام الذي يجيئنا في النوم ولا نصحو إلا مع دفق الماء الدافئ خارج أوصالنا.

كانت الصالة مكتظة بروادها، مما اضطرنا أن نتوزع في أماكن مختلفة.

ولم أنتبه أنا إلى ذاك الرجل الذي جلس في المؤخرة قريباً من بوابة الخروج.

حيث كان آخر شخص يحضر إلى الصالة.

لكن صديقي محمود إنتبه إليه، وربما لم يفكر كثيراً لحظتها، مخافة أن يضيع مشهد من الفيلم الذي بدأ ينطبع على الجدار مع بداية دخولنا.

توترت أعصابنا طوال ساعتين، فيما كان الحرص يجتاح كل واحد منا أن يحتفظ في خياله بما يرى، إلى أن يختلي بفراشه الدافئ حين يقترب موعد النوم.

ما أن ينتهي العرض حتى يتسابق الشباب إلى بوابة الخروج، قبل أن يرى الواحد منهم صديق له، فينظر إليه نظرة فيها إدانة، توحي بافتقاره إلى الأخلاق.

في الحصة الأولى عرّف الأستاذ على نفسه، ويومها بدأت أفكر في سر هذا السم، المحشو بالتقوى والصرامة وأتساءل في نفسي عما يمكن أن يكون محشوا به ذلك الأستاذ درويش؟ تأكد محمود وكان قد لمحه قبل أن يخرج من بوابة الصالة من أنه الأستاذ درويش.

في اليوم التالي، تهيأنا كالديوك للحصة الأخيرة، وما أن دخل الأستاذ درويش حتى احتد جدل النظرات بيننا، فانكسرت نظراته، وتهدج صوته... طلب مني أن أقرأ، فاعتذرت وما عادت تهمني الدرجة النهائية في نهاية العام.

*****

وميض الرغبة

كان الشيخ علاء كلما صعد أو هبط الدرج الممتد من باب العمارة إلى شقته في الطابق الثالث، داخلاً أو خارجاً منها، وصادف جارتهم السيدة ماجدة وهي تقوم بتنظيف الدرجات التي أمام شقتها، يتنحنح، حتى تشعر بوجوده لتنتصب فتستر ما ظهر من ساقيها، دون أن يرفع نظره ويلقي السلام، فترد بأنوثتها وتبتسم ابتسامة لا يسمع صوتها، ولكنه يشعر بها على كل حال.

وكان من عادته أيضاً كلما دخل إلى البيت ووجدها في زيارتهم، أن يقوم بحثّها على ضرورة أن تستر شعرها وأن ترتدي الزي الشرعي، ويحاول إقناعها بأداء فريضة الصلاة، ويدعو الله لها بالهداية. وكانت تسأله بدورها حول استخدام المرأة للمساحيق، فينظر إليها ويرى شفتيها المتشحتين باللون الأحمر ويجيب: انه يجوز للمرأة أن تتبرج في بيتها ولزوجها فقط، وما دون ذلك فهو حرام، ثم يستعيذ بالله في سرّه ليواجه لحظة الاشتهاء التي مرّت بخاطره.

خمسة عشر عاماً قضاها الشيخ علاء مذ كان في السابعة من عمره، وهو لا يقطع له فرضاً، يصلي الفروض الخمسة في أوقاتها، يصوم رمضان، ويتمنى حج البيت، حتى أشتهر في الحي كله باستقامته وصار مرجعاً للناس يتقدمون إليه بالإستشارة فيما أحلّه الله وما حرّمه لعباده من المسلمين. وكان حين يضطر في الجامعة إلى المرور من أمام كافتيرياتها ويرى المتبرجات من الصبايا وقد أطلقن شعورهن ولبسن

السراويل الضيقة أو الفساتين القصيرة، يستعيذ بالله ولا تهدأ نفسه إلا حين يدخل إلى المسجد فيتوضأ ويصلي ويقرأ ما تيسر له من آيات الذكر الحكيم.

وكان الشيخ علاء أيضاً لا يفوته أن يرى ما يحدث من علاقات بين الشباب والبنات في الجامعة، ويرى بعضهم بعد انتهاء المحاضرات خارجين يتهامسون ويبتعدون معاً في جوف المدينة الصاخب، إلى حيث لا يستطيع أن يضع بذمته، فيستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ويقول لنفسه: القابض على دينه هذه الأيام كالقابض على الجمر، وبعد أن يصلي العشاء يأخذ في قراءة شيء من السيرة أو الفقه فيصل إلى أذنيه مذياع السيدة ماجدة يصدح بالأغنيات العاطفية: تعالى.. تعالى.. خلّي الدنيا تشوف فرحتنا.. فيغلق شبابيك النافذة، ويضطر إلى احتمال حرارة الصيف حتى يغرق بالعرق.

وفي ذات يوم وكان الشيخ قد عاد عند مغيب الشمس، وفيما هو يصعد درجات السلم المؤدي إلى شقته، تصادف في اللحظة التي اقترب فيها من باب شقة السيدة ماجدة، أن إنفتح الباب وخرج منه الولد أحمد راكضاً وأمه تلحق به وكانت بقميص نوم أحمر اللون، أمسكت بذراع الولد وكادت أن تصطدم بالشيخ، فتأسفت وقالت: أرأيت العفريت لا يريد أن ينام، يريد أن يخرج ليلعب في الشارع وقد صارت الدنيا ليلاً!

وقع نظره دون أن يقوى على رده على ما ظهر من «قبة» القميص من لحم أبيض، نهر الولد وطلب منه أن يعود لينام، ثم واصل سيره إلى أعلى، فيما الأم دخلت وإبنها وقبل أن تغلق الباب، إستدار بنظره، فرأى

ما استدار من مؤخرتها وما ظهر من ساقيها فاستعاذ بالله من شيطان الأنثى!

دخل إلى بيته، توضأ ثم صلى وأخذ يقرأ في الفقه، إنتبه إلى أن ذهنه مشتت ولا يكاد يلتقط شيئاً مما يقرأ، فذهب للنوم.

وجد نفسه وحيداً على حافة نهر من الماء العذب وكان عطشاً فشرب حتى ارتوى، كان الجو ساحراً ظليلاً، وكان جالساً تحت شجرة كمثرى تتدلى حباتها الناضجة، فأكل منها حتى شعر بالانتشاء، رغب بالنوم وكانت زقزقة العصافير تثير في المكان جواً عذباً بث في جسده الخدر، تمدد وفيما يشبه الحلم رأى حواليه أنهار اللبن والعسل والنبيذ، ثم أربع نساء لم ير جمالهن إنسان قط، واحدة شقراء، شعرها ناعم ينسدل على كتفيها وترتدي ثوباً أبيضاً شفافاً، يوحي بكل مفاتنها، وأخرى سمراء ذات عينين ساحرتين، وثالثة ممتلئة بيضاء، لحمها كندف القطن يثير كل أوصاله بالرغبة، ورابعة صغيرة الحجم ناعمة كفراشة. أنهن جميعاً له، أشرب يا علاء ما شئت من لبن وعسل وخمر، وارتو باللذة من أطايب النساء، شرب وشرب ولم يرتو واحتضن الأولى والثانية، ثم الثالثة فالرابعة ولم يصح إلا وقد غاب عن الوعي.

ما أن صاح مؤذن الصلاة، حتى صحا الشيخ، إنتبه إلى آثار الحلم، فخجل من نفسه وذهب إلى الحمام، إغتسل ثم توضأ وصلى. حاول أن يستعيد ليلته فابتهج بما لديه في الجنة، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه يفكر في الجارة أم أحمد ويتساءل: لمن تتبرج هذه المرأة المطلقة؟ تذكر ثوبها الأحمر، تذكر ليلته، أنها الممتلئة البيضاء المثيرة للرغبة، تعاطف

مع وحدتها وحاجتها للرجل.. حاجتها للرجل! لطم رأسه بكفه.. ولكن هل يعقل؟ ولم لا؟ ألست رجلاً؟ هل تراني كذلك، أنا.. ما بي أنا.

إنني بحاجة إلى امرأة كما هي بحاجة إلى رجل، فما الذي يمنع؟ الحلال.. الحرام.. الرغبة.. الدين..

تأخر في ذهابه للجامعة، حتى سمع ضجيج مذياعها، إنها تصحو، ها هي تدخل المرحاض إنها ترتب الفراش، ولا شك أنها بقميص النوم، هل هو الأحمر؟ ثم سمع صوت الباب ينفتح فيخرج الولد إلى المدرسة، إنها تعود لوحدتها.

إعتقد أنه لو بقي في البيت، سيقضي نهاره كله يراقب حركتها اليومية، نهض من فراشه غسل وجهه بالماء والصابون، ثم دعك أسنانه بالفرشاة والمعجون، ثم ارتدى قميصه وبنطاله ورش على وجهه شيئاً من العطر، وخرج. نزل عدة درجات، إنحنى مع انحناءة السلم، فظهرت له مؤخرة ماجدة، وقد تقوّس ظهرها على الدرجات أمام شقتها، التي تقوم بمسحها كالعادة. نزل درجتين إضافيتين، لم تنتبه له وقد تباطأ في سيره، ظهر له الجزء الأعظم من فخذيها، انحنت أكثر فظهر سروالها الداخلي، تنحنح فانتبهت لوجوده، رفعت قامتها وأرادت أن تدخل بيتها، خالها تقول له تفضل، فدخل وراءها.

*****

رسالة من النقب

كانت تجلس وحدها، تفكر في هموم الدنيا، وفيما ستؤول إليه الأحوال بعد الأحداث المتلاحقة، حين قطعت عليها وحدتها دقات الباب، قفزت كغزالة في فورة الصبا إلى الباب الخارجي.

- مين؟

- أنا

لم تعرف صاحب الصوت، ورغم ذلك شعرت باطمئنان ما لصاحبه، وفتحت الباب.

- من أنت يا خالتي؟ الله يخليك لشبابك!

- أنا محمد، من طرف توفيق. إبنك!

وقبل أن يكمل عبارته، همّت باحتضانه، فيما فرّت منها دمعة حارة لم تقو على كتمانها، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة.

تذكرت أنها منذ الصباح قد لاحظت أن عينها «الشمال» لم تتوقف عن الرفيف «اللهم اجعله خيراً» كانت تردد، تمالكت أعصابها...

- تفضل! أأصنع لك شاياً ؟ أخبرني ما هي أخباره؟

وقبل أن تتواصل كزخات المطر أسئلة المرأة، التي هي مثل أمه تماماً، تدخل الشاب واختصر عليها عناء ذلك، فيما دس يده في جيبه، وأخرج منها ورقة مطوية بعناية فائقة وقال لها:

- كل أخباره هنا!

إنسحبت بهدوء بعد أن دست الورقة المطوية بعناية فائقة في صدرها،

وقامت على عجل لإعداد الشاي. وما أن وضعت الإبريق على النار، حتى عادت أدراجها بسرعة.

- إقرأ لي يا حبيبي، إنني غير قادرة على انتظار إخوته حتى يعودوا ويقرأوا لي. تناول الشاب منها الورقة وبدأ في فتح طياتها، بينما قرفصت هي أمامه وتحولت إلى آذان صاغية، فجاءها الصوت من بعيد!

أمي الحبيبة.. إخوتي الأعزاء.

منذ أن تركتكم في ذلك الصباح متوجهاً إلى مجمع الحافلات في ساحة البلدية، كان كل شيء عادياً، وفي الخامسة والنصف صباحاً، زاحمت حتى صعدت إلى «الباص» وجلست في أحد المقاعد. وبعد لحظات قليلة من تحركه باتجاه الخط الأخضر، إنفجر الوضع فجأة فأوقفنا أول حاجز، ثم صعدت مجموعة من الجنود إلى داخل الحافلة، وكانوا مستفزّين جداً، وقد عرفنا بعد ذلك أن أحدهم قام بإلقاء زجاجة على مجموعة من المستوطنين، أصدروا الأوامر فوراً أن ننزل جميعاً عن المقاعد، ونجلس في ممرات الحافلة، ولم أكن محظوظاً حين رفضت ذلك فلم أجد سبباً لأن أجلس على أرضية الحافلة، فيما المقاعد قد خصصت لنجلس عليها. وما زلت حتى هذه اللحظة أشعر بالآلام تجتاح كل أعضائي، حين أتذكر تلك اللحظات، ركلات الأقدام وقبضات الأيدي ومؤخرات البنادق، إنهالت على رأسي وأطرافي وكل أنحاء جسدي، وبعد أن أصبحت كقطعة قماش ملقاة على أرضية الحافلة، قاموا بتغمية عيوننا جميعاً، وتكبيل أطرافنا، وتوجهوا بنا إلى مكان ما، لم يكن على أي حال وجهتنا الأولى إلى ما وراء الخط الأخضر.

ساعات وبدأت حرارة الشمس اللاهبة، تبعث في أجسادنا الحرارة اللافحة، وبدأ العرق يتصبب من كل أجزائنا، فيما رائحته تثير الرغبة بالقيء، بعد ساعات أخرى توقفت الحافلة، ولم نكن على يقين لحظتها أين نحن بالضبط، بقينا أربع ساعات كاملة، فيما نشعر بحركة الجنود هنا وهناك، يتحادثون، يتجادلون.. ثم ترتفع الأصوات، وتتلاحق الخطوات، إلى أن قاموا بإنزالنا جميعاً، وأخذوا يفكّون عصابات عيوننا وقيودنا.

لقد كنا في النقب، أدخلونا واحداً واحداً إلى غرفة الأمانات، حيث يتم إستلام "العهدة "التي هي نحن من قبل إدارة المعتقل، وفي غرفة الأمانات كانوا يأخذون منا حاجياتنا، ويقومون بإعطاء كل واحد منا «منشفة» وكأس ماء بلاستيكي، وفرشة إسفنجية وأربعة «حرامات»، وكانت هذه عهدتنا صيفاً، شتاء لا فرق.

أمي العزيزة...

منذ الأيام الأولى تعرفت على الشباب الذين معي في الخيمة، كل واحد من قرية، لم أفهم أي شيء في البداية، سوى أن أحدهم ألقى زجاجة حارقة، في مكان ما، في تلك الأيام كانوا يطلبوننا للتحقيق الذي يدور حول إسمك، عملك، بلدك، هل تعرف شيئاً عن المقنعين، ماذا تسمع عنهم، من يشارك بالانتفاضة في بلدكم، ويرافق التحقيق ركل وضرب كذلك الذي عرفته في الحافلة، ولا شيء سوى ذلك.

لقد اشتقت إليكم كثيراً، وكم كنت بحاجة إلى أحضانك، وكنت على استعداد لأن أغمض عيني للمرة الأخيرة على صورة وجهك، يوم

ضربتني الشمس حين أخطأ الجندي في «كتسين العد» وبقينا أكثر من ساعتين تحت أشعة الشمس الصحراوية اللاهبة.

أمي.. ما هي أخباركم، من يتولى الصرف عليكم، أنني أحترق حين أفكر بكم. دمعة أخرى حارة انهمرت من عين المرأة التي اعتصرها الألم، الله يجازيهم الخير، كل صباح أفتح باب الدار وأتناول " صرة التموين" التي يضعونها لنا. ولايكون لك أي فكرة، قالت في سرها.

صمت الشاب إحتراماً لدمعتها وإنتباهاً لشرودها، مسحت دموعها

- واصل يا بني. لا عليك مني.

قالت:

- أشعر هنا بأنني أعيش وحيداً داخل حفرة، فالأسلاك الشائكة والكثبان الرملية تحيط بنا من كل اتجاه، ورغم أن المعتقلين هنا بعدد سكان المدينة، إلا أننا لا نرى سوى رفاقنا الذين معنا في الخيمة، والآخرين نراهم في دورات العد، فقط. وسائل الحياة معدومة، لا تلفزيونات ولا شوارع ولا مقاه ولا شيء من هذا القبيل، لكنني أشعر بالفخر يا أمي، فأنا لم أذكر أسم واحد من هؤلاء المقنّعين الذين كنت أراهم يلقون بالحجارة، ويضعون حواجز الكاوتشوك، ويتسلحون بالمقاليع.

أمي.. أرجو أن تحتملي سوء خطي وأخطائي الإملائية المحتملة.. قاطعته مرة أخرى.. هذا يعني.. معقول.. لكن إبني.. الذي لم يدخل مدارس قط.. جاءها صوته من بعيد يحمل الثقة والاعتزاز، لقد تعلمت يا أمي، هل تعرفين الأستاذ حامد؟ أنه معنا، أشياء أخرى تعلمتها، سأخبركم بالكثير حين نلتقي.المهم أن تنسجي قناعاً، وتحضري لي

مقلاعاً.. سأخبركم بالمزيد حين نلتقي.

دمعة أخرى تدحرجت في مقلة الأم، رافقتها بسمة من القلب. ودّعت الشاب بحرارة، ثم توجهت إلى المطبخ، وتناولت على عجل «طشت» الغسيل وخرجت إلى الشارع.

*****

المحبس

ما أن صعدت إلى السيارة بجوار زوجها، حتى أدارت جهاز التسجيل، وأخذت تنصت السمع إلى الموسيقى الهادئة. حتى إذا ما انطلقت السيارة، وقد تركت شباكها المجاور مفتوحاً، تطايرت خصلات شعرها الناعمة مع الهواء، وتساقطت بفوضى مجنونة على وجهها، فزادت انسجامها مع أحلامها، حتى قد بدا لها أنها لم تخرج بعد من أجواء الحفلة التي انتهت للتو.

إنتبه لها الزوج فحاول أن يأخذها إلى أجوائه بحديثٍ ما، لكنها كانت ترد باقتضاب أحياناً، وأحياناً أخرى لا تنتبه إلى سؤاله إلا بعد أن يكرره مرة أخرى. ولأول مرة شعر الزوج بعدم الرضى لحالة الشرود التي تسود مزاج زوجته، ورغبتها الواضحة في الانفراد بنفسها بعيداً، بما يشبه التجاهل لوجوده، الأمر الذي يمس رجولته. لكنه كظم انفعال عدم الرضا، ولم يسمح له بالتصاعد، آملاً أن يستوعب الأمر، حين يصلا إلى البيت، أما هي فما زالت تتذكر تلك اللحظات، بل ما زالت تعيشها، وتتلذذ لذاك الشعور الذي انتابها للحظة بعد أن عاشت سنيناً، إعتقدت خلالها أن مثل ذلك الشعور لن ينتابها أبداً.

كانت فاتن قد دُعيت في تلك الليلة إلى حفلة عيد ميلاد إحدى صديقاتها، وكعادتها لم تشعر وهي تتأبط ذراع زوجها أن شيئاً ما سيحدث في ذلك المساء، سوى أنها ستقضي وقتاً ما، تقتل فيه الفراغ والملل، ثم تعود في آخر الليل ككل مرة، وتندس في فراشها، ثم ما تلبث

أن تغطَّ في النوم. وما أن وصلت المكان حتى استقبلتها صديقتها بالحفاوة التي تليق بمكانة زوجها، الذي ما لبث كعادته أن استأذن منها وأخذ يتنقل بين رجال الأعمال باحثاً عن صفقة ما. وكان أن جلست إلى طاولة تضم لفيفاً من المدعوين وكان بينهم فتى، ما أن رأته حتى اختلج كيانها لوسامته، فأشاحت وجهها عنه، وشاغلت نفسها بمحاولة التعرف على أجواء المكان وعلى عشرات الناس الذين كانوا كعادتهم أيضاً يتبارون في مثل هذه السهرات بأناقتهم وعطورهم وابتسامتهم العريضة، وحتى أحاديثهم التي لا تخرج في الغالب عن إطار المجاملات وعن أصول العمل والأتيكيت.

لحظات وكانت صديقتها المضيفة تقوم بتعريفها إلى الجالسين حولها وبينهم الفتى الذي ما أن سمعت اسمه حتى شعرت أنها تعرفه. ربما أكون قد قرأت عنه في مجلة ما. ربما أكون قد صادفته قبل سنوات في الجامعة.. ربما.. غالبت انفعالاتها وهي تمد يدها لتصافحه، وما أن نظرت إلى عينيه حتى إضطرب كيانها، فشعرت برعب اللحظة التي خشيت طوال سنواتها الماضية، أن تمر بها.

كان فتى رقيقاً وكانت الصدفة قد وضعته على المقعد المقابل لمقعدها تماماً، فكان لا بد من الحديث بينهما، وكان الواجب يفرض عليه أن يجاملها بالحديث، فحدثها عن الفن، وكيف أنه يكون في قمة الاضطراب حين يمسك بالريشة ويبدأ بتلوين اللوحة وانه حين ينتهي منها، إنما يشعر كأنه ملك، إمتلك الدنيا بأسرها، حتى إذا ما انتهى منها، شعر بخيبة أمل كبرى، تلازمه إلى أن يبدأ لوحته التالية وهكذا.

الفن كالسراب هكذا قال لها، لكنه رائع، وكم أتمنى لو أن الناس جميعاً يمارسون الفن.. كانت تستمع إليه بكل جوارحها، فتتخيل أنها تسمع أعذب صوت سمعته في حياتها، فتطرق رأسها، إلى أن بدأت موسيقى الفالس بالعزف، حينها إستأذن ليرافقها بالرقص، كان لا بد لها أن توافق، وما أن لامست يده يدها، واقترب جسدها من جسده، حتى شعرت كأنه القدر يحاصرها، ورأت نفسها وقد عادت بها السنون، وأنها ما زالت فتاة صغيرة تجلس على مقاعد الدراسة، تحلم بفستانها الأبيض، بجوار فتى جميل يشبه هذا الذي يراقصها، يفاتحها بالحب ثم يطلب يدها، فتطير بها الدنيا.

ما زالت الموسيقى تنساب هادئة، وما زال الهواء الربيعي البارد يطير بخصلات شعرها، ويلامس وجنتيها الحمراوين لارتفاع حرارتهما من الانفعال والخجل، ما زال الفتى الوسيم بحديثه العذب عن الفن والحب، يمسك بيدها ويقترب منها، وما زال الاضطراب يجتاح كيانها مع ملمسه، مع لهاثه، مع حديثه العذب، مع طلبه ليدها! فجأة يضغط زوجها على الفرامل، فتتوقف السيارة، يطفيء المحرك، فتهدأ الموسيقى وتتهدل خصلات شعرها على وجهها.

ينزل، ثم يدور من أمام السيارة، ويفتح لها الباب، تخرج وتتجه وهي مطرقة، إلى داخل البيت، تبدأ بخلع ثيابها وارتداء ملابس النوم، ثم تندس في الفراش، لكنها تفاجأ بزوجها، ينحني على جبينها ويطبع قبلة باردة، تلقتها ببرود، همّت أن تنام لكنه ما لبث أن مدَ يده، وأخرج من جيبه علبة مغلفّة بورق الحرير، ثم قال:

- حبيبتي، أغمضي عينيك.

فعلـت.

- إفتحيهما.

- فعلت.

كان خاتما ألماسياً غالي الثمن.

- ما رأيك ؟

- جميل ولكن، ما المناسبة ؟

- صفقة مهمة نجحت بعقدها الليلة.

- مبروك.

ثم همَت بالنوم، آملة أن تحلم بالفتى الذي طالما طاف بخيال مراهقتها. ولم تره سوى هذه الليلة، إندس إلى جوارها، واحتضنها بعد أن التصق بها، تمنّعت، لكن يده اليسرى امتدت إلى فخذها، فيما كانت الأخرى تتناول خاتم الألماس لتضعه جانباً، شعرت بالإحباط وبالرغبة في أن تصرخ وأن تقول لا، لكن اليد ضغطت بشدّه على فخذها، فأبعدتها بهلع، وما أن رأت المحبس حتى صرخت دون أن تقوى على كتمان الصرخة هذه المرة، فقد تذكرت تلك اليد بمحبسها وقد إمتدت يوما، إلى ما تحت فستانها، فيما كانت اليد الأخرى تتقدم لها بمصاصة الحلوى، ولم يكن لها من العمر حينها سوى خمس سنين.

*****

ليس غير الظل

- موافقة.

قالتها بانكسار، ثم احتضنت الطفلين المتجمدين في مكانهما، تناولت جواز سفرها وتذكرة الطائرة من ذلك الرجل الذي باعد اليمين بينها وبين جسده القميء، الذي كان يسحق رغباتها كل ليلة، حملت «صرة» ملابسها وخرجت إلى الشارع، حيث لوحت لأول مركبة صادفتها.

إنحدرت دمعة حارّة على خدها، لسعتها حرارتها، مسحتها بكمها، إنتبهت إلى أن الماكياج قد لوّث يدها، فتحت حقيبتها، أخرجت منها مرآة صغيرة، إحتفظت بها منذ فترة، تبينت المدى الذي فرّت فيه أنوثتها، هالتها التجاعيد التي سابقت الزمن في الغربة.

بعد قليل أصل إلى تلك البقعة التي غادرتها قبل عشرة أعوام، أعود من حيث بدأت، لكن دونما زهرة الصبا. عشرة أعوام فرّت من بين أصابعي، كما تفر قطرات الماء، كان يمكن لي أن أتمتع.. أن أعيش زماني الذي لا يتكرر. تأبطت ذراع حبيبها الذي اصطادته بعد طول عناء، بعد أن دست في حقيبة ملابسها كل مكنونات طفولتها، وورومانسيات مراهقتها، كل ما لديها من زجاجات العطر، وكل الأحلام التي إدخرتها رصيداً لمواجهة تقلبات المستقبل الذي بدأ يفتح ذراعيه لها.

كانت قبلة تاريخية تلك التي ابتدأ علاقته بها، بعد أن بنت في رأسه صرحاً من الأوهام حول خطتها في ترتيب علاقة له مع أختها رائعة الجمال، كما تبدو في الصورة، أقنعته بكتابة رسالة لها.

ما أن يكونوا قد استلموا برقيتي، حتى بدأوا يعدون الأيام.. ساعات وأكون في أحضان ذلك العجوز، لا بد أن تكون ساقاه قد ارتختا قليلاً، ويكون الشيب قد غطى حاجبيه.. حماده سأغرقه تقبيلا، هذا الصغير الذي لا بد أن يكون قد شبّ، ولابد أن تكون، قد غطّت شفته العليا شعيرات الرجولة. أيكون حليقاً، أم ملتحيا كشبان هذه الأيام؟ كان الرد الذي ما جاء أبدا، مبررا لأن تزوره كل فترة، فتحدثه بحرارة حول مفهومها عن الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة، يا له من رجل، عشرة أعوام، وتكاد تعد على أصابعها مجموع الدقائق التي كان يتحدث فيها حول مفهومه عن الوظيفة الأزلية للمرأة في الإنجاب والطبخ وتوفير مستلزمات الراحة لزوجها.

كان رجلاً سمجاً، معتداً بنفسه، يشرئب كبرياؤه، عن جذر بئر النفط الذي يملكه والده، وقد أضاف إلى ذلك رصيد الثرثرة الذي تعلمه من جلساء المراهقة الثورية، تعرف إليها فيما كان يعود أباها في المستشفى القريب من بيته، مع مجموعة من الرفاق الذين يتزعمهم هذا الوالد المغفل.

كانت شلّة عائلية، وكانت «عنايات» مخطوبة لفتى معثر الحال -على قدّها- لم تشدّه بجمالها المتواضع في البداية، لكنها تتمتع بشخصية قوية وجريئة، تثير الحرارة في ذلك الجمع. عرفت قدماه باب بيتهم وكل تفاصيله، وتذوقت شهيته المتواضعة طعم فولهم وجبنتهم وطعامهم الخالي من اللحوم، وكانت هي ربة البيت التي تقوم بإعداد الطعام دائماً.

كل مساء يتجمع الحشد، للتداول في أمور الساعة، ساعات طويلة من

إنتاج المقولات والتحليل السياسي، الذي يغرق في تفصيل التوقعات حسب أهوائهم.

تذوق إبن الصحراء، للمرة الأولى طعم الرحلات الجميلة، التي تشارك فيها نسوة من خارج إطار المحرمات، وتشنّفت أذناه بضحكاتهم الأنثوية الطازجة.

طلب الصغار من والدهم أن يذهب بهم إلى حديقة الحيوانات، ذهبوا جميعاً يوم جمعة ما، ومعهم الزوادة التي قامت هي بإعدادها. كان من السهل عليه أن يتخلص من ذلك الذئب الكامن في داخله، لكن كبرياءه السمجة كانت تترفع عن العاديات، وتتطلع إلى شبيهات ميرفت أمين، فكان يرى نفسه المفترضة التي رسمها خياله بكثير من المبالغة غير الواقعية.

في ذلك المساء جاءت إلى بيتهما، كما تعودت دائماً، حيث يلتقي الجميع، لم يكن سواه ورفيقه الذي أغلق باب غرفته يرتشف شيئاً من المتعة مع صديقته، جلس وإياها يتحدثان، فيما الجلبة من الغرفة المجاورة تثير في كليهما توتر الرغبة، كعادتها ساقت إليه قليلاً من أنوثتها، داعبها، فوجيء باستسلامها، فغرقا في قبلة تاريخية.

في المساء عصرت كل لباقتها، فاتحت زوجها برغبتها في زيارة أهلها، فكر قليلاً وبعد أن قام بحسبته، رفض بشدة، بلعت جراحها، وانكمشت في الفراش، حلمت بأمها، وقد لفظت أنفاسها، هجمت عليها، راعها أن تجدها جثة هامدة.. صرخت:

- اللهم اجعله خيراً.

عاودت إلحاحها على زوجها، ثار، إحتد الجدل بينهما، صفعها بقسوة.

فتحت تلك القبلة الباب لعلاقة ملتهبة بينهما، عاشا خلالها كعصفورين عاريين، يدفئ أحدهما الآخر. ولم يفهم كلاهما ما حدث، ولم يحاولا أن يفسرا ما حدث.

كان يعتقد أن الأمر سيتوقف بعد مرور الأسبوعين اللذين يفصلانه عن موعد السفر، عند ذلك الحد، لكنه علم فيما بعد أنها طلبت من أهلها أن تسافر معه، لتعمل، وافق والدها طالما أنها ستكون في حماية هذا الرجل الذي يثق به! حين التقاها في مكتب الشركة التي تعمل فيها، لم تعرف السبب الذي دفعها لإخفاء إصبعها الذي يحمل خاتم الزواج، ولم يكن لدى الرجل ما يغري امرأة في أن تحلم به زوجاً، كان شاحباً، قبيح الوجه، قصير القامة، موظفاً صغيراً في الشركة المجاورة، لكنه رغم ذلك سمح لنفسه بالتودد إليها. لم تصدّه، فهي بحاجة لأن تتلمس مكامن كبريائها التي سفحتها على هضبة ذلك الرجل/الحلم، الذي تمنّع عليها، رغم أنه يطوقها كل ليلة بذراعيه الأنانيتين.

التقاها يوماً وهي خارجة في طريق عودتها، دعاها لتناول طعام العشاء، وافقت، دخل في الموضوع، طلب يدها، فطلبت منه وقتاً للتفكير:

- يجب أن نعلن زواجنا.

فوجيء بها، وكانا قد اتفقا انهما يلتقيان جسدياً، طالما هما يرغبان في ذلك، كان صريحاً معها منذ البداية، فقال لها أنه لا يرى فيها زوجة المستقبل، لكنه يعتقد أن من حقهما أن يمارسا الرغبة طالما هما يودان ذلك، وفي الوقت الذي تتوقف فيه الرغبة الثنائية، يصيران حينها

محرمين على بعضهما، وافقت وكانت تمارس معه سياسة التوريط والأمر الواقع، لم يعلن زواجه منها لأنه لم يعتقد أنه تزوجها، وإنما شرّع لها ذلك المستوى من العلاقة.

كان أهله يوجسون أن يكون ما بينه وبينها شيء أكبر من علاقة عابرة، يفسد عليهم مخططاتهم في تزويجه امرأة تليق بمستواهم، فيما لم يكن هو مقتنعاً سوى بامرأة من عالم الأحلام يعيش وإياها علاقة خاصة، يختارها بنفسه، لكنه لم يلتقيها بعد، إنها على كل حال ليست عنايات، هذه المرأة المندلقة عليه اندلاقاً رخيصاً، لا يغري من هم مثله.

- هل فكرت يا حبيبتي؟

وشعر بنشوة تجتاح كيانه، فهو كثيراً ما خاطبها تلك الأنثى، التي تتراءى له أطيافها تدغدغ الخيال، ولا تمس البشرة المتيبسة، لكنها المرة الأولى التي لا يتلفت حوله خشية أن يسمعه أحد فيتهمه بالخبل.

- ليس بعد!

- متى إذاً؟

سألها.

- بعد يومين

أجابته.

قنع بالإجابة وبات ينتظر على أحر من الجمر موافقتها.

تناولها كعادته، تمنّعت، دهش لتمردها، فاقتنع بأنها جادة في مسعاها.

- حسن لكن بشرط.

- ما هو؟

- أن تقيمي مع أهلي.

كان عاطلاً عن العمل، وهي التي تتكفل بأجرة البيت، ومصروفاته.

- إذاً لا بد من الافتراق.

- موافق.

- أريد المؤخر.

- ومن أين آتيك به؟

- من أهلك. أليسوا أثرياء؟

- اذهبي واطلبيه منهم!

لم تكن المساومة بينهما لتنتهي بأن تحصل على شيء من المال، فذهبا في الصباح إلى المحكمة ووقّعا صك الطلاق.

عشر سنين وتضطر كل ليلة إلى احتمال تلك الطقوس، التي ما كانت في صباها تعتقد أبداً أن تكون بمثل هذه القسوة! لقد ملّت أنفاسه النتنة وملامحه المزعجة، ملّت خشونته المرعبة، ملّت رائحة الطعام وجدران البيت المزنرة بالقضبان، نقيق حماتها، وأوامر كل أهل البيت، ملّت رؤية روائح البراز الملتصق بملابس الصغار والكبار الداخلية.

ملّت رؤية كل مشتقات النفط، ملّت الرطوبة، ملّت النظرات الساذجة المتكبرة. ملّت كل شيء حولها. وكل ليلة كان يأتيها طيف أمها، تضعها في حضنها، فتبكي ما شاء لها البكاء. في الصباح تشعر براحة مفاجئة، فتواصل حياتها كالمعتاد.

في ذلك الصباح، فيما كان يهمُّ بذهابه المعتاد إلى عمله، وقفت في طريقه!

- أريد الطلاق!

- يمكنني أن أوافق، لكن بشرط!

- ما هو؟

- أن تعودي بصرّتك. بصرّتك فقط.

- وأولادي؟

- إنهم لي.

لم تجب لدهشتها. فيما ألقى عليها يمينه وخرج.

ما أن حطت الطائرة، حتى ركضت بكل قواها، لتحضن أباها وأخوتها.

- ربما لم تصلهم برقيتي؟

تذكرت أمها:

- ظلُّ رجل ولا ظلُّ حائط!

لماذا ليس غير الظل؟ لماذا؟ لماذا؟

احتضنتهما بكل مشاعر الدنيا. إنهما قطعة من لحمي وأعصابي، لكنهما كانا كخشبتين غريبتين، يتطلعان بتقزز نحوها، ثم تملصا هاربين إلى ذاك الرجل الذي باعد اليمين بينها وبين جسده.

*****

رسائل إلى مجهول

(١)

لم تسعها الدنيا من الفرحة حين طلبت منها أمها أن تقوم بإعداد القهوة للضيوف فتوجهت للمطبخ وشرعت بإعدادها وقد اعتصرت كل خبرتها. ولقّمت الإناء بنصف ما لديهم من حّب الهال، غسلت الفناجين جيدا وفركتها بأصابعها ثم جففتها، تحسست إحداها بشهوة، خجلت من نفسها، ثم مسحت ما اندلق من القهوة على الصينية التي حملتها وتوجهت بها إلى الصالة، تذكرت شيئاً فوضعتها على المنضدة في الممر بين الغرف ثم ذهبت إلى المرآة ونظرت إلى نفسها وكأنها لا تعرف شكلها، لم يظهر لها سوى وجهها المدور، إبتسمت قليلا، ثم عادت وبلطف شديد حملت الصينية بأطراف أصابعها، وتوجهت إلى حيث الضيوف ينتظرون طلّتها.

ألقت التحية بخجل، وسرقت من الزمن لحظة، نظرت فيها إليه حيث يجلس بجوار أمه.

- يسعد مساكي يا حبيبتي، ما شاء الله، قمر في ليلة ١٤. دارت عليهم بالقهوة ثم جلست بجوار أمها، وبعهد قليل استأذنت.

شربت أم محمود القهوة مع جارتها، ثم انصرفت وابنها، بعد أن اتفقت الجارتان، على الالتقاء بعد أسبوع، تتشاور فيه العائلتان بالأمر.

لم تنم تلك الليلة، فأخذت تتخيل ملامح الفتى الذي صار شاباً، لم يتغير باستثناء ذلك الشارب، الذي تلوّنت به شفته العليا، فما زال هو

محمود ابن الحارة الذي قذف يوماً بكرة القماش التي صدمتها بقوة دلّت على فتّوته، ولم يعتذر يومها، بل رمقها بنظره حقد وكأنها كانت السبب الذي منعه من تسجيل هدف كروي في مرمى الخصم، رفع يده وكاد أن يهوي بها على وجهها، تحسست وجنتها وكانت قد احمرت، ضمت أطرافها وانكمشت، وتخيلت كم من الأهداف سيسجل الآن في مرماها، طردت الفكرة من رأسها وحاولت أن تنام، ولكن هيهات! إنها المرة الأولى التي تحلم فيها بشاب محدد، كانت دائماً ومنذ أن أصبحت في الصف السابع، تنتبه للجنس الآخر، فترى فارساً في منامها، يحملها على ذراعيه ويطير بها إلى جنة خضراء، يتوسطها عرش مرصع بالذهب، فيجلسها ويضع على رأسها إكليلا ملكياً، ثم يركع على ركبتيه أمامها. أيامها كانت تستعيذ بالله من الخيالات المبكرة، وتحصر نفسها بكراريسها وكتبها المدرسية، سنوات عديدة قضتها من البيت إلى المدرسة ومن المدرسة إلى البيت، تسير ولا تنظر إلا أمامها، حتى حفظت شكل الطريق، وأيقنت أنه بات باستطاعتها أن تعود إلى البيت بعد انتهاء الحصة السادسة مغمضة العينين، وما أن تصل حتى تضع حقيبتها وتقوم بتغيير ملابسها ثم تذهب إلى المطبخ، تساعد في إعداد الطعام وتدريب نفسها لمهمتها الأزلية كربة بيت، بعد الغداء، تنظيف الأواني، وفي المساء تنكمش مع أخواتها في الركن البعيد لمشاهدة مسلسل السهرة، وهو الفقرة التلفزيونية الوحيدة المسموح بها لهن، وحين تكون قصة عن الحب، تتطلع إليها العيون الحادة، ويطلب منها أحدهم أن تأتي إليه بشربة ماء أو بأي شيء ما، تفهم السبب الحقيقي، لكنها تذهب بهدوء وانكسار.

تذكرت يوماً كانت فيه المدرسة تحتفل بمناسبة من تلك المناسبات الكثيرة، التي يسمونها وطنية، وقد تأخرت عن موعد عودتها إلى البيت، فقامت الدنيا ولم تقعد عليها، وأصابتها النظرات المتهمة في أعمق أعماقها، ولم يهدأ أصحاب الشرف الرفيع من ذكور البيت، إلا بعد أن خرجوا وتقصّوا عن حقيقة الأمر، فتأففوا وكأنها هي التي فجرت تلك المناسبة قبل عشرين سنة! كل يوم يمر وهي تراقب نمو جسدها، وتحاول أن تخفي ملامح ذلك النمو، تقترب منها الأنوثة، فيزداد الحصار من حولها، تحسب عليها أنفاسها، خطواتها، كلماتها. البنت هم منذ أن تولد إلى أن تموت، هكذا تردد أمها دائماً، وكأنها ليست امرأة وتضيف:

أما الولد فأينما يذهب فلا خوف عليه.

تمنّت من أعماقها أن تلبس سروالا كذاك «الجينز» الذي ارتداه أخوها يوما، فنظرت إلى ردائها الفضفاض، هكذا أفضل، انه يخفي كل علامات الأنوثة، لا صدر، لا أرداف، لا سيقان ولا يحزنون.

لم تقو على مفاتحة أحد، بخصوص تلك الشكوى التي طرحتها عليها زميلتها عزيزة حول مضايقة أخيها خالد لها، فهي كلما خرجت من المدرسة وجدته في انتظارها، يلاحقها إلى أن تقترب من البيت، هكذا كل يوم، إلى أن تجرأ يوما ودسّ في جيبها ورقة كتب فيها عبارات غرامية كتلك التي نسمع عنها في الروايات والأفلام. يومها عادت إلى البيت، وقامت بقراءة كل الرسائل التي كتبتها على مدار سنوات إلى مجهول، ثم دسّتها بسرية بالغة بين حاجياتها الخاصة، وها هي الآن تفكر بأن تهديها إلى محمود في يوم الزفاف.

ما أن نظرت إلى المرآة حتى هالها ما رأت، بعد قليل شعرت بالاعتزاز وقد ظنت نفسها ميرفت أمين، وليست رضية عبد القنوع، إنها المرة الأولى التي ترى فيها وجهها بكل تلك الألوان، التي جعلت منه شيئاً خيالياً، وترى جسدها في ذلك الثوب الملوكي الفاخر الذي يبرز شيئاً من تلك الكنوز التي أخفتها حتى عن نفسها سنوات طويلة. مشاعر وأفكار وخيالات عديدة تشابكت، إلا أنها حددت لها شعوراً واحداً، إعتقدت أنها ستتذكره طوال حياتها، وهو أنها ولدت لتوّها، أصبحت امرأة حرة، تمتلك نفسها، مشاعرها رغباتها، بيتها، رجلها، وأشياء أخرى لم تعرفها من قبل.

ها هو العرش الذي حلمت به طويلا والإكليل الذي شعرت بكبرياء أنها تستحقه، تراه على رأسها حقيقة هذه المرة، سمعت أكثر من همسة من أكثر من فم لأكثر من أذن، تقول أنه لو تم عقد مسابقة لاختيار أجمل عروس، لكانت ملكة العرائس، سرقت نظرة أخرى للذي يجلس بجوارها فانطبعت في ذاكرتها صورة شفتيه وهو يزمهما بنهم، إرتفعت لها الحرارة بداخلها، فيما الضجيج والهلع ينهكان قواها، فترغب بالنوم العميق.

بعد ساعات أعلن عن انتهاء الحفل، فسارت برفقته إلى حيث فض بكارتها بقسوة، وخرج إلى أفراد العائلتين بمنديل الشرف، شعرت لحظتها بالقرف وتخيلت نفسها شاة تم ذبحها في التو، فيما الأكف تطبع بصامتها الدموية على واجهات البيت، همّت بمناولته مجموعة الرسائل التي حفظتها وكانت تعتبرها جزءاً من ذاتها، ترددت، ثم سرعان ما غطّ في النوم.

في الصباح نهضت مبكرة، وقامت بتسخين الماء له ليغتسل، وبعد قليل جاءت أمها بطعام خاص، تناول معظمه، بينما مضغت هي شيئاً من اللحم، خالته اقتطع من لحمها، فلم تقو على بلعه، ربما تعودت على تناول الفول على مائدة الإفطار ربما. ما هي إلاّ أيام حتى صارت حياتها معه رتيبة مملة، يخرج في الصباح ويعود على موعد الغداء حيث يتناوله بسرعة ثم يعود إلى العمل، وحين يرجع في المساء، تكون هي قد داخت من خدمة البيت.

بعد أسابيع، عرف أصدقاؤه باب بيته، فأخذوا يسهرون بصحبة ورق اللعب، فيما تقوم هي على خدمتهم بإعداد الشاي والقهوة، وحين يأويان إلى الفراش،يقوم بإفراغ غريزته فيها ثم ينام.

حاولت أكثر من مرة أن تلفت انتباهه بقميص نومها الذي يبرز مفاتنها، وببعض المساحيق التي تزيد من جاذبيتها، لكنه لم يكن بحاجة إلى كل تلك الأشياء، وكان كل مرة يقوم بمهمته، دون أن ينزع ثيابها، فيبصق ما بداخله بين ساقيها، ثم يغط في النوم العميق.

(٢)

كان من عادته أن يصحو مبكراً، فيجلس على أريكة في الصالة التي تنتهي بباب الشقة، يبدأ بفنجان من القهوة مع سيجارة يمجُّ دخانها، بينما يمدد ساقيه على الطاولة التي أمامه، ويفتح باب شقته وكأنه يفتح طاقة الفرج، يواجه يومه منذ الصباح براحة بال واستبشار.

يلقي جاره عليه التحية، حين يخرج من شقته المقابلة متجهاً إلى عمله، بينما زوجته تتلصص من انفراج الباب من خلف كتف زوجها.

تأخر يوماً في الصحو ولكنه كعادته فتح باب شقته وبدأ بارتشاف قهوته، وإذ بجارته تلقي عليه التحية.

- صباح النور تفضلي.

بعفوية واعتيادية ميكانيكية خرجت الكلمة من بين شفتيه. تلفتت المرأة يميناً، يساراً، فوق وتطلعت في الممر وبسرعة دخلت وأخذت الباب بيدها. نزعت قفازاتها، ثم الحجاب عن وجهها، هاله جمال عينيها وملاحة محياها، خلعت الجلباب، ثم رداءها الداخلي فيما فغر فاهه مندهشاً مما يرى، لم تتفوه بأية كلمة، وفي لحظات كانت أمامه، تلقي بحمالة صدرها في وجهه ثم تهجم عليه، حيث تمّ كل شيء بصخب على الأريكة.

أفرغت شهوتها، وشعرت براحة بال لم تشعرها من قبل، إنه الرجل الأول في حياتها، بل إنها الممارسة الأولى التي تقوم بها. تأمل بياض جسدها، قوامها، نهديها، أردافها، كم هو جميل هذا الجلباب الذي يحافظ على بياض البشرة، إنه أول من رأى هذا الجمال وهذا البياض وهذه البشرة:

- لم فعلتِ هذا؟

- لم أدر لكنني بحاجة إلى رجل أمارس معه رغبتي.

لم ير فيها سوى امرأة انتقمت من نفسها وقررت أخيراً أن تفعل شيئاً لذاتها، أما هي فقد عادت إلى البيت وشعور بالاعتداد بالنفس ينتابها، خلعت جلبابها، ثم ثوبها، تأملت جسدها الممتلىء في المرآة، تحسست أعضاءها التي ما زالت بكرا، تذكرت رسائلها، فتحت الصندوق ومدت

يدها إلى ما بداخله، فكرت بأمر ما، لكنها سرعان ما تراجعت عن فكرتها، أقفلت الصندوق ثانية، وسرحت بخيالها في الأفق البعيد فرأته يمتطي صهوة جواده الأشهب، ثابتا في مكانه، لا يأبه بها، حزّت في نفسها لامبالاته، فاغرورقت عيناها بالدموع.

*****

زينب

تتأمل صدرها فيما قطرات الماء الفاتر، تتناثر عنه فتحدث فيه دفئاً ثم تتساقط فتتوزع في أرجاء المكان، ترفع عن جبينها خصلات الشعر المبتلّة التي سقطت أمام عينيها فحجبت عنهما الرؤية، تدقق في الزوايا، الشقوق، تتأكد للمرة العاشرة من أن الباب محكم الإقفال. «ها قد شارفت على إغلاق عقدي الثاني، ولم تمسّكما سوى حمالة الصدر وأصابعي كلما خلعت ثيابي» تداعبهما بهدوء فتشعر بشيء من اللذة وتمني النفس باليوم الذي تتزوج فيه بعد أن تتخرج وتنتظر عاماً أو اثنين تكون قد ساعدت أهلها خلالهما، حتى يتخرج أخوها الأصغر ويتوظف ويحمل على كاهله أعباء إعالة الأسرة من بعدها، وإلى أن يحين ذاك اليوم فكل شيء مؤجل، على الجسد أن يصمت، وعلى القلب أن يقفل بابه، وان يلقي بمفتاحه في البحر.

بعد أن قامت بتجفيف الجسد الأبيض، شرعت بارتداء ثيابها قطعة قطعة، وفي كل مرة تلقي بتنهيدة عميقة، كما لو أنها تتعجل الأيام التي لم تبدأ بعد. تقف أمام المرآة تتأمل عينيها وسوادهما الأكحل، تنفرج أساريرها، فهي فتاة مليحة تمتلك جمالاً طبيعياً لا تقلق صاحبته على مستقبلها في الحصول على عريس مناسب. تجفف شعرها ولا تضع شيئاً من الزينة على وجهها، ثم تتوجه إلى صالة الجلوس، حيث يتحلق أفراد الأسرة، يتابعون بشغف أحداث الحلقة الثالثة عشرة من المسلسل اليومي، تشاهد معهم بقليل من الاهتمام، وما أن ينتهي المسلسل حتى

يبدأ الصغار في النوم، أما هي فتضطجع على الأريكة الجماعية في صدر الصالة، تنتظر أن يحين موعد الفيلم العربي -أبي فوق الشجرة- إنها بحاجة إلى المتعة بعد أن حرمت نفسها من مشاهدة التلفزيون طوال شهور كانت تستعد خلالها لامتحانات الثانوية العامة.

تتابع بكل جوارحها مشاهد الفيلم، مشهداً مشهداً، ومع كل قبلة كان كيانها يهتز من أعماقه، أما وجهها فقد كان يحمّر خجلاً لجرأة البطلين، ودون إرادة منها، تتلفت حولها خشية أن يراها أحد، وحين تتأكد من أن الجميع قد غطّوا في النوم، تعود لعبد الحليم فتندمج معه في الدور!

في الصباح تنهض بهمة واضحة، تغسل وجهها وترتدي أجمل ثيابها، تتأمل في المرآة: عينها، خدودها، شعرها، تهمُ بوضع شيء من أحمر الشفاه على ثغرها لكنها لا تفعل، تمشط شعرها، ثم تفرك بيديها خديها، ثم تلبس جلبابها وتلف المنديل على رأسها، فتخفي كل سواد شعرها، ثم تتناول حقيبتها وتخرج.

بعد قليل يمر بجوارها شاب، يحملق في عينيها، فتخفضهما خجلا، ثم آخر يطيّر لها كلمة إطراء، تحفظها في صمت وتواصل سيرها. تنتظر قليلا حتى يجيء الباص، تصعد وتضع التذكرة في الآلة المخصصة، تجاهد بين الأجساد المتراصة حتى تجد مكاناً لقدميها، تتأفف:

- أليس حراماً مثل هذا الاحتكاك الذي يثير في دواخلنا الغريزة؟

النظرات تنهال عليها من كل صوب، تتفرسها، تُعرّيها.

- الماسك على دينه كالقابض على الجمر!

بعد طول مشقة وعناء تصل إلى مقر الجامعة، تبرز بطاقتها على

الباب وتدخل بقدمها اليمين وهي تتمتم ما تيسر لها من آيات الذكر الحكيم، ثم تتوجه رأسا إلى جدول المحاضرات الخاص بالسنة الأولى، فتكتشف أن لديها محاضرة بعد نصف ساعة، تتعرف على الأروقة بين المدرجات، وبعد ربع ساعة كانت في المدرج الرابع تنتظر. حفظت كل كلمة قالها الدكتور عن ظهر قلب وبعد أن ينتهي، يخرج الطلبة فتكون آخر من يخرج منهم، توزعوا، فتسير على غير هدى، إلى أن يدفعها الفضول ومحاكاة عدد منهم إلى الكافيتريا.

عشرات من الطاولات توزعت في أرجاء المكان دونما ترتيب، تحلقت حول كل واحدة منها عدة كراسٍ، جلس عليها طلاب وطالبات احتد النقاش بينهم، شاي ودخان وضجيج شعرت كأنها في خلية نحل. ذهبت إلى الصندوق حيث دفعت ليره مقابل قطعة زرقاء من البلاستيك، حملتها إلى الزاوية حيث إناء نحاسي كبير يمتليء ماءً دائم الغليان، يرقد على نار دائمة الاشتعال، ناولت القطعة البلاستيكية إلى «الجرسون» فأعطاها مقابلها كأسا من الشاي، حملتها وذهبت إلى حيث طاولة ترقد منفردة في ركن ناء لا يجلس إليها أحد، سحبت كرسيا وجلست عليه وبدأت ترتشف ما في الكأس بحياء.

كان مع مجموعة من أصدقائه حادا في النقاش، إلى أن بدأ يشعر بالصداع لكثرة ما حرق من السجائر، وما طرح من أفكار لم يسمع، ولم يرد أن يسمع ما يدحضها، توقف كمحارب يريد قسطا من الراحة، يلم خلاله، ما تبعثر وما شرد من أفكاره، ثم أخذ يجول ببصره أرجاء الصالة، فيرى الشفاه جميعاً تتحرك والأوداج تنتفخ، كأنها في سوق

عكاظ، رآها منزوية في الزاوية تجالس وحدتها، فتاة بكرا يلفّها الحياء، أثارت فضوله فتأملها طويلا عن بعد حتى حفظ شكلها ودون أن تنتبه إليه، سار وراءها بعد أن خرجت من الكافيتريا.

توجهت إلى المدرج الرابع حيث المحاضرة الثانية والأخيرة لهذا اليوم، فعرف سنتها وقسمها.

في اليوم التالي وفي تمام الساعة العاشرة صباحاً، تبدأ محاضرتها الأولى، فيتوجه إلى المدرج الرابع وما أن يدخل حتى يبدأ بتفحص الوجوه، فيراها في زاوية بعيدة تنكمش على نفسها، يتجه إليها ويجلس بجوارها:

- صباح الخير.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

لم يعجبه الرد، لكنه كتم في نفسه، وانتظرحتىانتهت المحاضرة.

- كيف وجدت الجامعة؟

- لا بأس.

- والتجارة؟

معقولة.

- لقد كتبت كل ما قاله الدكتور، أما أنا فقد كنت مشغول الفكر، هل يمكنني أن أستعير كراستك لأنقل منها محاضرة اليوم.

- تفضل.

- اسمي منصور.

- أنا زينب.

- نلتقي غداً.

توالت الأيام ولم يستطع منصور أن يتقدم منها أكثر من ذلك، حتى بدأ اليأس يتسرب إلى نفسه، وقد اشتهى منذ اللحظة الأولى التي رآها فيها هذا الجمال البكر إلى أن خطرت بباله فكرة:

- زينب أنت بحاجة إلى شرح في مادة الرياضيات؟

- أعتقد ذلك.

- يمكنني أن أساعدك.

وبدأ العلاقة معها، بعد كل محاضرة يجلس وإياها على مقعد من الرخام من تلك المقاعد التي توزعت في أرجاء الحرم الجامعي، وهكذا بدأت في أعماق نفسها، تقدر له ما يفعله من أجلها، وتحترمه أشد الاحترام، وتعجب بنباهته العلمية، ولم تدر أنه في السنة الرابعة! واستمر هكذا إلى أن اقترب موعد الامتحانات:

- منصور، ضروري أن ألقاك اليوم، فغداً امتحان الرياضيات.

- لكنني متوعك قليلا ومضطر للذهاب إلى البيت.

- والحل؟

- يمكنني أن أعزمك على كأس شاي.

وافقت فوصف لها البيت الذي يقيم فيه، وهو ليس بعيدا عن مقر الجامعة.

ما أن أنهت محاضراتها وقد تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر، حتى توجهت إلى حيث وصف لها شقته وطرقت الباب. رحب بها، ثم فطن إلى أنه من الضروري أن يسعل، ففعل، ثم استأذن لإعداد الشاي، الذي أخذا

يشربانه مع شيء من الحديث:

- أنا من الجنوب من أسرة محافظة، يزيد عدد أفرادها على عشرة أفراد، وأنا أكبر أخوتي، تنتظر العائلة تخرجي بفارغ الصبر.

- أما أنا فمغترب، لا أظن أنني سأعود لأهلي، فقد اخترت طريقاً آخر، ليس مهما أن أتخرج، ربما كان أهلي بحاجة لي، ما رأيك بشيء من الطعام؟ لم ينتظر جوابها، نهض متثاقلا، وذهب إلى المطبخ.

تفرست أرجاء الغرفة الوحيدة التي يقيم بها منصور، لفتت انتباهها الفوضى، التي تسود المكان، الكتب المتناثرة، إنها من غير المقرر علينا في الجامعة، أدب، سياسة، إقتصاد، إنه مثقف، بيجامته، جواربه الملقاة على أريكة قديمة، تبعث رائحة تدفع القيء إلى خارج الفم، لون الوسائد وغطاء السرير وقد صارت بلون الأرض. سمعته يقوم بتنظيف بعض الأواني. بعد لحظات جاء منصور بالطعام، بيض مقلي، صحن مليء بالزيتون الأخضر، وآخر بالجبن، لبنة، مارتديلا، زعتر، زيت مع قليل من الخضار، بندورة، خيار، ويسكي.

- ما هذا؟

- إن كنت لا ترغبين فلا بأس، انه لي!

جلس بجوارها، بدأ في تناول الطعام، ومع كل لقمة يقترب منها، فتبتعد، سكب لنفسه كأسا وأخذ يرتشف منها، فيشتعل داخله، كأس آخر، حاول أن يقبلها، ارتعدت فرائصها واستهجنت لكنها لم تأخذ موقفاً منه:

- لقد بدأ وعيه يغادره وهذه ليست طبيعته.

أقنعت نفسها بذلك.

كأس ثالثة، رأسه تدور وتحلق به في خيالات أحالت واقعه إلى حلم، فها هو والفتاة التي اشتهاها طوال العام، يختليان في شقته. طوّقها بذراعيه، قبّلها، تملّصت منه، لكن حلاوة الشفاه الطرية، إختلطت بحرارة الشراب فصار أشبه بمجنون امتلك كل جرأة الدنيا وكل الإصرار الذي يحتاجه لإكمال مشواره الذي بدأه منذ عام. دلق كل ما تبقى من زجاجة الويسكي في جوفه الملتهب، إشتدت حرارة الأعصاب واختلطت بجنة الخيال، أما هي فلم تستطع أن تهرب من ملاحقة لهاث أنفاسه الشبقة. قبّلها مرة أخرى، سمعت صوت عبد الحليم حافظ يغني في المذياع، فعادت مشاهد الفيلم إلى خيالها. زادها الدلال اشتهاء في نفسه فلم يتمالكها وهجم عليها كنسر انقضّ على الفريسة طرية اللحم، وحملها بين ذراعيه ثم ألقى بها على السرير. أخرست جرأته في حلقها الكلام، تفحصت أرجاء الغرفة، لم تر أية شقوق، النافذة مغلقة والشقة تطبق جدرانها وليس سواهما والشيطان.

بادرته بالسؤال على عجل:

- معك ليرة؟

عجب لسؤالها.

- لماذا؟

- اجبني معك ليرة؟

- نعم.

اعطني إياها.

ناولها ليرة ورقية بعد أن دس يده في جيبه.

ما زال المذياع يردد:

- يا خلّي القلب يا حبيبي.

....

- لنقرأ الفاتحة.

مذهولا رفع يديه وتمتم معها الكلمات:

- بسم الله الرحمن الرحيم ... إهدنا الصراط المستقيم ... صراط الذين أنعمت عليهم ... آمين.

بهدوء بدأت تخلع ملابسها، وتتحسس بأصابعه نهديها اللذين نفرا فجأة، بعد أن غطّا في نوم طويل وعميق. لقد تخرجت لتوّها وتوظفت وأعالت أسرتها، بعد أن اختصرت سنيناً عدة كان عليها انتظارها، في لحظة. أما هو فقد تمدد بجوارها وغفا.

بعد أيام انتهت الامتحانات، سأل عنها، بعد أن افتقدها وقد كان يرغب في طعام آخر وحصة أخرى في الرياضيات، لكنه عرف أنها قد غادرت على عجل، لتخرج من دنياه إلى الأبد.

*****

خراريف

قصص تلتقط نماذج وصور من المجتمع الفلسطيني / العربي، القروي في الغالب، وتظهر مدى ما فيه من بساطة مؤسية.

حديث الشيخ اليعربي

كان حبل الحديث ممتدا، وكانت الديوانية، كعادة أهلها اليومية، تامّة الانعقاد، بكل ما فيها من رتابة، ومن قول فيه استفاضة وإنابة، تدور حول ذاتها، يوماً بعد يوم، ولا يستثنى يوم عيد أو شهر صوم، منذ زمان بدأ، ولا يعرف له آخر، جيلاً بعد جيل، وكابراً عن كابر، أما سيد الحديث كالعادة، فليس سوى صاحب السعادة، الشيخ اليعربي ابن عدنان، صاحب الحضرة، حلو اللسان، الماهر في تدوير الكلام، البارع بين الأنام، في تضمينه الحكمة اللاذعة والملحة القاذعة، الذي يرتب القول بحيث يبدو رشيقاً، على القواعد والأعراف ملصوقاً، تعتاده الآذان فتسمعه كل يوم، بنشوة وافتتان.

في هذه الليلة، التي لم تكن ككل ليلة، رأى الشيخ طارئاً على الحضور، منزوياً في الركن المغمور، يستمع إلى الحديث والكلام، بكل هدوء واهتمام، فأراد اختباره بكلام كمثل الذي للجارة، فبدأ حديثه بالقول:

حدثني أبي عن جدي، عن جد أبيه، إلى آخر سلالة النسب، حتى وصل إلى أول العصب، جدنا اليعربي الأول، فيما انتهى إلينا شفاهة، بما زاد عليه ناقلوه بدافع الوجاهة، مما يحلو لهم من قول وتفسير، وما يقتضيه من تنميق وتزويق وتحوير، قال:

حكم جدنا البلاد، منذ كان في المهاد، إلى أن انتقل إلى جوار ربه، رب العباد بكل حكمة وروية، لا تخفى عليه شاردة أو واردة، يعمل ما يدور في

الأذهان بكل ما يمكن أن تسول للناس النفس الأمارة بالخبث والشطارة.

وقالوا: أنه في يوم من الأيام، وكان قد عاد من رحلة صيد بالغنيمة والوليمة فجمع الناس، يوزع البهيمة، بعد أن تفاخر وتظاهر، بما لديه من قوة وجاه، حتى استهجن عليه الأمر واحد من الرعاة، فقام من توّه بقطع رأسه وإلى أبعد مدى، لوح بالرأس وألقاه.

وفي اليوم التالي، وصله من لعج لسانه باحتجاج، فأرسل من قبض عليه، ووضعه في الحبس، جزاء ما وسوست به إليه النفس، ثم بعد وقت كان في الناس من ينقل أخبار الشيخ في داره، ويتقوّل على سمّاره، فجمع كل هؤلاء، وأرسلهم لمقاتلة الأعداء، حتى يكونوا للوطن فداء.

ثم يوماً بعد يوم، وجد جدنا وسيدنا وتاج رؤوسنا، في ذلك الوقت - هذا ما قاله لنا الرواة - جمعاً من النساء والأولاد، ليس لهم سواه ورب العباد، فرّق قلبه الكبير، العامر بالحب الوفير، واستشعر المسؤولية، وأخذته العزة والحمية، فضمهم لأهل بيته، حتى علت سمعته وذاع صيته، فصارت النساء يقمن بحثّ أزواجهن على العطاء، والالتحاق بالجيوش حتى تمتليء الكروش.

وهكذا، استمر الحال، على هذا المنوال، إلى أن جاء من أشار، على شيخنا بالفكرة التي أثارت في نفسه الانبهار، فأرسل كل رجال القبيلة، في حيلة، في حرب ضروس، مع عشائر التيوس، ذات البأس الشديد، والمراس العنيد، حتى يكون مصيرهم الموت الزؤام.

وهكذا يا سادة يا كرام، صارت نساؤهم أرامل، وللشيخ أزواجاً حوامل، يدخل كل يوم على واحدة، وحتى تكون ذات فائدة، تلد له إبناً، يأخذ

مكانه، في يومه من السنة، هذا ما نما لعلمنا، من أصول التقويم الذي بشيخنا انتسب، وعلى يديه انكتب.

بذلك استطاع الشيخ أن يزيل الحواجز بين الحاكم والمحكوم، المجهول والمعلوم، وصار على الحكم غير عاجز، بفضل ما لديه من أبناء، لا يندس بينهم عملاء، ولا يصل إليه دونهم أعداء.

عند ذاك، انفرجت أسارير الطاريء المستمع، فقبض على حبل الكلام، و به صوته ارتفع، ثم قال: هذا ما كان في العهد القديم، أما أنا فأقول لكم عن عهدنا المقيم، ما قالته عرّافة البلاد، التي تعتني بهموم العبيد والأسياد، التي تقرأ ليس في الفنجان أو الكف، بل تضع فوق الكلام الحرف، وتستخدم الحاسوب، الذي إليه ترنو القلوب، بعد أن أدخلت عليه الخريطة الجينية، مكتوبة باللغة العربية.

ثم تابع: يا سادة يا كرام، والكلام للعرّافة، التي ما عادت تتهم بالتنجيم أو الخرافة، إنه في آخر الزمان يجيء آخر الحكام، بعد أن أوصلته الصدفة، وحذاقة الحرفة، إلى المكان المرموق، والتاج المسروق، فيجد يوماً نفسه ضجرة، إلى التغيير والتحديث منبهرة، وبعد أن يملّ من مطالب شعبه، ومن تقلبات قلبه، يجيئه من يشير إليه، بالطريقة السهلة، والوصفة المجربة، حتى يرتاح بال السلطان، بإشاعة الهدوء في المكان، فيفتح باب الهجرة، إلى بلاد الكفرة، حتى يغادر البلاد كل أفراد العباد، وحين يجد السلطان نفسه وحيداً، وبالبلاد سعيداً، يقوم باستنساخ ذاته الملكية، وهيئته البهية، بعدد من المواطنين العاملين الآمنين، اللازمين، المسالمين، حتى يكون الحكم مكين.وحتى يحقق العدالة ويعمق الأصالة،

ويكون الجميع سواء، في الشكل والنسب، والانتماء، من طينة القائد، الحاكم الواحد.

ضحك الشيخ من الطاريء، قليل التجربة، عديم الحيلة والمعرفة، فسأل عن حسن نية، وعن صفاء جريرة وطوية، إن كان الاستنساخ يحدد جنس المواليد بما هو مفيد، للتوالد، وبما يوفر التعاضد.

فردّ الطاريء المكّار، بقول من يستمع إليه يحار، وقال إن ما قالته العرّافة، كان في رواية واحدة، قد تكون بلا فائدة، أما الرواية الثانية التي قد تكون هي الباقية، فإن آخر الملوك كان أبقى على جليسه ونديمه، حسن السيرة والسلوك، عبده ومولاه، ساتر سرّه، وحافظ طلّته وقفاه، فقام باستنساخه، حتى يكون أفراد الرعية، على هواه، سوية.

وإن الأخذ بالحيطة والانتباه، إلى أن كل ما يمكن أن يتبع القول من تحريف أو تزويق أو تحوير أو سواه، يلزمني أيها السادة الحضور، ذوو الذنب المغفور، إلى أن أذكركم مجدداً، بأن التنجيم تهويم، فيه قول بتحريم، وإنَّ ما يمكن أن يصدق من النبوءة، لا بد أن يكون مجزوءا، والله فوق كل العارفين، من سائل ومجيب أو محدّث ومستمعين.

*****

خبرٌ عاجل

لم يهدأ التوتر من حوله طوال اليوم، فمحيط التحرك المحدود، يتيح له مجال إحصاء كل ما يحدث خلال الساعات والدقائق والثواني، الناس المثقلة بالتفاصيل اليومية الخانقة، تشتبك دونما أسبابٍ واضحة، لا أحد يدري كيف يمكنه أن يزجي الوقت بأقل الخسائر العصبية، وكل لحظة تمر، يتنفس الصعداء، ذلك أنها مرَّت بسلام، دون أن ينفجر في أحدٍ لا يعرفه، لكنه يعلم ما في داخله، وما في دواخل الآخرين.

يعالج ثورانه الداخلي بحركةٍ دائبة، لا يجلس على مقعدٍ أكثر من دقائق، يتحرك هنا وهناك، دونما ترتيبٍ ودونما هدفٍ محدد، وكل ما يشغله الصغار الذين لا يكفيهم مشوارهم اليومي من البيت إلى المدرسة، ومنها إلى البيت مجدداً لإشغال طفولتهم المتوثبة، ويسعى بقدر الإمكان تجنب الأخبار اليومية المتلاحقة، التي تنتشر حواليه، عبر المحطات الإذاعية والتلفازية، ومن خلال الجدران وألسنة الناس، وحين يعود إلى البيت، ينتقل عبر الفضائيات المتعددة، دونما تركيز، كأنه يهرب من قدرٍ محتوم.

إحساسه بالعجز يتراكم في صدره، لا تقوى شراهة التدخين على قتله، يدرك في أعماقه بأنه قد تحول إلى ضحية الحدث اليومي وصوره المتباينة التي تشمل قدرته على الهرب منه، حين تنطبع على أكثر من محطة، يسعى جاهدا لاصطياد لحظة من التوقف لتأمل المشهد الدامي، كي يتعامل معه بشيء من البرود الذهني، لكن تلاحق الأحداث يفشل كل محاولاته لاندلاق انفلات الأعصاب بردود الفعل المجنونة.

لم يعد النوم راحة الغافلين، ورغم إنعدام رد الفعل الصادم، بعد تكرار مشاهد القتل، فقد ظهرت لديه أسباب أخرى للأرق، يمنعه من النوم زن طائرة الاستطلاع طوال الليل، ثم وعند ساعة الفجر غارة الأباتشي، وانفجار صواريخها المدمرة، يهرع إلى النافذة، كانت الأشلاء تملأ المكان، ورائحة الشواء البشري تزكم الأنوف، فيما تجمهر الناس، ينتشلون المصابين، قتلى وجرحى من تحت الركام، يواجهون الموت المريع بأياد بيضاء.

سارع إلى تشغيل التلفاز، لم يكن الوقت موعد النشرة الإخبارية، كان يبث مباراة كرة قدم بثاً حياً ومباشراً، وكانت جموع الحاضرين بالإستاد تواصل الهتاف والتشجيع، فيما التقطت عيناه بث الشريط الإخباري المتحرك أسفل الشاشة:

خبر عاجل: سقوط تسعة قتلى في رفح، جراء إطلاق طائرة أباتشي ثلاثة صواريخ على عمارة سكنية.

خبر عاجل: استقالة مدرب فريق ريال مدريد، بعد العروض المتواضعة للفريق في الدوري الأسباني.

خبر عاجل: روبي تستعد لتصوير أول فيلم سينمائي بعد نجاح ألبومها «أنت عارف ليه».

﴿خبر عاجل: سقوط خمسة وثلاثين قتيلاً، في غارة للطائرات الأمريكية على الفلوجة.

خبر عاجل:... ولم يقوى على المتابعة، ركل التلفاز بقدمه، تناول مكنسة المنزل، أخذ الباب بيده، وخرج ولا شيء محدد في رأسه ينوي فعله﴾

غزة ٢٠٠٤/١٠/١

*****

الشاطر حسن يذهب إلى كارني.. ولا يعود

لم يكن الصبي حسن يدرك معنى إسمه، خارج حدود دلالته اللغوية إلى أن قصّت عليه الجدة ذات ليلة ماطرة حكاية الشاطر حسن، فصار من توّه يفاخر أخاه الذي يكبره بعامين فقط ويشعر بتفوقه، ليس على أخيه وحسب، ولكن على أقرانه أيضاً.

ومنذ أن سمع حكاية الجدّة، بات حسن يتأفف ممن يناديه باسمه هكذا دون أن يقرنه بلقب الشاطر، وحين يدخل في عراك كلامي مع أخيه يقول له ماذا يعني اسمك علي، ويتابع أنا رويت عني حكاية الشاطر حسن، أما أنت فلم نسمع عنك أية حكاية، وماذا يعني لنا الاسم علي؟

يرد عليه أخوه قائلاً: ألم تسمع عن سيدنا علي كرّم الله وجهه، وعن فروسيته ومكانته؟ فيتشبث حسن بحكاية الجدّة قائلاً، بأنها لم تقص عليهم يوماً حكاية عن علي هذا، وإن كل ما سمعه عنه، إنما هو كلام الكتب، كتب المدرسة التي لا نحبها، ونضطر إلى قراءتها وحفظها، نزولاً عند رغبة المعلم، ومخافة عصاه الغليظة، وفي أحسن الأحوال، حباً في الحصول على العلامة المدرسية.

أما أنا، يتابع حسن قائلاً: فكل الأولاد قد سمعوا من جداتهم حكايتي، يصحح له أخوه قائلاً: ليست حكايتك يا شاطر، بل حكاية شخص آخر، وإن كان إسمه على إسمك، أو بمعنى أصح، إسمك على إسمه، فإن ذلك لا يعني الشيء الكثير.

يرد حسن قائلاً: المهم إنني أحمل اسماً يثير الاعتزاز، ويدفع إلى اجتراح المعجزات.

مع الأيام، يكبر الأخوان، علي وحسن، وتكبر معهما حكاية المناكفة على الإسم، وما زالت العائلة تتندر على حسن، إجابته الدائمة، لكل من يسأله السؤال، الذي اعتاد الناس أن يسألوه لكل صبي وبنت، وهو ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟ وهم يتوقعون الإجابة التي تتباين بين، أريد أن أصبح طبيباً، مهندساً، ضابطاً، محامياً، إلى ما هنالك.

حسن وحده، إعتاد على القول أنه يريد أن يكون الشاطر حسن وحسب، فهو منذ ولد وقد رافقه الإسم، فقد انكتب على جبينه مصيره الذي لا فكاك منه.

وكان يجتهد حسن حتى يكون شاطراً في الحارة، في البيت، وفي المدرسة، وكم كان يشعر بالزهو حين يجيب على سؤال المعلم فيثني عليه بالقول، أنت شاطر يا حسن، ولا يرضى بأية مكافأة أخرى تخلو من تلفظ هذه الكلمة الساحرة.

وحين كان أبوه يعود من العمل وراء الخط الأخضر، كان يجلس إلى جواره، يلتقط تفاصيل رحلته اليومية الشاقة، مع المعابر والحواجز التي تتراءى له، كأنها المشاق والأهوال، التي تقف حجر عثرة في طريق حياته اليومية، فيكوّر قبضته الصغيرة، ويعقد ما بين حاجبيه، ويراكم الغضب.

في الإنتفاضة الأولى لم يكن حسن قد ولد بعد، لذا فإن الأحاديث التي كانت تدور حوله، بين الكبار، عن أيام الاحتلال، كانت أشبه بحكايا الجدة عن الغيلان والعفاريت، ثم كان يسمع عن الجند في الحواجز، يواصلون فعل الاحتلال الذي كان، في كل زقاق، وشارع، فيراهم على تلك

الشاكلة، إلى أن جاء يوم طلب فيه مصروفه اليومي، فلم يجد أباه، ولم تنطل عليه الحيلة التي ابتكرتها الأم بالقول أن أباه مريض ولم يقو على الذهاب إلى العمل وأنهم – حسن وإخوته – قد كبروا وآن الأوان لأن يشعروا بحال أبيهم وأن يتغاضوا عن أيام مدرسية لا يتوفر لهم فيها المصروف اليومي.

توالت الأيام، وتكرر عجز الوالد، ليس عن توفير المصروف اليومي وحسب، ولكن عن توفير احتياجات البيت الأساسية، ثم كان الاشتعال الذي لم يخف على الصبي، وأخبار المواجهات عند نقاط التماس، حتى كان يوم شيّع فيه المخيم الشهيد محمد، إبن حارته، وإبن مدرسته، سار بين المشيعين يردد ما يرددون، ثم يتطلع بين فينة وأخرى، في وجه المسجّى على الأكتاف، فيراه نائماً، يحلم بالأميرة النائمة، ولا يصحو إلا على هدير الكلمة التي تغلغلت في أعماق جوانحه، الشهيد البطل.

أنت بطل إذاً يا محمد، إذاً فأنت شاطر، ويردد.. الشاطر محمد، الشاطر حسن، مثلي تماماً، أنت الشاطر حسن، الشاطر محمد، الشهيد البطل.. محمد.. حسن.

كانت حقيبته المدرسية، تثقل عليه أكتافه، لكنه تحامل، إلى أن انتهت مراسم التشييع، عندها سأل رجلاً في الطريق كان مشيعاً على الأغلب، عن المكان الذي يستشهد فيه الشباب والأولاد، فقال له: كارني، ولكن أين تقع هذه الـ «كارني» يا عمي، أنت بحاجة إلى مواصلات يا ولد، ولكن لماذا تسأل؟ أبي يا عمي لم يذهب للعمل، بسبب الحاجز اللعين، ثم سأله نقوداً أجرة مواصلات الذهاب والإياب، لهذه الكارني، مازحه الرجل بالقول

خذ هذه أجرة الذهاب، أما الإياب فلست بحاجة إلى أجرة له.

لم يضع الطفل النقود في جيبه، بل أمسك عليها بقبضة يده، واندس في أول مركبة ذاهبة إلى كارني.. وهناك ملأ حقيبته بالحجارة، بعد أن أفرغها من الكتب والدفاتر، وتقدم صفوف الراشقين، حتى امتطى صهوة الريح التي كانت على شكل الجواد المجنح، وأخذ يضرب الغول الحديدي المدجج بكل وسائل الموت، بكلتي قبضتيه، وحين اخترقت صدره رصاصة القناص، مرّ بخياله طيف الأميرة ماء الحياة، التي سرعان ما ضمدت جراحه، وأعادته إلى مواجهة الوحش في كرّة تالية.

﴿خارج النص: أحد الرواة الجدد، الزميل الصحافي الذي قصّ علينا الحكاية، قال أنه في اللحظة التي كان فيها الشباب يخطفون جثة الصبي، كان كتاب التربية الوطنية ملقى على الإسفلت وفي رأس صفحته الأولى إسمه، الذي كان قد خطَّه في ذلك اليوم مسبوقاً باللقب الشاطر، بعد أن زاد عليه الشهيد البطل.﴾

*****

زواجٌ خرف

- خمس بناتٍ يا رجل.

هتفت مستغرباً في وجه صديقي، الذي انقطعت عن معرفة أخباره منذ عشر سنوات كاملة، وكنت أسترجع لحظة ولدت زوجته البنت الثانية، وقد عقدت المفاجأة لسانه، فعاد بهما إلى البيت، وقد بدأ يشعر بالثقل الذي بدأ يحط على كاهله.

- أرأيت.. يا الله ما هي خربانة من كل الجهات.. يعني هي وقفت عند هذه؟

- وماذا عنك يا سيدي؟ أليس حالك من حالي؟

- لا

- أجبت بزهوٍ، وأستذكر بدوري المثل الذي يقول: من رأى مصيبة غيره، هانت عليه مصيبته.

- كيف لا؟

- أجاب، ثم تابع

- مش كانوا عندك ثنتين؟

- بانكسار قلت: لقد أعدنا الكرة وحاولنا للمرة الثالثة، وجاءت بنتاً أيضاً.

- هتف بانفراج

- هه.. يعني صاروا ثلاثة.. شفت.. يعني حالك من حالي.. وليش قاعد بتذّل فيَّ من الصبح؟

- وافقته قليلاً، ثم قلت: تعرف، لو الواحد كان يعرف ما الذي سيحدث معه، لربما غيَّر برنامجه من الأصل.

- قام بتغيير الموضوع، واقترح عليَّ أن يلف لي سيجارة.

- هيشة؟

- هتفت متسائلاً، وتابعت؟

- أراك تعيش حياة بدائية هنا!

- ضحك ضحكة عميقة وبدائية أيضاً، ثم قال:

- منذ الصباح أذهب إلى الحقل، أسوق غنماتي، وأترك زوجتي وبناتها وكل همومي ورائي، ولا أعود إلا في المساء، أتناول عشائي، ثم أتوجه إلى الجامع، أصلي صلاة العشاء، ثم أسهر مع الرجال في المضافة، وأعود بعد ذلك لأنام في البيت.

- كأنك تنتظر يومك إذاً، لم تعد لديك أية مشاريع تود تحقيقها في الأيام القادمة؟

- أيام قادمة؟

- تساءل، ثم أضاف قائلاً.

- أنا لا أفكر إلا في هؤلاء البنات، تعرف رغم كل شيء هن جميلات وشاطرات في المدرسة، كل ما أنتظره هو أن أزوجهن وليس أي شيء آخر، المهم حدثني أنت عن نفسك، أليس لديك ما تفكر به؟

- أنا؟

فاجأني..

- بالطبع لديَّ

- أجبت، وكنت أراني كصورة عنه، في الوقت ذاته أحاول أن لا أبدو كذلك.

- أنا ما زلت أحاول إقناع زوجتي بمحاولة رابعة؟

- ما زلت تطمح في أن تنجب لك ولداً؟

- نعم

أجبت

- لكنها في الحقيقة لا ترغب مثلي، هي تخشى محاولة أخرى فاشلة، إضافة إلى أنها بدأت تشعر بأنها قد كبرت، وتخاف من نتائج حملٍ جديد في مثل سنها.

- إذا كانت لديك الرغبة والأمل، فافعل.

- لكنها لا تريد

- تزوج واحدة أخرى إذاً

اقترح عليّ الحل بكل بساطة وعفوية.

- ماذا؟

تساءلت باندهاش

- أراك تستغرب الفكرة، يبدو أنك يا صديقي، ما زلت أسير ثقافتنا السابقة، الناس هنا لا يستغربون فكرة الزواج من أكثر من واحدة، بل على العكس، في مثل حالتك، تبدو مشروعة للغاية.

- وفي مثل حالتك أيضاً!

كأنني فاجأته بأمرٍ لم يفكر فيه من قبل.

- رأيك؟

قال متسائلاً

- ما دمت تقترح عليّ ذلك، فلماذا لم تفكر فيه أنت لنفسك؟

- أنا لم أستبعد الفكرة أبداً، لكنني حصرت أملي في محاولاتٍ خمس، ثم أنني رجل فقير، ليست لديّ القدرة على توفير تكاليف زواج جديد.

- وإذا كان ذلك ممكناً، دون أن تضطر إلى دفع التكاليف؟

- كيف؟ لست أفهم

أجاب

- قل لي يا صديقي، كم عمر بنتك الكبرى ؟

- ثمانية عشر عاماً

- عروسة يعني؟

- نعم.. هي كذلك.

- ابحث عن رجلٍ يحتاج زوجة ثانية، وبادله بنتاً ببنت.

ضحك من أعماقه، وسعل بسبب السيجارة التي تحترق بين شفتيه.

- والله فكرة.. ايش رأيك أنت؟

- بماذا؟

أجبت

- أن تزوجني ابنتك مقابل أن أزوجك ابنتي!

نزلت الفكرة كصاعقة على رأسي، مسكت يده، وقلت:

- ألن تذهب إلى النوم؟

أجاب بالقول بأن زوجته وبناته يكونون قد نمنَ الآن، ثم إنني ضيفه الآن، ولا يجوز إلا أن يظل معي في المضافة.

بضعة أيامٍ قليلة، كانت كافية للرجلين حتى يتمّا الأمر، الذي فاجأهما بأكثرٍ مما فاجأ الآخرين، أما البنتان اللتان هوت عليهما يد الأبوة كفأس في لحظةٍ قاسية، فقد رتبتا بدورهما أمراً، فيما بينهما، حيث أظهرتا موافقةً، إلى أنٍ انتهى الأمر بتلك اللحظة الحاسمة.

وحين اختلى الرجلان الخرفان، بعروسيهما، تقرّب كل منهما بكلام أبوي رقيق لعروسه، التي أظهرت خجلاً جماً، ولم ترد.. وبعد أن ألح كل منهما على عروسه بأن ترد عليه.. ولو بكلمة.. سألت البنت الرجل الذي رأى فيها عروساً له بالقول:

وهل يمكن للرجل أن ينجب من ابنته؟

أعوذ بالله

أجابا في وقتٍ واحد

حينها كشفت البنتان عن وجهيهما، ونزعتا معاً العباءة التي كانت تخفي ملامحهما، حتى عقدت المفاجأة لسان الرجلين، وزلزلت فرائصهما، لينفضّ بعد ذلك عرسٌ، لم يكن يشبه شيئاً، أكثر من أنه كان نكتة سخيفة.

*****

امرأة السماء

في الليالي الباردة، حين كان يهجع الناس في حضن النوم الدافئ، كان مولانا الولي الصالح، يتدثر بأشعة النور، يتوسل سيد الكون أن يسد رمق الجائع ويعالج المكروب، ويساعد الأرامل والمحتاجين، الذين اعتادوا عيادته في النهار، ملتمسين بركاته ودعواته، التي غالباً ما تستجاب، من رب البرية وخالق الكون والذرية.

منذ زمن طويل صار موطيء مولانا الرابض على سطح التلة البيضاء، التي تجاور الواحة الخضراء، وتطل عليها كبرج مراقبة طبيعي دائم، مزار العوانس طالبات الستر، والنساء اللواتي حرق قلوبهن العقم، والأمهات اللواتي أعياهن أنين مضغ القلوب ووجع الأفئدة.

يجئن بالسكاكر والشموع والبخور وكل أصناف الطيب، ويعدن براحة البال والاطمئنان والأمل، بعد أن يسمعن الكلام الطيب، ويستنشقن الأنفاس الطاهرة، أما المكروبون والموسوسون، فكان يمسح على رؤوسهم، ويوزع عليهم أدعيته وبركاته، التي ما كان يبخل بها، حتى على غير طالبيها، من أهل قريته الوادعة، التي صار حارسها، وصارت أمانة في عنقه، وعهدة في حمايته، منذ اعتكف في التلة، في ليلة ما عاد يذكرها أحد ولا حتى هو، لا في صحوه، ولا في نومه، سوى مرة واحدة في العام، من علّيته يرقب الشيخ البشر والشجر والبهيمة، يتابع تتابع الفصول وتداول الثروة والقدرة، لا تخفى عليه شاردة أو واردة، ولا دبيب نملة، أو ورود فكرة على ذهن، أو تدبير أمر أو عقد عزم . يغمض عينيه فيرى الأشياء

في صفحة بيضاء واضحة، لا لبس فيها، يفسر الوقائع ويتوقع الأنواء والأهواء، فيطلق البشائر ويحذر من العثرات والخسائر، من هناك يرى كل شيء، يرى المظلوم يفرد يديه إلى السماء، فيرفع معه صوته بالدعاء، لتهب عاصفة، أو تلسع عقب ظالم زاحفة، يصلي للمريض فتحل في نفسه الطمأنينة، ويتفل على رأس المكروب، فتحل عقدته وتذهب كبوته. تتوالى الأيام، وتتداول الناس أحوالها، ويبقى الشيخ في عليته وهجعته الدائمة ملاذ المستضعفين، وعلامة تحذير لأهل السطوة والاقتدار، يلجأ إليه أولئك، ويتجنبه هؤلاء، يحاذرون سطوته، دعوته أو نظرته .

بهيبته وحكمته واعتكافه وتعففه، صار الشيخ ذخر الجميع، هو في عزلته واعتزاله، وهم في غيّهم وصخبهم يتنافسون، يتخاصمون، ويتعاركون، وحين عن الاتفاق يعجزون، إليه يحتكمون ويلجأون، فيومىء بالإشارة وينطق بالرمز والحكمة والطهارة.

هكذا سارت الأحوال يوماً بعد يوم، وعاماً إثر عام، لم يعرف الناس يوماً رأوا فيه شيخهم غافياً أو غافلاً عنهم، لذا فقد استكانوا في أمان، وهجعوا في حضرته باطمئنان، حتى باتوا يعرفون بالانتساب لسمعته، وينتفعون من حجيج الناس لعيادته.

لا يذكر الشيخ نفسه، منذ متى صار على هذا الحال، ومنذ متى سارت الحياة على هذا المنوال، وكما الآخرون، لا يعرف هو ذاته إلا وقد صار شيخاً تربعت السنين على أكتافه، ويعلم أنه صار أصل الخيالات البيضاء التي تدور في رؤوس الناس، تخفف عنهم وطأة الدنس، والكره والمظالم، فتعفيهم حتى من اجتهاد الطبيب وتقولات العالم.

هو يعرف أنه لم يعد بمقدوره أن يكون على غير ذلك، فيبقى طوال أيام السنة يقبع في عليّته، يشعل الشموع ويحرق البخور، يصل النهار بالليل، حتى يهجع الناس ويغفو كل ذي حياة ودبيب في السفح، يلجأ إلى صلاته، يبعد عن أهل حضرته أرواح الشر وشياطين العبث، يرتل الآيات ويعدد الزفرات، حتى إذا رأى طفلاً مقروراً، نفح عليه من أنفاسه، فمنحه الدفء، فنام، أو سمع محزوناً، ألقى إليه بما يبث في روحه السرور والسلام.

وفي ليلته الليلاء، الواحدة الشاردة، عديمة الجدوى والفائدة، هذه التي تجيئه مرة في العام، بالتوتر والسقام، يتذكر الشيخ أنه على غير العادة، يصحو ويسهر حيث يغفل الناس، يا سادة . يصطّك مع صرير الرياح العاتية، فيما هم في دافئ الفراش والصحبة، يقلق هو في توقع الغيب والمجهول، ليأمنوا في الغفلة والجهل الجهول.

في هذه الليلة، إعتاد الشيخ أن يبتهل طوال خمسين عاماً أو يزيد، أن يجرب الحياة الدنيا، ولو من باب الفضول، فيرى أنه لا محالة مقتول. في هذه الليلة، من هذا العام بالذات، وعلى حين غرة إنشق صدر السماء فجأة، وتسللت دوائر الدخان المتصاعدة، من حجرة النار في التنور، حيث انعقد لسان ابتهالاته، عن الرفقة التي تمناها في لياليه الباردة، وفي أيام الوحدة والوحشة الغاربة، وفي لحظة خاطفة، وضعت يدها على صدره، فنزعت عن روحه الشابة المتوثبة، جسده الكهل المتهرئ، ودعته إلى حياة مستحيلة.

ما كان باستطاعة الشيخ أن يرى، بعد ذلك، التحول الذي طرأ على

جسده الكهل، حتى أصبح الصباح، وتجمعت من حوله النسوة والصبية والكهول، لينكروا عليه ادعاءه الولي الصالح، ولم ينفعه حتى صعودهم إلى التلة البيضاء حيث كان غياب الشيخ دليلاً على ما يقول.. وقد فسروا الأمر على نحو آخر جعل منه محتالاً أو قاتلاً غريباً، هبط على العلِّية في جنح الظلام، ليقتل مولاهم، ويسطو على مكانته، ومقامه، فهجموا عليه ومزقوه إرباً.. وتحلقوا حوله طرباً.. وبعد لحظة، طارت من جسده حمامة بيضاء، رفّت بجناحيها فوق الرؤوس، وحلّقت في السماء ثم حطّت على قمة المقام فوق التلة، ثم تحولت إلى حجر، ما زال يتوج المقام والمكان إلى يومنا هذا. وهكذا ظل المقام على حاله من المكانة العلية التي لا تضاهيها سوى مكانة رب الكون والبرية، وظلت الليالي الليلاء، مناسبة للاحتفال الذي يستمر حتى الصباح من كل يوم، يقضيه الناس في الدعاء والصلاة، أن يعيد الله الحياة، إلى حمامة الشيخ الذي صعد بروحه إلى السماء يوماً، فيما بقيت بركاته وكراماته على حالها، وفي مكانها رغم مضي كل تلك السنين الطويلة..

*****

الكار والمكرور والفعل المجرور

لم يكن يوم أمس يوما عاديا على الإطلاق، ليس بالنسبة لي وحسب، لكنه كان كذلك بالنسبة إلى كافة الزملاء.

فقد دار علينا أبو محمد واحدا واحدا، يودعنا كمن يودع أولاده، الذين طالما أحبهم و أحبوه، وكأنه أيضا لن يرانا، بعد ذلك.

أما نحن، فقد كان الرجل الذي أثقلت كاهله السنين الطويلة المرهقة، بالنسبة لنا، محل إجماع، نحن الذين لا نجمع على شيء، ولا نلتقي على حبنا لأحد.حين فكرت في السبب، قلت: ربما كانت هامشية الرجل في العمل، أو كانت أبويته لنا، ربما كان قيامه بعمله على خير وجه، وربما كان السبب الأكثر وجاهة، هو اجتماع هذه الأسباب جميعا لديه.

ما أن يرى الواحد منا، على غير عادته، حتى يقترب منه بهدوء و أدب جم، يواسيه، ويستدرجه حتى يفضفض ما بنفسه، ولم تكن زميلة، على طبيعة الأنثى الإنطوائية، تخفي عنه شيئا، حيث كانت تجد فيه أبا حنونا وأما رؤوما، يرعى الجميع بكلمة طيبة و أحيانا بحكمة وموعظة حسنة.

لم يكن لدى أبي محمد أي قدر من الوجاهة أو المال أو المكانة، التي يمكن أن تساعد أحدا على حل مشكلة أو معالجة مأزق، لكنه كان كحبة أسبرين نفسية، تهديء من روعنا، دائم التوتر والتذبذب، الصاعد الهابط، كما حال المصاعد الكهربائية، هذه الأيام.

ورغم حرصه الدائم على مشاركتنا همومنا وانفعالاتنا، إلا أن أبا محمد كان الوحيد بيننا الذي لا يشاركنا حفلات النميمة اليومية. لم

يكن عمله يسمح له بذلك، ولا طبيعته أيضا. ورغم أنه كان أكبرنا سنا، وأَقَلُّنا درجة وظيفية، غير أنه كان أكثرنا تواضعا وأشدنا احتراما لنفسه وللآخرين. له هيبة ليس أساسها السن أو الوظيفة، بل كان الرجل باختصار يحترم نفسه، فاحترمه الجميع.

كنت تعتقد بان لكل واحد قصة خاصة مع أبى محمد، ما أن تراه يدخل إلى مكتب زميل أو زميله، ثم يغيب بضع دقائق، حتى تبدأ بصياغة التخمينات حول سبب ذلك الغياب ومغزاه. وما أن يرسل أحدنا في طلبه ولا يجده، حتى لا يجد غضاضة في أن يسأله بعد ذلك عن طبيعة المرسال الذي خرج في سبيله، وعن الشخص الذي أرسله في طلبه.

لم يتذمر أبو محمد الذي بدأ العمل، قبلنا جميعا، حتى أطلقنا عليه لقب ذاكرة الدائرة، يوما، ولم يعرف عنه أنه راجع آخر الشهر في عمل إضافي، أو بدل مهمة، أو ما شابه، على قلة راتبه وكثرة مسؤولياته العائلية.

لم يكن أمر الدائرة اعتياديا، على الإطلاق، أن نحضر إلى الدوام اليوم، ولا نجد فيها أبا محمد، وعلى الرغم من أن المكاتب تنغلق على أصحابها، بعد دقائق معدودة، من بدء وفود العاملين فيها، إلا أنها، وبعد مضي أكثر من ساعتين، ما زال الحديث يدور عن الفراغ الذي تركه أبو محمد، في الدائرة وفى جميع أقسامها، بل ولدى المراجعين أيضا، الذين كثيرا ما كانوا يثنون على ضيافته الكريمة.

ورغم أن أحاديث الزملاء كانت متشابهة، إلا أنها ما زالت تتردد بين الشفاه والآذان...

- كيف راح نشتغل من غير كوب الشاي بالنعناع، ذي الرائحة الزكية.

- والطعم الخاص !

- كيف لي أن أضمن بأن من سيأتي، سيعرف أن يصنع لي فنجان القهوة المضبوط، وكم من الوقت سيأخذ حتى يعتاد على أن يصنعه تماما، كما أريد؟

- والأهم من ذلك أن يأتيك في وقته وميعاده، أي في اللحظة التي تحتاجه فيها.

- هل من سيأتي، سيكون بمقدوره أن يقرأ ما يجول بخاطرنا، ومن نظرة واحدة في الضيوف، سيعرف ما يفضلونه: الشاي أم القهوة ؟

- لا يمكن لي أن أنسى، أنه كان باستطاعته أن يوفر لي ماركة السجائر خاصتي، حين تختفي من السوق، وحين أحضر إلى العمل وأنا على درجة عالية من النرفزة، يداعبني ويقول:

- شايفك خرمان يا أستاذ، إيش رأيك تريّح بهالسيجارة ؟

ويخرج لي العلبة من جيب معطفه، كأنها هدية ثمينة، سقطت من السماء.

في ذلك الوقت بالضبط، كان المسؤول الإداري، يراجع أوراق موظف الضيافة الجديد، ويبدي استغرابه من تكرار الاسم:

- إسمك الرباعي من فضلك ؟

- لقد قلت لك يا أستاذ، محمد حسن محمد حسن المكرور.

- أريد إسم الجد، إذا سمحت.

- محمد،وجد الأب حسن، ولو أردت الاسم سداسيا أو ثمانيا أو للرقم

مائة، ما تغير... فنحن كلنا محمد، وكلنا حسن.

كان عدم نباهة المسؤول الإداري سببا لهذا اللغط الزائد بين الاثنين، والذي منع الموظف الجديد من مباشرة عمله على التو، وفى اللحظة.

بعد دقائق، كان محمد يدور على المكاتب بفناجين الشاي والقهوة، في الموعد ذاته، مصنوعة على الطريقة نفسها، ووفق مزاج كل واحد منا. وحين جاءني بفنجان القهوة المضبوط، برائحة الهال النافرة، رشفت الرشفة الأولى من الفنجان،قبل أن يأخذ الباب بيده، وحين تذوقتها، ناديته على الفور.

- ما اسمك ؟

- محمد.

- كيف عرفت طبيعة قهوتي، موعدها، وحتى شكل الفنجان الذي أفضله ؟

- من أبي يا سيدي.

ضربت يدي على رأسي وقلت:

- هل تريد القول بأنك محمد ابن أبى محمد، زميلنا الذي تقاعد أمس؟

- نعم، الأمر كذلك بالضبط، يا أستاذ.

- شكرا لك على القهوة، وسلّم لي على والدك.

بعد لحظة واحدة من تقليب الأمر في الرأس، توصلت إلى نتيجة تنفي الاستغراب تماما، فنحن سنكون هكذا بعد وقت، نرث عن آبائنا ليس أسماءهم وحسب، ولكن وظائفهم ومكانتهم الاجتماعية أيضا.

شعرت بالخوف قليلا، حين أدركت بان معنى ذلك هو أننا لن نرتاح من المسؤول ثقيل الدم، سليط اللسان، واسع الذمة، وميت الضمير، بعد عامين، حين يصل إلى المعاش، ذلك أن إبنه "الداشر" غير المؤهل لشيء ذي معنى أو جدوى، سيكون وريثه وساكن مكتبه، بعد عمر طويل، إن شاء الله!

*****

ثلاث بنات

المقطع الأول:

أريدها بنتا جميلة، تشبهك في سحر عينيك ونعومة شعرك، يقولون بأن البنات أحنُّ من الصبيان، وحتى تدركين يا عمري، كم أحبك، أريدها أن تكون ملجأي حين أكبر، ألقي بين يديها كاهل شيخوختي، وحين أغمض عينيَّ للمرة الأخيرة، تكون قد حوطتني بحنانها بعد أن تحفظ سري.

- فال الله ولا فالك.

لا.. أريده ولدا يشبهك، له جمال عينيك، وروعتك، رقتك وحنانك، كذلك قوتك التي لا تحد، أريده ذخري في الحياة،و أملي في المستقبل، يحميني ويرعاني حين تزوغ يوما عيناك عني، بعد أن يترهل جسدي وتشيخ روحي. أريده - وغمزت بعينها وخفضت صوتها - الرباط الذي يشدك لي إلى الأبد، حتى أنهم يقولون بأن الولد أهون في الولادة من البنت، وتحسست أسفل بطنها، ثم تولَّدت عنها آهة أولى.

- إصبري قليلا يا امرأة، دقائق ونصل، إمسكي نفسك، أعلم أنها المرة الأولى، لكن كل شيء سيكون على ما يرام، وما هو إلا وقت قصير، وتملأ البنت علينا حياتنا حبا وسعادة.

- قلت ولدا.

- كما تشائين، إهدأي

وكان في قرارة نفسه يوافقها الرأي، بل كان يتوق إلى أن يصدق

حدسها، ويذهب بهاجسه الذي كان ينبئه بالاحتمال الأسوأ، حين قطعت عليه شروده، حماته التي كانت بانتظارهما، ما أن وصلا إلى المكان، حيث كان من هم في انتظارهما، إلى حيث سيتم هذا الأمر كما يجب.

سأل أول ممرضة عما عساه يكون عليه جنس المولود، ضحكت من سذاجته، ولم تجبه. ترك الجميع وخرج إلى حيث يعمل، ليوقع على حضوره الصباحي، على أن يعود لاحقا.

شرب سيجارته مع فنجان قهوته المعتاد، قرأ الصحيفة، ثم استأذن، حرَّك مفتاح سيارته، كان يشعر بأنه يتردد في حماسه للذهاب إلى حيث عائلته، وكان يفضل أن يسمع الزغرودة، تنطلق عبر هاتفه النقال، لكنه حين وصل، وجد امرأته ترقد بهدوء في سريرها، فيما المولود بجوارها، نظر في عينيها، فلم يقرأ البشارة، التقط الأوراق بجوارها، التصقت عيناه بتلك الخانة التي تحدد جنس مولودهما، ارتخت مفاصله، وقبل أن يتهالك، مد يديه وحمل المولودة، فيما استندت إليه زوجته، وغادرا المكان في صمت.

المقطع الثاني:

في المحاولة التالية، لم يدر بينهما الجدل الذي كان من قبل، فيما الصغيرة تجلس في حضن أمها، لا تفهم طفولتها معنى انتفاخ بطنها الظاهر، وحين كانت تتحسسه بيدها الصغيرة، كانت الأم تبتسم بزهو، وتقول ما لا تفهمه الطفلة، قريبا سيجيء أخوك الذي سيملأ علينا البيت حبا وسعادة.

كم مرت هذه أل «قريبا» بتثاقل وبطء على الزوجين، اللذين كانا بالكاد ينتبهان إلى وجود الساكن الثالث في البيت، وحين جاء موعد البشارة، إشترى الرجل أكثر من صنف من السكاكر، ثم أقلّ حمله الثمين إلى حيث تسكن حماته. أدخلهما المستشفى، وواصل طريقه إلى حيث يعمل. شرب قهوته، ودخن سيجارته بخيلاء، ولم ينتظر طويلا، حتى ينبئه محموله النقال بالنبأ، دلف إلى الحجرة حيث كانت زوجته ترقد كما المرة السابقة، لم يجدها، وحين استوضح الأمر، عرف أنها غادرت للتو، فعاد إلى بيته على عجل، وحين وجدها، كانت وحدها، نظر إليها، أجابته بأنها تركت المولودة، حيث جاءت، وحيث أبلغتها أمها قبل لحظات، بأنها أخذت الطفلة عندها، حيث ظلت في رعايتها بعد ذلك عامين متتالين.

المقطع الثالث:

وكما اعتاد الزوجان في المرتين السابقتين، فعلا هذه المرة أيضا، مع جديد واحد فقط، هو أنهما إختلفا حول الاسم الذي سيحمله مولودهما الجديد. هي تريده محمدا، وهو يريده عبد القادر، إلى أن تدخلت الحماة قائلة: إلى حين يجيء الصبي، نصلي على النبي، وقد كان.

فاجأه المحمول هذه المرة، يبشره بسلامة الزوجة، وبصحتها الجيدة، التي أهلتها إلى أن تعود إلى البيت دون انتظاره ليقلُّها، عاد إلى البيت مسرعا، ليجد زوجته ترقد في سريرها، شاحبة اللون، فيما كان صوت مولود حديث الولادة يبكي، في سرير عتيق، مهمل.

*****

زواج مؤبد

لا أحد من الجيران أو زملاء العمل، ولا حتى من الأصدقاء، باستثناء المقربين جدا، كان يعلم حقيقة مرض السيدة أم عمر، أما الأهل، فماذا أقول يا صاحبي ؟ التنهيدة هنا، حتى لو كانت على شاكلة الألم ذاته، مرطبة بالدم، أو حتى لو كانت تشبه حشرجة الموت، فإنها لا تكفي لوصف حالة غريب الأهل والديار، حين يواجه موته المؤكد.

كانت تعلم إذا، وكان زوجها يعلم أيضا بقدرها المحتوم، لكنها كانت تعيش أيامها الأخيرة، دون أن تفصح عما يمكن أن يثير تعاطف أو شفقة الناس من حولها. هل كانت تؤمن بإمكانية حدوث المعجزة ؟ أم انه كان الإيمان العميق بالمكتوب، وأن الموت الذي هو حق ليس نهاية الكون ؟

ربما كان حرصها على الصغار هو السبب، فأن يتسرب الخبر إلى المحيط من حولها، يعني أنه يمكن أن ينتقل إلى صغارها، الذين صاروا حياتها من بعدها.

كانت تأخذهم كل يوم إلى السوق، تقضي الأيام الرمضانية، ككل الناس، تتجول وإياهم، يتنقلون من بائع لآخر، وحين تلتقي بمحض الصدفة بأحد المعارف، تسلِّم بابتسامتها المميزة، وحين جاء العيد، كان أولادها ككل عيد، وككل أترابهم في الحي، يعيّدون دون أن تشي حالتهم بوجود أي شيء غير عادي.

هي فلسطينية على أي حال، رغم ركاكة اللغة على لسانها، وفي هذه الأعوام الأخيرة، يستلُّ الناس الحياة هنا من فم الموت، بشكل عجيب.

الموت الذي صار مشهدا يوميا، ما عاد بمقدوره هنا أن يوقف سير الحياة، رغم انه يجيء مفاجئا وقسريا، يستلُّ الحياة من صدور فتية أجمل من الورود، يبتلعهم التراب، دون أن يختفوا من حياتنا، نحسبهم شهداء، فنشعر بأرواحهم تحلّق فوق رؤوسنا، لعل الموت في هذا الظرف هو ما يخفف مصابنا أخي أبا عمر !

- عظّم الله أجرك.

- شكّر الله سعيك.

كانت مفاجئة، إقامة ديوان العزاء، مثيرة للغضب في داخلي،و أنا الذي يكره الموت، كما لا يكره أي شيء آخر. وحين سألت جاري. قال: إنه لزوجة جارنا الذي يسكن في الدور العاشر.

ظننت للوهلة الأولى، بأن المقصود برج آخر مجاور، غير الذي أسكن فيه، وهذا يعني أنني أجهل سيدة الموت هذه المرة، لكن توضيحه اللاحق، لم يبق مجالا للشك من حدوث المفاجأة التالية.

إذا هي أم عمر، التي صارت اليوم تحت التراب، بابتسامتها العريضة، وجيرتها الودودة، وصار صغارها منذ اليوم أيتاما، أي شعور بالتعاطف والعزاء، يمكن أن يواسي هؤلاء ؟ أو أن يعوّضهم حنان أمهم الذي سيفتقدونه طول العمر ؟

ما أصعب الشعور حين تضع نفسك مكان الآخرين، تحاول أن تتحسس الأمر، لو كنت مكانهم، أنا الذي يعتصره الألم منذ افتقد أباه بعد عمر طويل.

كيف حدث الأمر يا صديقي ؟

وحدثني عن الأيام الأخيرة من اشتداد المرض الخبيث، الذي أكل صدرها.

لم نكن نعمل شيئا ؟ وماذا نقول ؟

فعلنا كل شيء، لم يقصر أحد معنا، لكنه القدر المحتوم.

ثم بدأ يحدثني عن مشاريعه، ويقلب لي أوراق كتابه الجديد، إنه رائع، ثم أخذتني حالته من أجواء الموت.

انقضت أيام العزاء الثلاث، ثم سارت حياة جيراننا كما هو المعتاد من الحياة، إلى أن جاءت ساكنة بيتهم الجديدة، تلك التي كانت قد اختارتها أم عمر بنفسها زوجة لزوجها من بعدها، وأما لأطفالها بعد مماتها. هل تعلم يا صديقي أنها أصرّت على أن تزوجني قبل رحيلها، حتى تطمئن علينا في مماتها، هكذا قالت، وهذا ما فعلت، وهذا ما حدث. فماذا تقول أنت ؟

- أنا ؟ ماذا عساي أن أقول ؟ كل القول لك أنت.

*****

حكاية أم عايد بين الراوي والشاهد

لم يثر ترّمل أم عايد أحدا، رغم أن وفاة زوجها المفاجئة، صدمت القرية بأسرها، فالرجل كان واحدا من رجالاتها المعدودين، موصوفا بالشهامة والرجولة، ويكفي أنه لمن عاش أيام الصبا، هو الذي فاز بأجمل فتيات القرية، التي تداعى إلى خطب ودّها كل شبابها، رغم ما قدمه البعض من إغراءات لأبيها، الذي كان يمكن أن يستجيب لطلبات بعضهم، ممن يملكون الأرض والعقار، لولا أن مارس محمد العايد حقه في كونه "عرق عين " الصبية، التي كان يتراسل وإياها بإشارات العيون، التي تقول أنهما لبعضهما منذ الولادة.

سارت حياتها طبيعية، ككل المترملات، أو هكذا يفترض الناس - فلا تبالغ يا صاحبي. (همس الكاتب في أذن الراوي)، فالأيام الأولى التي تخلو من ونيس الفراش صعبة للغاية، لا يلحظها الناس عادة هنا، لأن ظاهرة ترمل الزوجات تكاد تكون عامة. وقليلا ما يترمل الأزواج، وحين يتداول الناس في المجالس الأمر، يقولون بأن السر يكمن في أن الرجال يفنيهم العمل الشاق في مكابدة الرزق، أما الزوجات فهن جليسات البيوت، اللواتي يدخرهن الزمن لمواصلة العيش وتربية الأولاد، بعد فراق الزوج. والأزواج حين يترملون فإنهم سرعان ما يتزوجون، وبعضهم لا ينتظر فترة الأربعين يوما المفترضة للحداد.

لم تشهد المجالس يوما حكاية واحدة، تقول بان امرأة تزوجت بعد ترمل، وإن كان وحدث مثل هذا الأمر، فإنه سيكون حدثا مجلجلا حين

يحدث، لن يكون أمرا طبيعيا، وما كان ترمل أم عايد على أي حال قد حدث في وقت مبكر، يبرر لها أن تكون ضرة لواحدة من «سلفاتها»، أو حتى زوجة لأخ أصغر لزوجها، لم يتزوج بعد.

- لا يبدو أن في هذه الحكاية ما يثير (يتدخل الرقيب الذاتي للراوي)، فيرد عليه قائلا:

- حتى الآن ربما يا صديقي، لكنني أرجوك أن تنتظر قليلا، فعشرات الحكايا التي تتداولها المجالس في القرى النائية، لا تجد من يدونها، ربما لان أصحابها لا يتمتعون بالبريق الاجتماعي، الذي يحقق الإثارة لوسائل الإعلام.

وربما أيضا لان أمر أم عايد يبدو مألوفا لدرجة التسليم به كأمر واقع، أما أنا فلي رأي آخر يبرر لي أن أقوم بتدوين هذه الحكاية.

في حقيقة الأمر، لا أجد سببا يدعوني لتجاهل أمر هذه المرأة، التي كانت يوما وردة متفتحة، يأمل جميع شبان قريتها في امتلاكها، ووضعها على صدورهم، لكنها ومعها كل الحق آثرت ذلك الشاب، الذي ما كان يقلّ عنها تميّزا، وكان يثير إعجابها، خاصة حين يضع على رأسه غطاء الرأس، الذي كان ينشّيه ببلّة الريق، على مقدمته، ثم يضع فوقه العقال، فتبدو مقدمة الغطاء تحته كعرف الديك، دليلاً على الأنفة والكبرياء.

وماذا عساها أن تحلم عروس القرية الجميلة، بأكثر من شاب وسيم، يدرك في قرارة نفسه مكانته، فلا يخفيها ؟

يعود إليها كل مساء، فينتبه إلى أنها لا تكف عن تدليل ذلك الديك، الذي هو زوج دجاجاتها العديدات، وحين يستل سكينه للشروع في أن

يجعله وليمة للأولاد، تنتفض، وتقول له حرام عليك يا محمد، خذ ما تشاء من دجاجاتي، أما الديك فلا.

- ولم يا خديجة ؟

تضحك قائلة:

- لأجل النسل يا زوجي.

كانت تدلله وتغني له:

- عندي ديك إسمه مرسي

قاعد وحده ع الكرسي

وأحيانا كانت تحوّل اللازمة، وتقول:

- عندي ديك اسمه محمد

جالس وحده ع المقعد

وتضحك ملء شدقيها، وبعد أن ترملت، كانت تتذكر غناءها، فتعيده أحيانا كنشيج يتحشرج في صدرها بغرغرة العيون، التي ما عادت حوراء على كل حال، وصارت ترى بصعوبة.

لأم عايد كل الحق، فبوسع ديكها أن يضمن لها امتلاء «أخمام» دجاجاتها «بالصيصان»، رغم كل ما تستهلكه عائلتها من بيض، وهو باستطاعته وحده أن يقوم بذلك الواجب تجاه دجاجاتها، وبدونه ينعدم الحافز لدى الدجاجات في وضع البيض، فضلا عن التفريخ.

ثم أنظر أيها الزوج إلى عرفه الجميل، وصياحه كل صباح، الذي يشبه صوت الأذان، عليه نصحو لصلاة الفجر، وبه تستعد أنت مبكرا للتوجه إلى حقلك، وأنا لإعداد زوادتك، والقيام بكل واجباتي البيتية.

لم تتوقف المرأة المجربة يوما عن الحرص على الاهتمام باقتناء الديك يوما، وما كانت تسمح لزوجها بالتضحية به، إلا بعد أن يشيخ، ويترك وراءه ولدا يواصل المهمة بدلا عنه من بعده.

وما كفّت عن هذه العادة يوما، وواصلتها بعد وفاة زوجها، ثم بعد أن تزوج جميع أولادها وبناتها، ورحلوا عنها، وتركوها وحيدة مع التجاعيد والذكريات و «أخمام» الدجاج.

أما مرافقة الدجاج فملأت عليها الأيام الأخيرة من حياتها، بعد أن أغلقت عليها بابها، وأهملها الناس، فما عاد يراها أحد خارجه إلا يوم الجمعة، حين تضع في سلتها البيض، وأحيانا بعض دجاجاتها العاقرات أو المسنات، لتعرضها للبيع في السوق، ثم تعرج في طريق عودتها إلى دكان البقالة، تشتري ما تحتاج إليه من تموين.

وبعد أن جاء الأجل المحتوم، هرع أهل القرية، على صياح ديك في غير موعده، بدا كأنه زعيق غراب أو نحيب بوم، ينبعث من بيتها، والذي لولاه لما عرف الناس بخبر وفاتها، وربما ظلوا أياما يجهلون الأمر، حتى تنتشر الرائحة، وتصل إلى أنوفهم وهم في أحضان زوجاتهم.

كان الديك يقف على رأس الميتة مذعورا، ينقر في شعرها برفق كأنه يدعوها إلى أن تستفيق من نومها الذي تجاوز حده، وحين قام الناس بتكفين الجثة وحملها على النعش، شاهدوا ديكها يتنطط مذعورا، كمجنون لا يعرف ما عليه أن يقوم به.

وبعد يومين إثنين، كانت القرية كلها تتناقل حكاية الديك، الذي شوهد ميتا على شاهد قبر «الميتة» التي رافقها في أيامها الأخيرة. فيما

تجادل البعض لوقت في مغزى الحكاية، لدرجة أن واحدا من الشبان إقترح لحد الديك، فنظر إليه رجل كان «يعنقر» عقاله فوق جبينه، ثم مد يده والتقط الديك الميت من رجله، ثم لوح به بأقصى ما لديه من قوة، حتى تطاير بعض ريشه، في الوقت الذي هجمت فيه الكلاب على جثته، حيث التهم أحدها عرفه الدامي، الذي طالما أثار إعجاب المرأة التي همدت منذ يومين في مقامها الأخير.

*****

حلم معتاد

كان المكان هادئا ورائعا، يتنقل الناس فيه بهدوء وترتيب، كأنهم فراشات ملونة، وأنت تكاد لا تشعر بالجاذبية قط، وكأنك ولدت للتو، لا تشتهي شيئا إلا ويتحقق، لا مجال هنا للحكايا ولا للأمنيات، كأنك في عالم مطلق لا وجود للزمن فيه... إنه الجنة.

الفرح الداخلي والسلام يغمرك، فلا تعرف القلق أو الاضطراب، وليس في رأسك سوى الأغنيات، بل هي الموسيقى الناعمة، تنساب مع دقات قلبك. الأزرق يعم المكان، والبحر هاديء، وليس حولك سوى الورود من كل نوع ولون وشكل. إنها الدنيا التي هي أجمل من كل الأحلام وأبهى من كل الأماني، وليس سواك والمرأة التي تحب..امرأة مطلقة، ليس كما النساء أبدا، كل ما فيها يهمس بلغة القلوب والأفئدة. لا تذكر على الإطلاق أنها قد حدثتك بكلمة واحدة، لكنها مع ذلك أخذت عليك قلبك وعقلك.

كل الإشتهاء والإثارة التي تلبستك سنين طويلة، قد اجتمعت في لحظة واحدة . وما عدت تدري إن كان المكان هو الذي أضفى عليها الروعة، أم هي التي جمّلت الدنيا بأسرها من حولك. وكان من العبث أن تضيّع لحظتك في بحث لا طائل من ورائه...كل ما تتمناه.. أن تخطف منها قبلة تعيد إليك الحياة التي انطفأت، وما بقي منها سوى وميض بعيد، لكنها تفاجئك على حين غرة وتطبع على شفتيك أكسير الحياة.. ثم تفلت منك بإغواء يشعل النار في إرجائك.. تلحق بها، بعد أن تملكتك

طاقة خارقة، لتكتشف رشاقة الجسد وجنونه..

وحين تستسلم وتستلقي على سطح الرمال الناعمة، تلفها بذراعيك، ثم تضغط محاولا أن تحقق معادلة الكينونة، حتى يتوحد الكون من حولك، تنقلب على جنبك، فتصطدم أوصالك المتيبسة بالجسد النائم في جوارك، فتصحو، تنظر إليه، وتتذكر وعدك برحلة سياحية إلى بلاد الأندلس.

*****

صحفي وصقر

انقطعت أخبار الصحفي «مارك» فجأة، ومنذ يومين، لذا فقد أرسل رئيس التحرير على الفور من يستطلع أخباره. وحين وصل هذا إلى البلد الأفريقي، الذي يعاني من المجاعة، وجد زميله منتحرا، وفي يده صورة وحيدة، كان قد التقطها، بدلا عن التقرير المصور الذي كان مكلفا بإعداده.

كانت الصورة لطفل أسود يعاني من سوء التغذية، ومن فقر الدم، يزحف بقصد الوصول إلى الحزمة الغذائية، التي ألقتها منذ ساعات طائرة الإغاثة الدولية، فيما كان صقر يحلق فوقه، ينتظر موته، حتى ينقض عليه ويقوم بافتراسه.

*****

بيان شخصي جدا

أظهر الولد الذي هو أملنا في الدنيا، بعد أن جاءنا بعد وقت وبعد طول انتظار، بعد أربع بنات ولدن تباعا، ترددا وممانعة مفاجئة في الذهاب إلى الروضة، التي اعتاد البقاء فيها، طيلة ساعات الدوام الرسمي، ومنذ كان في سنته الأولى،بعد أن أمضت أمه إجازة الأمومة مباشرة.

الولد الذي كان لا يكف عن سرد حكاياه وقصصه مع زملائه الصغار، وكان لا يتوقف عن الإلحاح علينا في أن ندير له قرص الهاتف ليتصل بهم، ويواصل معهم، بعد أن يعود إلى البيت، الحديث واللعب.

الولد الذي طالما كنت أتعرض لمواقف محرجة، حين أذهب لإحضاره من روضته، في طريق عودتي من العمل، يتلكأ مرة بإبداء الرغبة في أن يركب الأرجوحة، في اعتلاء «السحسيلة» والانزلاق عنها عدة مرات، أو الذهاب إلى الكافتيريا لشراء حاجيات إضافية، ومرة في الاختباء عني، في رغبة واضحة لأن يمضي أطول وقت ممكن في هذا المكان الذي يحب.

حين كنت أفكر في الأمر، كنت أتفهم رغبته، وأبدي ارتياحا لها، على اعتبار أنه وسط أترابه ينمو نموا طبيعيا، خاصة وأنه الطفل الوحيد بيننا، بالنظر إلى فارق العمر بينه وبين أخواته، وحيث أنه يصعب عليه، كما يصعب علي أنا شخصيا، أن نكون صديقين، على اعتبار أننا الوحيدين اللذين ينتميان إلى جنس الذكور في بيتنا ذي الأغلبية المؤنثة.

فجأة، يظهر الولد ترددا في الذهاب إلى الروضة، لا يحث الخطى في

النزول من السيارة، ولا يسارع كما اعتاد سابقا إلى الركض إلى حيث فصله، والى حيث يكون أصدقاؤه.

أثار الأمر غرابتي، مما دفعني إلى أن أفكر في السبب، عساه يكون الملل من الاعتياد اليومي؟ سرعان ما استبعدت الفكرة، ففي هذه الفترة بالذات، يضجّ برنامج الروضة بالرحلات الصيفية والبرامج المتنوعة. لعله متضايق من بعض زملائه، من معلمته، من أحد ما. استوضحت الأمر من المعلمة، استبعدت هذا الاحتمال، لأن شيئا من هذا القبيل لم يحدث.

وحين سألته، أجابني على الفور، وكأنه كان ينتظر مني أن أفعل، منذ أيام، بأنه يخشى من الذهاب إلى ذلك المكان، الذي فيه «يهود».

فوجئت بالطبع من تفسيره، ثم سرعان ما أردفت قائلا: أي يهود يا بني؟

أشار لي بكل هدوء وثقة بإصبعه الصغير، حين كنت أفتح له باب السيارة، إلى عربة الجيب التي كانت تقف على باب الروضة، وتقلُّ مسلحين، لم يكونوا سوى مرافقي السيد المسؤول، الذي كان يصرّ على إيصال حفيدته بنفسه، إلى ذلك المكان الذي نعتاد على أن نودع فيه فلذات أكبادنا. حينها شعرت أنا أيضا بخوف شديد و بارتعاشه مفاجئه. وعلى غير ترتيب أو إعداد وبحركة تلقائية، قمت باستلال قلمي، وكتابة هذه القصّة.

*****

جرأة امرأة

ثلاثة أيام بلياليها مرت عليه، وما زال مصعوقا مما فعلته معه تلك المرأة، التي كانت قد لفتت إنتباهه، منذ أول مرة رآها فيها، هو الذي مرت عليه السنين الطويلة، وعاشر فيها كل أصناف البشر، ومرت عليه النساء من كل صنف ولون، وحين حط ترحاله إلى حيث صار مسئولاً، بإمكانه أن يعطي ويمنح ويهب ما يشاء لمن يريد، صار يبرمج حياته ويقنن علاقاته في الحدود الضيقة، حتى لا يحدث طاريء لم يكن في الحسبان، ينغص عليه برامجه، أو يثير التقولات من حوله.

لم يعد مغامرا كما كان من قبل، يسهر ويصادق النساء دونما ترتيب أو إعداد، يخرج في المساء ولا يعرف متى يعود، صار مسئولاً عن حياته، قبل أن يكون كذلك بالنسبة للآخرين، وهو الذي كان لا يتردد فيما مضى عن الذهاب بعيدا مع أي صديق عابر، أو أي رفيقة يصادفها هنا أو هناك. ما عاد يستقبل أحدا ممن لا يعرف إلا بعد الترتيبات اللازمة، التي تقتضيها أصول الإدارة الوظيفية، وتبعات المكانة.

يجلس منذ يبدأ يومه الوظيفي على مقعده الوثير، يراجع أوراقه وجدول أعماله، ولا يتلقى أي اتصال خارجي إلا بعد أن يمر على سكرتيرته الناعمة، لكنه رغم ذلك، وجد نفسه كما الكثيرين من أمثاله مضطرا حتى يكون شخصية عامة مقبولة، ووفق التعليمات التي تجيء من أعلى المستويات، لأن يذهب إلى المناسبات الاجتماعية، خاصة تلك التي تعقدها العائلة، حيث من غير اللائق أن تمر حادثة عزاء أو مناسبة

زفاف أو ما شابه، دون أن يذهب إلى ديوان العائلة التي صار كبيرها، أو إلى أهل الحارة من الجيران والأنسباء ومن شابههم.

على غير المألوف، لفتت انتباهه هذه السيدة التي تمت إليه بصلة القرابة، ليس بجمالها ولا شبابها، ولكن بشخصيتها، إستغرب في البداية من قوة شخصيتها، وهي المرأة غير المتعلمة تعليما عاليا، والتي لا تزيد عن كونها سيدة بيت وأم لسبعة أولاد، ترملت عليهم منذ عام، بعد أن استشهد زوجها، بعد اجتياح عابر.

وعلى غير ما التقى بهن من نساء هنا، كانت السيدة حين تتحدث، تكشف عن منطق تلقائي وعن قوة حجة وإقناع، لم تكن تلجأ إلى الصمت أو الاكتفاء بإلقاء النظرة الجانبية الخجولة. وفي دخيلته كان يحس، على غير كل من التقاهم، عدم انبهارها به ولا بمكانته، التي كانت تحيطه بهالة من العظمة أينما حل أو ارتحل.

كان في دخيلته أيضا يرّق لحالها، بعد أن جعل منها القدر الظالم مسئولة عن عائلة مكونة من ثمانية أشخاص، هي بمثابة الأم والأب لهم، وكانت هي تتوقع منه أن يبادر هو إلى القيام بما يفرضه عليه واجب القرابة على الأقل، فيوفر لها عملا شريفا تعيل به نفسها وأولادها. وحيث أنه لم يفعل، فقد أرسلت إليه مرة أباها، وأخرى أخاها، وثالثة أمها، لكنه كان يعدهم كل مرة بأن خيرا سيحصل قريبا، إن شاء الله.

مع مرور الوقت بدأت تتضح لها حقيقة هذا ومن هم على شاكلته، وفي الوقت الذي بدأت فيه الحياة تضغط عليها، لم تجد بدّا من عدم تفويت فرصة حضوره إليهم في تلك المناسبة العابرة، فطلبت منه أمام الجميع

أن يقرضها مائة وعشرة شواكل. فوجيء بالطبع من الطلب، ومن هذا التحديد للمبلغ، أجابته قبل أن يتوصل ذهنه إلى الإجابة، بأنها سترد إليه العشرة شواكل، أما المائة فإنها لن تردها إليه أبدا.

في اليوم التالي، كانت سكرتيرته تخبره، بحضور سيدة تدعي أنها قريبته، لحظات وكانت السيدة في مكتبه، تعيد إليه العشرة شواكل، وفي الوقت ذاته، كانت تكشف عن صدرها، وتقول: هذا ما أستطيع منحك إياه مقابل المائة الأخرى.

صعقته المفاجأة، وقبل أن يقول شيئا بادرته مجددا بالقول: كانوا قديما يقولون بأن الحرة لا تأكل من ثدييها. وأنا أقول بأني لو اضطررت لفعل شيء حتى يعيش أولادي، فان الأقربين أولى بالمعروف، على الأقل، تعرف أنت ما أفعل، ومالا أفعل، حتى لا تأخذك الحميّة، وتقوم بقتلي، لو فعلت هذا مع رجل آخر.

حينها غاص في مقعده الوثير، وودّ لو أن الأرض تنشق وتبتلعه، وودَ لو أن هذا الكابوس لم يمر في حياته، وحتى لو أنه ظل هناك صعلوكا يتسكع بين الحانات وفي الشوارع، ولم يأت إلى هنا ليكون مسئولاً بهذا الشكل.

*****

ضمير الأنا الغائب

قصص قصيرة جدا، تظهر ما يدور في الذات من إنكسارات ومفارقات لها علاقة بتغير نمط الحياة، إرتباطا بصيرورة الزمان.

إمتعاض

تصبب عرقا وهو يقرأ ...

يضيء الليل على العاشقين ...ويقرأ

انقضت ساعة، ثم نصف ساعة أخرى، جاء صوت أم كلثوم من بعيد:

يسهر المصباح والأقداح والذكرى معي..

كدت أهوي على وجهه بكفي، انتبهت في اللحظة الأخيرة، وكنت قد نهضت من مقعدي.

كانوا سبعة في القاعة الفاخرة، سبعة أشخاص فقط.

جمعت انكساراتي، وخرجت أجاهد أن لا يرى عابر سبيل دمعة وهي تنفلت من بين جفني.

*****

بئر أولى

ضغطت على فرامل السيارة بأقصى قوتي، واحتضنت طفلي، ثم استلقيت به على المقعد، كان الرصاص صاخبا أمامي، طائشا، وينهمر في كل اتجاه.

لحظات وكانت سيارة القتلة تمر من أمامنا.

بعد لحظات أدرت المحرك، وكان الولد ينظر صوب جدار حيث كان الرجل مكوّما على الأرض، مغطى بدمائه الحارة. توقفت عند أول محل للبقالة، سقيت الولد ماء باردا، ثم شربت أنا أيضا.

عرضت عليه أن يشتري ما يشاء، كان مشدوها، وكان بوسعه أن يفرغ كل ما في جيوبي، ويحقق كل ما يرغب في شرائه، لكنه أبى.

لفّنا الصمت فيما تبقى من مسافة إلى البيت.

كان الظلام دامسا وشاملا، توجهت إلى الفراش على التو، جاء واندس في حضني.

لم يمر كثير من الوقت حتى كنت أصحو لأجد الفراش مبللا. تحسست ملابسه، ثم ملابسي.

إنتابتني الحيرة، فيما السؤال يدور في رأسي:

أيُّنا كان خائفا أكثر من الآخر ؟

*****

وين سلاحك يا خال ؟

كنت أشعر نحوه كأنه ابني

ولأنه نبيه وذكي، فإني كنت أجمع ما يمكنني ادخاره و مما يتبقى من راتبي آخر الشهر، وأحضر له المفاجأة في عيد ميلاده الذي اقترب موعده.

وكنت أظن أن من شأن هديتي له أن توسّع من مداركه ومعارفه، وأن تنمّي مواهبه، وتتيح له فرصة التعرف على أصدقاء من شتى أنحاء العالم، وحتى أنها تمكنه من أن يمارس بعض الألعاب الذكية بين فينة وأخرى.

إلى أن فاجأني هو يوما حين سألني قائلا:

- أين سلاحك يا خال ؟

بتلقائية، وعلى الفور أخرجت من جيبي قلمي، وقلت له:

- ها هو !

لم يقبل ما اعتقده مزحة مني، وأضاف:

لا.. لا.. أقصد سلاحك الحقيقي.. أهو مسدس؟ ما نوعه؟ تسعة ؟ أربع تعش ؟ وألا كلاشن ؟

أكدت له أن لا سلاح لدي مما يعتقد، سوى هذا القلم. حينها رأيت انكسارا في نظرته، وحتى أني شعرت بأن مكانتي قد تضاءلت عنده، لدرجة أني احترت إن كنت سأقدم له الهدية، وإن فعلت هل سيقبل بها؟ أم أنه يتطلع لهدية من نوع آخر، أقصد من سلاح آخر ؟

*****

يحترق أمام الناس

لم يكن فيلما سينمائيا ما يحدث أمام ناظري، ولم أكن أنا إلا واحدا من عشرات المواطنين الذين كانوا يمرون بالصدفة في الشارع، وفي وضح النهار، واجتمعوا على صراخ الشاب الذي كان يؤدي عمله بإخلاص وعلى أكمل وجه، حين اشتعل الحريق، وحاصره في المكان الضيق.

باب حديدي مغلق، ونافذة تطل على الشارع، محمية بالحديد أيضا، والنار تشتعل وتقترب، ولا يقوى الصراخ، ولا محاولات الناس لفتح الباب على إيقافها. لحظات وكانت النار تمسك بثيابه، ثم تصل إلى أطرافه. يعلو الصراخ الذي صار جماعيا، ولا تحط المعجزة بردا أو سلاما على أحد.

وحين ساد الصمت، جاء صوت من بعيد ينذر بوصول الإطفائية. همد الناس، وجلس كل في مكانه، لا ينطق بحرف، وحده مراسل الفضائية غادر على عجل، فيما حل الظلام التام بالمكان.

*****

قتل على الهواء

الشاشة أمامي، والوحدة تطبق من حولي، واللقاء الخاص مع السيد مسئول الأمن يتتابع، في شرح أسباب حالة التردي:

تعود أسباب ما نحن فيه إلى ظروف محيطة، أصابع خفية تعبث بنا، ولا تريد لنا أن ننهض، لنقاوم..

عذرا سيدي الضيف، معنا اتصال هاتفي:

- إلحقونا، إنهم يحاصرون المنزل، هناك أطفال قتلوا، هناك أشلاء، يطلقون القذائف..

كان صوت الرصاص مسموعا. ثم فجأة، إنقطع الصوت..

خبر عاجل - قتل قبل قليل المواطن الذي كان معنا قبل لحظة على الهواء مباشرة، بعد أن حوصر منزله لعدة ساعات من قبل مجموعة مسلحة، تتبع السيد مسئول الأمن.

لحظة وكانت شاشة التلفاز قد تحولت إلى شاشة سوداء، بعد أن قمت في حركة لا إرادية بركل الجهاز.

*****

دهاء

كان يردُّ علي دائما بالقول، حين كنت أدعوه إلى إكمال نصف دينه، بأن هدايته لن تكون إلا على يد امرأة ! ثم انقطع عني وقتا طويلا ذلك الرجل، الذي تنقل بين النساء، كمن يتنقل في مسيره اليومي بين محطات الأتوبيس في مدينة مكتظة بالساكنين.

إلتقيته فجأة، دونما ترتيب، وكدت أن لا اعرفه.

- ما بك ؟ ما الذي غيرك ؟

وقبضت على لحيته، لأتأكد من أنها ليست شعرا مستعارا.

ضحك وقال:

كانت منقبة، ومجرد أن نظرت في عينيها، تبعتني، فأعجبتني الفكرة.

وهكذا تجنبت الأقاويل،مثلها تماما، وتفاديت الشكوك التي كانت تعكر مزاجي، وتأتيني من أمثالك.

*****

قلب موقوت

ذهبت تلك الأيام التي ما كان ينام فيها طوال الليل، ولا يرتاح فيها خلال النهار، نسيها ونسي صاحبتها التي فاجأته يوما بارتباطها بشخص آخر، كان صغيرا، وكانت حبه الأول. ما بقي في ذاكرته من تلك الأيام، ما يردده له أبوه، حتى يخفف عنه:

- يا بني حتى تكون رجلا، لابد أن يكون قلبك ميتا.

مجرد أن يتذكر الجملة، يضع يده على صدره، لا يكاد يسمع نبضا، فيرتاح.

فوجيء حين رآها على حين غرة، في يوم ماطر، أجمل كثيرا مما كانت عليه من قبل، إمرأة في كامل أناقتها، تمسك ولدا صغيرا بيدها، وتقطع الشارع. نظر إليها مطولا، لم تعره بالا، وما كان لها أن تعرفه، وهو يضع القناع على وجهه.

إحتضن سلاحه بقوة، وانزوى بعيدا عن جلبة الشارع.

كان المطر يرخ رذاذا، فيما كانت الساعة تتكتك، في صدره، تذكره بمهمته التي ينوي فعلها بعد وقت قصير.

*****

عبث

هي رقيقة وحساسة، وأنا شاعر موهوب، هي تتقن فنون الإغواء، وأنا بارع في الوصف بالكلمات. حين ترتدي ثوبا جديدا، أجدني مفعما بالهوى، وحين تبادرني بابتسامة، يجيش فؤادي. أما حين توحي لي برغبة، فإن الدنيا تشتعل من حولي.

أنا انتظر منها قبولا لموعد على العشاء، وهي تتوقع مني قصيدة. كلانا يعرف ما يريده الآخر منه، ونحن الإثنان متوافقان دون أن نبذل الكثير من النقاش.

- لدي زجاجة شمبانيا !
- يناسبك رأس السنة ؟
- يناسبني، ولكن لماذا هذا اليوم بالذات ؟
- هو يوم ميلادي.

انهمكت أكتب لها القصيدة. ستكون هديتي لها في عيد ميلادها. ستدير رأسها أكثر مما ستفعل الشمبانيا. وحين فرغت من نظمها، طبعتها، وحين هممت بإرسالها إلى بريدها الإلكتروني، انقطعت الكهرباء فجأة، وضاع كل شيء.

*****

غرف الحب

كان ينكمش على ذاته، متكوما في الزاوية، كأنه يخشى أن تهرب منه أعضاؤه. خيط رفيع يربطه بالحياة، كأنه روح فقط. النفس يروح ويجيء ببطء شديد. لا يحتفظ بشيء في رأسه المتورمة سوى بالخيالات.

في أية لحظة يهبط عليه الجحيم، ولا يذكر التفاصيل، الأيام والليالي متداخلة، وهو ليس أكثر من رقم، رقم مجرد من أي معنى. كل شيء بعيد، لا ذكريات ولا أحلام.. ليس سوى الأشباح والأخيلة.

تنفتح الكوة الضيقة، فتدخل حزمة حمراء.. لا يرى سوى السوط.. ثم ينفرج الظلام عن نهود داعرة. يغمض عينيه، ترتعش أجفانه، أفخاذ مشتعلة.. يد تشد يده وتمر بها على الأماكن الحساسة الشبقة.. وأخرى تداعب ما لديه، تنفلت منه اللحظة، وكأن كل ما تبقى لديه من حياة قد تجمع في ارتعاشه، وفي لحظة مباغتة، يلسعه السوط كرمح ينغرس في رأسه. يتكوم الجسد ويتقلص، ثم يلتصق بالجدار، فيحل الظلام.

*****

جرأة

القاعة ممتلئة تماما، فالجميع كان ينتظر هذه المحاضرة منذ أسابيع، وما إن دخل الأستاذ المحاضر حتى التهبت الأكف بالتصفيق. بعد أن حيا الأستاذ الجمع، جلس على مقعده، ثم نظر إلى آخر القاعة. أغلق الملف الذي كان قد وضعه أمامه، وتردد، فعلت همهمة بين الحضور.

وقفت، ونظرت إلى الوراء، ثم استأذنته. ذهبت إلى آخر القاعة. كنت أعرف أن جرأة الأستاذ ستمنعه عن التردد في الاعتذار.

- مرحبا سيد أمن، لا يحق لك أن تقتحم هذا الحرم، دون أن يكون لديك ما يسوغ حضورك. على الأقل كنت استأذن !

وقبل أن يقول شيئا، بادرته:

- ها هي بطاقتي.. إسمي ورقم هويتي، وعنواني.

ثم أخذته من يده،و أخرجته من القاعة.

عدت إلى مكاني، لأجدها قد غادرت مكانها في المقاعد الخلفية، وجاءت لتجلس إلى جواري.

شعرت بنشوة عارمة، ثم لم تسعني الدنيا بأسرها، حين وضعت يدها على يدي، وشدت عليها بحنان وحب.

*****

مجرد فارق في التوقيت

أضبط ساعتي جيدا، أُعدُّ برنامجي: حين أعود إلى المنزل، أتناول الغداء، ثم أمضي لقيلولتي. عند الخامسة، أخرج للأمسية. وفي السابعة أعود. أشاهد نشرة الأخبار، ثم أتناول فنجان قهوة. أقرأ الفصل الأخير من الرواية. بعد ذلك أتناول العشاء، وأنتظر الموعد بكامل لياقتي.

سأضع حدا للفوضى هذه المرة. لقد تعبت من التنقل والترحال، فمع هذه المرأة، يمكن لي أن أعيد ترتيب حياتي، ويمكنني أن أبدأ من جديد، لم تفهمني أية واحدة عرفتها من قبل، كما فعلت هي، وهذه المرة، سنتفق على اللقاء، ثم على كل شيء.

كنت في موعدي بالضبط، على الساعة العاشرة. فتحت جهازي، وانتظرت، لم تكن. ثم لم تأت. مرت الدقائق ثم ساعة كاملة ولم تأت. دقائق أخرى، ثم ساعة ثانية. توترت، ثم ثارت أعصابي، ولم أحتمل أن تكون قد عبثت بي إلى هذه الدرجة.

فجأة ودون تردد، انتابني الغضب، فقمت بحذف برنامج المحادثة.. وخرجت من المنزل. أشعلت سيجارة، كنت أنفث الدخان، فتتشكل أمامي دوائر على شكل امرأة واعدتني، لكنني فقدتها للأبد.

*****

يقرأ الفاتحة على نصفه الميت

مضى وقت طويـل على آخر مـرة زرت فيها ذلـك المكان، الـذي عادة ما أزوره في واحـدة فقط من حالتـين إثنتـين، فإمـا حـين أشـارك في تشييع جنازة ما، وإما في أحد العيدين، حيث أضطر إلى أن أذهب وحدي أو مع أخي وأبناء عمي، حيث نصلي عادة في المسجد الذي يقبع على أطراف المقبرة، قبل أن نتوجـه إلى أضرحـة أحبائنا الذيـن مضـوا، نقرأ الفاتحـة على أرواحهـم ونستذكرهم قليـلا، قبـل أن نعـود أدراجنا، تبلل وجناتنا الدموع، ويلفنا الصمت، إلى أن نغادر محيط المقبرة.

كل مرة أجيء فيها إلى هذا المكان يهالني ما يكون قد ازداد فيه من مقبورين جدد، حتى كدت آخر مرة أن أتوه عن مرقد عمي، كما كنت أمر بين الأضرحة بحذر وغالبا ما أضطر للدوران، حتى أتجنب أن تدوس قدماي ضريحا حديثا، لم يقم أقرباء الميت بعد ببنائه بالحجر الأبيض أو الأسمنتي.

هذه المرة ما لفت انتباهي كان أمرا آخر، فليس بعيدا عما كنت أقف أمام شاهد قبر عمي، أقرأ الفاتحة، كان يجلس على كرسيه المتحرك جارنا أيمن، أمام ضريح غير مشهر بشكل لافت، لكنه بارز عن سطح الأرض، أمام شاهد، كان يذرف الدموع، ولا يبدو عليه الخشوع المعتاد الذي ينتابنا عادة في حضرة ذكرى الراحلين.

إقتربت منه حتى صرت وراء ظهره تماما، وحيث أني اعتقدت أن

شخصا ما قد رحل من عائلتهم، حيث لابد لي أن أكسب أجر قراءة الفاتحة عليه، رغم أني قلّبت في رأسي كل من رحلوا خلال الفترة الماضية، وعلى كثرتهم، ومتوالية الغارات التي أودت بحياة الكثيرين، إلا أني لم أحدد بالضبط من الذي توفي من عائلة جيراننا ويمتُّ لأيمن بصلة القرابة الأولى، حتى يتجشأ عناء ومشقة الزيارة، وهو الذي فقد ساقيه قبل بضعة أشهر فقط في آخر غارة على الحارة، وكان يمكنه حتى أن يقرأ الفاتحة على من يشاء في المنزل.

قبل أن أرفع يدي وأبدأ بتلاوة فاتحة الذكر الحكيم، صوبت عيني إلى شاهدة القبر لأقرأ اسم الفقيد. وفي لحظة كنت أجدني مشدوها، حين قرأت: هنا يرقد النصف السفلي للسيد أيمن، الذي غادره بعد الغارة الجوية التي شنها طيران العدو على حارة الشجاعية...

لم أتمالك نفسي حينها، وفي لحظة كنت أحتضنه، أو ما تبقى منه، أي نصفه العلوي، ودون إذن مني كانت يداي تمسحان دموعه التي كانت تنزلق على وجنتيه بصمت.، ثم قمت بمسك مقبض كرسيه المتحرك، وأدرته بالاتجاه الآخر، وعدت به إلى البيت.

هوامش:

- أخبرتني أمه: انه منذ فقد نصفه السفلي، وصحته (في النازل) بعد أن فقد شهيته للأكل، وبات انطوائيا، لا يحب أن يراه أحد في هذه الحالة، وهو لا يخرج إلا لذاك المكان حيث التقيته قبل قليل.

- أما زوجته فقالت لي: إنه بات لا يطيق النظر في وجهي، بعد أن

حارب الدنيا كلها حتى يتزوجني، وأضافت بأن الدمع يكاد لا يفارق وجنتيه، فيما النوم جافاه وهو لا ينام إلا وهو جالس.

- أخوه همس في أذني قائلا: بأنهم قبل عدة ليال صحوا جميعا على صراخه وهو يحلم، حيث كان ينبش قبر ساقيه، ساعيا إلى إخراجها، وأنه سأله يوما إن كان الطب يمكنه أن يعيد تركيب الساقين، ولو على شكل ساقين إصطناعيتين له، ليتعكز عليهما ؟

- أخت صغيره له قالت لي وأنا أغادر، أن أيمن يرغب في الموت، فهو كل يوم يذهب إلى حيث "ساقاه مدفونتان"، ويعتقد أن الموت وحده يمكن أن يجمع بين نصفيه.

١٦/٤/٢٠١٠ - غزة

*****

على غير هدى

كان يشعر بسعادة غامرة، فقد حرّكت الفتاة مشاعره كما لم يحدث معه يوما من قبل، وأعادته إلى ذكريات المراهقة حين كان شابا في مثل عمرها، يسهر الليالي الطوال، على طيف أنثى. ثم حط عليه الهدوء والطمأنينة، فهو مع هذه الفتاة الشابة، المثيرة، يمكنه أن يعيد اتزانا لكيانه كان قد إفتقده منذ سنوات طوال.

بعد أن إنتصف الليل، وشاهد كل برامج التلفزيون، وبعد أن انتهى من (تشييك) إيملاته كلها، شعر بالنعاس يقتحمه على غير موعده، فاندس في الفراش مثل رجل ميت.

لم تصح زوجته على صوت شخيره هذه الليلة، لكنها صحت على هذيانه وهو يردد الاسم هدى.. هدى أحبك يا هدى... أموت فيك يا هدى.. أعشقك يا هدى... أرغب في أن أمضي ما تبقى من حياتي معك يا هدى...

لم تصدق الزوجة ما تسمع، ظنته ينازع سكرات الموت،، قرصته فتحرك مبتسما.. بلا مزح حبيبتي..

قامت من فراشها، وأضاءت الضوء الخافت باللون الأحمر.

ثم جلست أمام المرآة، ورغم أن الوقت قد تجاوز الساعة الثانية صباحا، إلا أنها أعادت مسح وجهها بالبودرة، ووضعت أحمر الشفاه، ثم قامت بخلع بيجامتها، ولبست قميص نوم مثير جدا، لم ترتد مثله منذ عشرين عاما.

إندست إلى جواره، وحضنته، ثم بدأت في تقبيله بقوة وعنف، حتى أيقظته. فزع من نومه، وحين حدّق في وجهها. ظنّ أنه في كابوس ؟

قرأت علامة السؤال على وجهه، فبادرته بالقول، لم أكن أعرف أنك تحبني إلى هذا الحد، الذي تهذي فيه بإسمي وأنت نائم.

تساءل مجددا، لكن في سرِّه، دون أن ينطق بالكلمة، أنا ؟

طول وأنت نايم تقول حبيبتي هدى، بزهو قالت.

ضحك في سرِّه، وشكر ربه كثيرا، لأن تشابه الأسماء وفّر عليه كارثة كانت ستقع على رأسه، لو كان إسم زوجته يختلف عن اسم تلك الفتاة التي تعرّف إليها للتو وتعلق بها بكل كيانه.

١-٤-٢٠١٠

*****

سكون الليل

- لا، على غلط، الصحيح هو عن.

- أنا أحس بها هكذا.

وتتطلع إليه، كأنها ترغب في أن تنشق الأرض وتبتلعه بين شقوقها.

كم هو جاف هذا الرجل، لا يكاد يهدأ طوال اليوم، كثير العمل، بالغ النشاط، وهو فوق كل هذا وذاك، دقيق للغاية، لا يسمح بمرور حرف خارج إطار النظام، الذي يسير بفضله في منتهى الدقة والانتظام.

في حقيقتها لا تخفي شعورها ببعض الإمتنان نحوه، فهي قد تعلمت منه الكثير من تفاصيل مهنة الصحافة، التي خبرت عمليا معنى وصفها بمهنة المتاعب. أما هو فلا يكاد يذكر أنه رآها يوما دون بنطالها الجينز، أو هيئة العمل الجادة، ولم يذكر يوما، وهو شديد الحساسية تجاه الانثى، التي يشم رائحتها عن بعد، أنه إنتبه يوما إلى أن غادة إنما هي أنثى أيضا.

هي زميلة عمل، وهو كذلك.

في السهرة التي جمعتهما تلك الليلة كان كل شيء مختلفا، كان هو في منتهى الرقة والأناقة، يوزع إبتساماته في كل إتجاه، وهي كانت أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى، بفستانها المثير، وعطرها وتسريحة شعرها، حتى أنه بحلق فيها لحظة رآها، وكأنه إنما رأى واحدة تشبه تلك الغادة، الزميلة في العمل.

على العشاء كان يهمس في أذنها وكانت هي تبدو في عالم آخر، على ضوء الشموع،حين تقدمت لتضع في فمه ملعقة الحلوى، شعر بحب

نحوها، وهي شعرت نحوه بالإنفتاح كله حين تقدّم بنصف ما في فمه من الحلوى، ليضعها من بين شفتيه بين شفتيها، أما حين اقترب منها، ليمسك يدها للرقص، شعرت برجولته لأول مرة، فيما هو شعر نحوها بانجذاب مذهل.

كان الفراش دافئا، وكان النوم هانئا، طلع الصبح مبكرا، ودّ كلاهما لو تطول عطلة نهاية الأسبوع، شعرا معا، أن العمل مملٌ جدا، وافقت على الفور حين اقترح عليها إجازة طويلة يقضيانها في مكان ناء، بعيدا عن كل أجواء المهنة.

*****

رسالة إلى ميت

إلى علاء كاتبة

رغم أن انقطاع الكهرباء أمر مزعج للغاية، إلا أن له بعض الجوانب الإيجابية، فما أن ينقطع الحبل السري الذي يربطنا عبر الكمبيوتر والتلفزيون بالعالم الخارجي، حتى يعود كل منا من غرفته التي أنطوى عليها منذ وقت لنجتمع في الصالة، نتحدث معا، أو ينشغل بعضنا بجواله، يرسل عبره رسائل (sms) أو حتى يدير مكالمات مستحقة عليه، وانشغل عنها وقتا.

صارت عادة عندي أن أدير قائمة الجوال لأتفقد أسماء أصدقائي المخزنة أسماؤهم في قائمتي، حتى أذا ما شعرت باشتياق لأحدهم، أو إذا ما أحسست بأنه قد طال الوقت على عدم تواصلنا معا، أدرت الرقم دون تردد، لأضع حدا لانقطاع طال أمده.

القائمة تتكون من جزأين، أول مكتوب بأحرف لاتينية، وثان مكتوب بالأحرف العربية، وطبيعي أن الدخول للأحرف اللاتينية يبدأ أولا ومباشرة، في حين أن البحث عن أسم مكتوب باللغة العربية يحتاج إلى الذهاب للبحث، وهكذا.. وجدت نفسي أبدأ بأول أسم يبدأ بالحرف (a) ولم يكن سوى علاء، اوووة علاء

كم اشتقت لك

أين أنت يا صديقي

وأرسلت الماسج

جاءتني إشارة الفشل في الإرسال

عاودت الكرة، ومرة ثالثة ورابعة إلى أن انتابتني حالة عالية من النرفزة.

ضغطت على مفتاح الاتصال، وأنا أستشيط غضبا، وقد نويت أن أوبخ صديقي، الذي لم يكتف بأن اختفى عني كل هذا الوقت، بل إنه يغلق جواله، فلا يستقبل رسائلي ولا مكالماتي.

علاء ! إنه أعز الأصدقاء على الإطلاق، ياه كم هي الحياة سخيفة، وكم نحن قساة على أنفسنا قبل أن نكون كذلك على الآخرين، كيف طاوعني قلبي يا صديقي أن أغفل عنك كل هذا الوقت ؟

وكيف طاوعك قلبك أنت أيضا أن تحتمل غيابي عنك كل هذا الوقت ؟

لابد أن تكون غاطسا مع حب جديد ! أو تراك تكتب نصا جديدا، أنا الذي يعرفك أيها «الثور» الذي يمتاز بالجلد كله، لكنه في لحظة واحدة يدمر كل شيء، كما البغال التي تحرث الأرض وتنزف كل العرق، ثم تعود بالحرث إلى ما كان عليه في لحظة.

تعال يا صديقي وأنا أعدك بوجبة فستق ساخنة، تريد نبيذا ؟ طلبك صعب هذه الأيام، لكني أعدك بأن أبذل كل ما بوسعي، إنتظر.. تذكرت لقد عصرت قارورة ما زالت مخبأة بين أدوات المطبخ، أظنها صالحة.. هي لك.. إشتقت للحوار معك.. لقد قرأت كثيرا عن العولمة.. تعال لأثبّت وإياك معلوماتي.

إنتبهت إلى أني قد أطلت الرسالة، بحيث احتاج الأمر إلى أكثر من عشر مرات لإرسالها.

رغم ذلك فإن محاولات الإرسال كانت تفشل كل مرة.

خزنت ما كتبت في الذاكرة

أدرت رقم الموبايل قاصدا الإتصال به

- الرقم الذي طلبته لا يمكن الوصول أليه، حاول لاحقا من فضلك.

حاولت وحاولت، ثم انتابتني موجة غضب عارمة، لا تحدث معي إلا في الأوقات العصيبة، ألقيت الجوال إلى أبعد مكان يمكن أن تصل به طاقتي.

ثم خرجت من البيت.

صادفت صديقنا المشترك (احمد الحاج).. كان مستعجلا.. إقترح علي أن نبدأ التحضير لإقامة إحتفاء يليق بمناسبة مرور عام على رحيل علاء.. ضربت يدي على جبيني.. كأنَّ قطارا قد صدمني للتو..

للمرة الألف أقول لك: لا تعاود هذه النكات السخيفة.

ففي أي لحظة سيباغتنا علاء بطلّته ضاحكا من سذاجتنا، مقبلا يقضم حبات الفستق كما كان يفعل دوما، حاملا حقيبته حول كتفه، كمن يتأبط ذراع حبيبته.

غزة - ١٧/ ٣/ ٢٠١٠

*****

حاجز تقني

صحا مبكرا، أخذ حمّاما ساخنا، ثم حلق ذقنه، رش على جسده عطرا، دخّن أكثر من سيجارة.

وقفت أمام المرآة طويلا، جرّبت أكثر من لون على شفتيها، وضعت مكياجا خفيفا، لكنه كان ساحرا، رشت حول عنقها زخات من عطر باريسي فاخر، راجعت مظهر جسدها بفستانها الضيق المثير، أكثر من مرة.

كأنه في حلم، وهو يجلس أمامها على المائدة، لا يشعر بوحشة المكان المكتظ بالناس، هي أيضا شعرت بعظمتها في حضرة رجل مميز.

وضع النادل أكواب العصير أمامهما، إقترب بالكوب من فمه، رنّ جهازها المحمول، تراجعت بكرسيها قليلا إلى الوراء. ثم راحت في حديث لم يسمع منه شيئا.

إنتابه شيء من التوتر، إرتشف بعضا من العصير.

طال حديثها، الذي سرعان ما إختلط بهمسات، ثم ضحكات، فضحكات مجلجلة.

إمتدَّ انصرافها عنه، حتى فرغ من شرب العصير.

هبّ واقفا، وضع نقودا في صحن كوب العصير، ثم غادر المكان، عند البوابة، إلتفت إلى حيث كان يجلس، كانت لا تزال تتحدث في محمولها، حتى أنها لم تنتبه لمغادرته صحبتها.

*****

موبايل - نت
كليكات مشاغبة

مجموعة قصص رقمية

إلى يونس، محمد، سلاف،نور، وكل الأصدقاء الذين شكّلوا معي عالما افتراضيا ساحرا.

إيميل مزدوج

مرّ الوقت على تامر كأنه الفراغ، لا يشعر بما يدور حوله، فهو منذ تلك المحادثة التي جرت قبل نحو ساعتين، بينه وبين منار، يتأمل الكلمات، كلمة ... كلمة، ويتخيل الفتاة كطيف لا أحلى ولا أشهى، حتى انفتحت قريحته على الشعر، فراح ينظم، وهو في حالة من الهيام اللذيذ، لم يعرف مثيلا لها من قبل.

ودّ لوأنه انساب عبر الضوء، أو أنه عاش عمره كله في إطار الشاشة، لا يغادر هذا العالم الساحر، الذي كلما أوغل فيه، كلما شعر بتحرر تام من الجاذبية، التي طالما كانت تشدّه إلى وقائع وأحداث لا إرادة له فيها، فضلا عما تحيطه به من مسببات النكد والضغط.

- تامر، قم راجع دروسك.
- تامر، إذهب، أحضر لنا ربطة خبز.
- تامر، هل دفعت فاتورة الهاتف ؟
- تامر، أين دواء الضغط الخاص بأبيك ؟
- تام ... تامر ... تامر

حتى إذا ما هدأ الصخب من حوله، وغطّ الجميع في نوم عميق، إندس إلى حيث الدنيا غير الدنيا، حيث يمكنه هنا أن يمتطي بساط الريح، يتجول بين الأماكن حيث يشاء، دونما حاجة إلى جواز سفر، أو إلى تذكرة قطار أو طائرة. وحيث يمكنه هنا أن يرتدي طاقية الإخفاء، كما لو كان ممثلا، يختار أن يؤدي الدور الذي يحب.

يستعرض تامر كل مواهبه التي ظلت حبيسة السنوات الماضية، مرَّة يدخل على أنه رجل أعمال، يبحث عن عاملين وعاملات للإنخراط في شركاته التي تمارس أعمال شتى، وتقدم خدمات متعددة. وتارة يكون طبيبا نفسيا، يقرأ الشخصية والطالع، ويتقن علم الفلك، يتعرف على مشكلة هذا، ومعضلة تلك. ومرَّة يقدم نفسه، على أنه ولد مدلل، لا يعرف كيف ينفق المال الذي يمنحه إياه أبواه ... وهكذا تنقَّل تامر بين المواقع، وغرف المحادثة، لا همَّ له سوى أن يمضي الوقت المثير، كل ليلة مع فتاة من صنف جديد.

هذه المرة، أثارته، على الأقل، هذه الليلة، الفتاة منار، أثارته بظرفها وخفة دمها وحضورها. سحرته بكلماتها وذكائها. وحيث أنه كان يعلم بأن الحديث لابد أن يصل إلى خاتمة، ظل يفكر بعد أن انتهى الحديث بينه وبينها، في الطريقة التي يأسر فيها قلبها، ويسلب لبَّها، حتى تظل تفكر فيه، إلى أن يجيء موعد المحادثة التالية.

توصل تامر إلى ضرورة أن يكتب لها إيميلا بين المحادثة والمحادثة، ثم استعان بقدرته على كتابة الشعر، وقول الكلام الجميل المعسول، وهكذا كان أن نظم لها عدة أبيات من الشعر، سرعان ما قفز من فراشه، وسارع إلى حاسوبه، يصفُّ الكلمات، ثم يضمنها بالأيقونات والمعبرات عن المشاعر الملتهبة.

وبعد أن نسَّق رسالته، على أفضل صورة وشكل، وضع عنوان بريدها الإلكتروني، ومن ثم (send)، شعر بعد ذلك بارتياح، ثم نظر إلى ساعته، كانت تشير إلى الثالثة صباحا، أطفأ الجهاز وكذلك النور، وأندس في

فراشه ونام.

في اليوم التالي، ظل تامر طوال يومه يفكر في رد فعل حبيبته، على إيميله الغرامي، فهي كما أخبرته فتاة رومانسية تحب الكلام الجميل، وتقدّر المشاعر الصادقة، مرّ يومه ثقيلا وطويلا، في انتظار أن تأتي اللحظة الفارقة، التي تنقله من عالم يسكن فيه، إلى عالم يسكنه، حتى إذا جاءت اللحظة، سارع من توّه إلى فتح بريده الإلكتروني، متوقعا وراغبا في الوقوف على الرد، الذي لابد أن يحمل له بشرى تعلُّقِ تلك الفتاة به، وإعلانها حبها له.

كما توقع تامر، أخبره بريده الإلكتروني بأن لديه رسالة جديدة، لم تُقرأ بعد، سارع إلى فتحها، ومن ثم قرائتها:

- عزيزي تامر، أشكرك جدا على الشعر الجميل، الرقيق. لكن أعذرني فأنا لا أعرفك، أعتقد أنك قد أخطأت العنوان، ربما كنت تقصد شخصا آخر.

دارت برأسه المفاجأة، دقَّق في عنوان المرسل إليه. نعم هناك خطأ بسيط، لكن هذه منار أيضا، هي فتاة أخرى. فكَّر فيما يمكنه أن يفعل ؟ عاد ونسخ رسالته مرة أخرى، ثم أرسلها إلى مناره الأولى. ثم كتب إيميلا آخر، يعرّف فيه عن نفسه، وأنه شاب أعزب يبحث عن فتاة مهذبة، استثنائية وجميلة، لتبادله حبا عميقا بحب عميق. ثم ختمها بسؤال، إن كان يمكنه أن يتعرف إلى الآنسة.

أرسل تامر إيميله، وقبل أن ينتظر الرد هذه المرة، قام بإضافة بريدي الفتاتين إلى قائمة الأصدقاء لديه. ومن يومها اعتاد أن يكتب رسالة

بريدية واحدة، لكنه فقط، يقوم بمضاعفة عنوان المرسل إليه:

to: manar __@hotmail.com

to: manar -@hotmail.com

وهكذا ظفر بحب الفتاتين في آن واحد، وبأقل جهد ممكن، وظلَّ ينتظر أيهما ستقوم بتلبية رغباته أسرع من الأخرى، ليمسك بها، ويعلنها حبيبته التي اختارها دون غيرها من كل بنات الكون الإلكتروني، اللواتي يعج بهن عالم ساحر، فاق خيال الفتى، المرهق بنظام أبوي صارم، يعد عليه أنفاسه، ليل/مساء، منذ أن يصحو من النوم، والى ما قبل أن تبدأ رحلة أحلامه الجميلة بقليل.

*****

فولت ماسج (لا أحد)

× رمز الموبايل - رنة ماسج

تناول لؤي محموله النقال، وفتحه

- وينك يا قاسي ؟

من امبارح لا شوفتك ولا سمعت حسك

هيك يعني ؟

طيب أنا زعلانة منك كتير.. كتير

زعلان emotion

يدقق لؤي في رقم المرسل، يتفاجأ، يدقق مجددا، يتعجب، من تكون هذه ؟

احتفظ بالكود الدولي في ذهنه، ثم قام بمراجعة كل مدونات الأرقام في محموله، خاصة تلك الأرقام التي تحمل الكود الدولي ذاته ... لم يجد للرقم شبيها حتى.

من تكون إذا ؟

من تكون هذه أل (مروه) ؟ ربما تكون واحدة ممن يلتقيهن عبر الإنترنت، ولأن الفتيات عادة ما يتحفظن عن كشف أنفسهن، وليس كما الشباب، فربما تكون مروه هذه واحدة ممن يكون قد "دردش "معهن لبضع دقائق، ثم ذهبت لأن وقتها الذي حجزته في الكوفي/ نت قد انتهى، بعد أن تكون قد أخذت منه رقم موبايله الخاص، حتى لا يفقدان وسيلة الاتصال بينهما، هذا في حال فقدت هي أو هو لأي سبب ما، الباسورد، أو

تعذَّر فتح أل (id) الخاص بهما.

لؤي تعلّم أن يعدّد وسائل اتصاله مع أصدقائه البعيدين، وهو دائما ما يتبادل أرقام الهواتف النقالة الخاصة مع أصدقائه الجدد، لأكثر من سبب. الأول - دفعته إليه التجربة، حين تقرصن أحدهم على بريده الخاص، وسحب منه أل (id) الخاص به، والثاني - خاصة مع الفتيات - يجعله الإتصال عبر النقّال قريبا منهن في أي وقت، وليس معلقا بخيط الضوء الإلكتروني، الممتد بينهما عبر الشبكة الإلكترونية.

كذلك هو يوحي بالخصوصية، وبأنه ليس ولدا صغيرا، أو أنه معدم لا يمتلك ثمن هاتف نقّال. كذلك هو يطرب عند سماع الصوت الأنثوي، الذي كثيرا ما يثير فيه لذة لا حدود إلى وصفها، خصوصا حين يهمس في أذنها نكتة، تطلق على أثرها ضحكة مثيرة، فيما هو يتقن استخدام صوته العذب، المدرب جيدا، من خلال هوايته في ممارسة الغناء، كوسيلة لكسب قلوبهن. ثم إنه وعبر الرسائل الهاتفية، أمكنه أيضا إقناع كثير من الفتيات بثقافته وخصوصيته، فهو يحفظ كل أغاني الفيديو كليب عن ظهر قلب.

فتح جهازه، إستعرض عبر قائمة أصدقائه، كل الأسماء، لم يكن بينهم اسم مروه، ربما كانت هي (سويتي جيرل) ؟ ميمي ؟ البنت الدلوعة، أليسا نمبر ون ؟ أنا هيفا ؟

وحين عجز عن تحديد صاحبة الرسالة، ما كان عليه سوى أن يكتب الرد، ويعيده إلى الرقم ذاته.

- موبايل

- حبيبتي سامحيني

بس انشغلت شوي

امبارح اتصلوا في ستار أكاديمي

بحبك

ما بقدر على زعلك

أشوفك الليلة على النت ؟

الساعة ١٥، ٩ بالزبط

اوكي ؟

قبلة، وردة، قلب emotion

ذهب لؤي إلى السوبر ماركت، إشترى علبة (برنجلز)، سار إلى الكوفي/ نت وهو يقرمش شرائح البطاطا، سحب الكرسي، جلس أمام الجهاز، فتحه، سارع إلى تشغيل برنامج يا هو، لم يكن أحد من أصدقائه موجودا أون لاين، فتح برنامج هوت ميل، لا أحد أون لاين، برنامج بال توك، مكتوب، دردشة الحواري، لا أحد ... لا أحد.

وضع السماعة على أذنيه، شغّل برنامج طروب، كانت نانسي تغني له، آه ونص. ﴿ يمكن تحميل برنامج الأغنية ﴾

يقرمش لؤي شرائح البطاطا، ويسمع نانسي، وكل لحظة يضغط كليك، على كل برامج الحوار واحدا اثر واحد، يتطلع إلى قوائم أصدقائه، لا أحد اون لاين، لا أحد. صارت الساعة التاسعة والنصف، ولا أحد. فرغ من قرمشة شرائح البطاطا، دخَن سيجارة، صارت الساعة العاشرة، ضغط كليك على قوائم أصدقائه.. لم يتغير شيء منذ جاء.

وضعها جميعا على حالة (في الخارج)، وخرج إلى المطعم المجاور، أخذ ساندويتش شاورما، مع علبة كوكا كولا، وشرع يأكل، وهو يفكر في أمر هذه المروه، التي يبدو أنها قد زعلت منه فعلا. من تكون ؟ ولم زعلت إلى هذه الدرجة ؟ لا بد أنها تحبه بجد.عاد إلى الكوفي/ نت، نظر إلى الجهاز، لا أحد قد جاء في غيابه، ولا أحد قد ترك له، لا ماسج أون لاين، ولا رسالة عبر البريد الإلكتروني. لقد تأخر الوقت، ويستحيل أن تخرج فتاة في هذا الوقت إلى الكوفي/ نت حتى لو كان بالجوار.

ماذا أفعل ؟

خرج وهو يشعر بشيء من عدم الرضا، فاجأه مكتب الاتصالات أمامه، قفزت إلى ذهنه الفكرة. على عجل، طلب الرقم ... جاءه الصوت ساحرا، رقيقا، ومثيرا، على الطرف الآخر.

- من ؟

- أنا لؤي يا مروة..

- مين لؤي ؟ هل أعرفك ؟

أنا لؤي.. أنا ...

نظر إلى السماعة، تأملها، وضعها، ثم غادر في هدوء.

*****

عبّي لي كارت

ما كاد يرتشف أول " شفَّة " من فنجان قهوته، يرفقها بأول " سحبة "سيجارة، حتى كان صديقه وليد يفاجئه، ويدخل عليه مكتبه، على هيئة أقلقته، وقبل أن ينطق بسؤاله عن السبب الذي دفع صديقه إلى زيارته المباغتة والمبكرة، بادره بالقول:

- وينك يا رجل صار لك أكم يوم مختفي ؟

أشار بإصبعه إلى جهاز الحاسوب، ففهم صديقه بأن هناك عملا جديدا، دفعه إلى الاعتكاف كالعادة. ثم قال له:

- تعرف الصدفة وحدها أنقذتك، كان يمكن أن تأتى ولا تجدني.

- طيب، وأنت ليش قافل جوالك ؟

- يا عزيزي، بتُّ اكره هذا " النقَّال "، تقتحم الناس عبره خلوتي، ولا يتركون لي الفرصة لأفكر كما يجب، خاصة حين أكون غارقا في عمل فني جديد.

- غيّره !

- ؟؟

اقصد غيّر الشريحة.

- والله فكرة.

وعلى الفور قام وليد بفتح موبايله، وسحب منه شريحته،و أعطاه إياها.

- وأنت ؟

- أنا ؟ لا تقلق عليَّ، لدي العديد منها.

ثم اقترب منه، وتطلع إلى الجهاز أمامه.

- وينها يا سيدي اللوحة ؟

حرّك الأستاذ عوني الفأرة، وضغط " click " على مجلد جالري، ثم على الفايل " أنثى " .

ارتسمت اللوحة أمامهما

﴿ هنا يمكن الاستعانة بلوحة فنان ما والإشارة إلى ذلك ﴾

- ما رأيك ؟

تأمل وليد

- ليش الصدر بارز إلى هذه الحد ؟

ضحك عوني

- إنت إيش فهَّمك ؟ مية مرة قلت لك، بأن أول ما تراه أنت هو ما أود أنا التركيز عليه. وإن هذا يعتمد على زاوية الرؤية التي أرسم منها.

- طيّب ما علينا، أراك الليلة.

- أتصل بك.

- أوكي، نلتقي.

ثم سلّم عليه، وخرج.

قام الأستاذ عوني بفتح موبايله، وأخرج شريحته، ثم وضع الشريحة الثانية، وفتح المحمول. وما هي إلا دقائق حتى كانت تنطبع عليه (miss called) .

أعاد الرقم، وهو الذي اعتاد على من يتصلون به، بهذه الطريقة، وقام

بإجراء الاتصال. جاءه صوت مثير على الجانب الآخر.

- وينك ؟

- بالمكتب.

- شو ما بدك تعبيلي كارت ؟

تحت أمرك.

متى ؟

- في الحال. لكن من حضرتك ؟

ضحكت ضحكة مجلجلة. تدارك الموقف

- أنا مو وليد، أنا صاحبه.

- ما بتفرق. شو بتحب تسمعني ؟

- ماذا تريدين ؟

- حط النقط على الحروف، قبل ما نطلع سوا ع الرووف

﴿ هنا يمكن إضافة مقطع صوتي من الأغنية﴾.

لمعت في رأسه الفكرة المجنونة، فاللوحة ما زالت أمامه.

- أيمكن أن أراك ؟

- إيمتى ؟

- في المساء

- وين ؟

- عندي في المرسم.

ثم أعطاها العنوان.

في المساء، وقبل الموعد، كان يعدُّ أدواته، نصب الحامل، وحضَّر الألوان،

وكان يقول في سرِّه، لو كانت هذه المرأة جميلة ومثيرة كما يوحي بذلك صوتها، فان اللوحة ستكتمل حتما.

حين فتح لها الباب، وقف مشدوها يتأمل قوامها، دخلت وجلست على أول أريكة، استأذنها في أن يعدَّ لها فنجان قهوة، فيما سحبت هي سيجارة من علبتها، وبدأت تدخن، وتتأمل أرجاء المكان.

كانت الماء تغلي، وكانت أفكاره تتواثب إلى رأسه، أيمكن أن توافق على أن تكون موديلا للوحتي الجديدة ؟ كيف يمكن له أن يصارحها ؟ أفضل طريقه هي أن يقوم بعرض ألبوم لوحاته عليها، ثم يعرض عليها الأمر بالتدريج.

وحين عاد إليها، وضع فنجان القهوة أمامها، رشفت منه وصرخت:

- اووووه مرة ؟

إرتبك

- أنا أشربها هكذا.. آسف.. أحضر لك سكرا؟

- مو مشكلة، لا تعذب حالك.

ثم قامت بفتح جهاز التلفاز، كانت آخر محطة أقفل عليها، واحدة من محطات (Hot Bird). سرعان ما أقفلتها على عجل.

نظرت إليه، وقد بدا عليه الارتباك، إبتسمت، ثم قامت من مكانها، وجلست بجواره ملتصقة به. كان شريط المحطة قد قفز إلى مخيلته، في الوقت الذي كانت فيه قد بدأت تفك له أزرار القميص .

*****

طلاق نهائي

في العمل كانت وفاء معتادة، على أن تقوم بطباعة كل ما تقتضيه المصلحة من أوراق ورسائل ومكاتبات، وفي وقت الفراغ، تتسلى بسماع أغاني الطرب الخفيف، وتستغرب من زميلاتها اللواتي يدخلن إلى غرف المحادثات، يقضين الوقت فيما لا ينفع بشيء، حسب اعتقادها، لكنها بعد وقت التمست لهن العذر، وهن اللواتي لم يطرق النصيب أبوابهن، عسى أن يجدن، عبر هذه البوابات المفتوحة من يقتنع بإحداهن، فيطلبها للزواج.

وكانت أحيانا، حين يزيد ضغط العمل عليها، تأخذ بعضه إلى البيت، تنجزه، فيما يكون زوجها مشغولا عنها خارج البيت، إما بحكم عمله، أو لتلبية بعض انشغالاته، ومحاولاته الدءوبة لزيادة دخله، خاصة وان عمله ليس ثابتا، إلى إن دبَّ الخلاف بينهما، ووصل به الأمر إلى حدود أن يرفع يده عليها، حينها ثارت في وجهه، تدافع عن كرامتها، وفي لحظة توتر وغضب، ألقى عليها يمين الطلاق.

لملمت وفاء ثيابها، وعادت إلى بيت أهلها، تملأ مآقيها الدموع، ويعتريها الأسف، لما آل إليه مصير زواجها، الذي اعتقدته، قبل عامين، قد أمَّن حياتها، ورتَّب مستقبلها، حيث يمكنها مع زوج مناسب، أن تبني حياتها معه لبنة.. لبنة.

مرّت أيام عليها، وكأن شيئا كثيرا لم يتغير في حياتها، فهي تواصل حياتها من العمل إلى البيت، وما اختلف عليها شيء سوى وجهة البيت،

التي تحولت من بيت زوجها إلى بيت أهلها، حيث أمها وأبوها واخوتها الصغار.هي تعرف مغزى النظرات التي تتطلع إليها على اعتبار أنها مطلقة، لكنها في الوقت نفسه، تدرك أسبابها المخففة، فأبواها لا ينظران إليها نظرة من تثقل عليهم بوجودها، كونها منتجة، تعود إليهم آخر الشهر، بمرتبها الذي يساعد على مواجهة متطلبات الحياة واعالة أخوتها، الذين منهم من هم في المدارس، ومن هم في الجامعات.

ولأن وفاء في أيامها الأولى، عند أهلها، ما كان بمقدورها أن تشتري حاسوبا خاصا بها، لسببين: أما الأول - فهو أنها لم توفر بعد ثمنه. وأما الثاني - فهو أنها مازالت تأمل في أن تعود لزوجها بطريقة ما و قبل أن تنتهي عدتها، ولو في محاولة أخيرة لإصلاح ذات البين بينهما و قبل أن يكون فراق نهائي بينها وبينه.

مع ذلك، فإن دافعا ما، أدخلها إلى الكوفي/ نت المجاور، علَّلته يومها بوجود أوراق خاصة بالعمل لديها، تحتاج إلى إنجاز، آثرت أن تطبعها، بعد انتهاء دوامها، بدل أن يتكدس لديها العمل في اليوم التالي. وهي في حقيقة أمرها، بدأت تشعر بتوتر داخلي ما، أصبحت معه بحاجة إلى أن تشغل نفسها، فيما يمكنه أن يشغلها عن أمر التفكير في زواجها الذي يصبح مع تتابع الأيام في مهب الريح.

بعد أن فرغت من إنجاز عملها، كان هناك وقت متبق لديها، إلى أن ينتهي الوقت الذي حجزته، في المقهى، وماذا عساها تفعل به ؟ غير أن تستمع لبعض الأغاني، ثم أن تجد نفسها تدخل في واحدة من تلك الغرف، لترى بعينها ماذا يقول ويفعل الناس هنا.

ما أن دخلت وفاء، حتى كان أحدهم يطلبها إلى شات خاص:

(إضافة تكست) buzz

- مرحبا

- أهلا

- ممكن نتعرف ؟

- أنا حنين، وأنت ؟

- أنا سائد، كم عمرك ؟

- ٢٧ سنة، وأنت ؟

- ٣٢، متزوجة ؟

- مطلقة. وأنت ؟

- مطلق.

- أية مصادفة !

- ؟؟ لا اعرف.

- المهم، لم تطلقت ؟

- النصيب، وأنت ؟

- هو النصيب أيضا.

- لديك صورة ؟

- لا. وأنت ؟

- الآن، لا. أيمكن أن أراك ؟

- كيف ؟ وأين ؟

- متى تشائين، وأينما ترغبين.

- إسمع أنا أعمل حتى الرابعة بعد الظهر، ثم أعود للبيت، يمكن أن أراك غدا، قرب النافورة عند الرابعة وخمس دقائق.

- موافق، كيف أعرفك ؟

- سأرتدي شالا أزرق، وأحمل حقيبة بيضاء.

- أراك غدا.

- مع السلامة.

- مع السلامة.

عادت إلى البيت، أغلقت على نفسها، وهي تكاد لا تصدق الفرصة التي تلوح لها في الأفق، ها هو رجل مطلقّ مثلها، في عمر يناسب عمرها، وفي وضع يشابه وضعها. لو وجدته يناسبها أكثر من مطلقها، فإنها لن تعود إليه، ولو قبّل قدميها، أما إن لم يكن يناسبها، فهي لن تخسر شيئا، وستمضي إلى سبيلها، وكأن شيئا لم يكن. شعرت براحة وهدوء، قامت بإخراج شالها الأزرق من خزانة ملابسها، كذلك حقيبتها البيضاء، خشية أن تنساهما، في الصباح، حين تحضّر نفسها للذهاب إلى العمل.

أما هو فضحك في سره، ولعن "أبو اليوم " الذي ترى فيه النساء حالها على الرجال، فتحاول إذلالهم ب (الحرد)، فها هي امرأة أخرى، أكثر جرأة من مطلقته، وهي عاملة أيضا، مطلقة ؟ وماذا يعني ؟ هي ليست أقل منها، إن لم تكن أفضل. إستقر رأيه على أن يراها غدا، فإن كانت أجمل من مطلقته، نسي أمر تلك، وبدأ إجراءات زواجه من هذه، وإن كانت لا تناسبه، ولم تحرك قلبه، نسي أمرها. أي أن الأمر باختصار، يعزز من احتمالات الاختيار لديه. تذكَّر أنه سيلاقيها عند النافورة،

في ساحة البلد المركزية، ترتدي شالا أزرق وتحمل حقيبة بيضاء. دخَّن سيجارة، وفتح التلفاز، ثم اندس في فراشه ونام.

في اليوم التالي، كان قبل الموعد المحدد، يقف بمحاذاة النافورة، ينتظر ويتطلع إلى كل امرأة تمر من أمامه. وبعد الرابعة بدقائق قليلة، أقبلت امرأة ممشوقة القوام، تضع شالا ازرق على كتفيها، وتحمل حقيبة بيضاء في يدها، لوَّح لها بيده، إقتربت منه، وحين صارا وجها لوجه، حملق كل منهما في الآخر.

- أنتَ !!!

- أنتِ!!!

ثم هتفا بصوت واحد، لكنه كان خفيضا

- هو الطلاق النهائي إذا.

*****

خُلع

صداع شديد يكاد يفجِّر رأسها، تشعر بملل قاتل، ملَّت التلفزيون والإنترنت، وملَّت الانتظار كل يوم. أما تفاصيل الطريق من بيتها إلى العمل، إلى بيت أمها، فقد حفظتها عن غيب. بل هي تشعر وكأنها رداء يحيط بجسدها وروحها. فهي منذ ولدت وهي تدور في هذه الدائرة، التي لم تتغير تفاصيلها: الناس إياهم، البيوت، المقهى، السوق، وكل شيء.

بعد قليل يجيء كالمعتاد، يتناول عشاءه، ثم يغير ملابسه، ويغط في نوم عميق، ولا يغيّر من الأمر شيئا، أن يقوم بين فينة وأخرى باحتضانها وإفراغ رغبته فيها.

ثلاث سنين بأيامها ولياليها، مرَّت عليها، ولم تعد تكفيها المناسبات القليلة، حين يعود إليها بباقة ورد، أو بقميص نوم، أو بزجاجة عطر، باتت ترى أنه يشتريها لنفسه، لا من اجلها. أين ذهبت تلك الأيام حين كان يواعدها، ولا يكُف عن الاتصال بها ؟ حين كان يهيم بها عشقا، ولا يكُّف عن التغزّل بها وبجمالها ؟ وعن اشتهائه اللحظة التي يتزوجها فيها ؟ لم يكن يمر يوم، بل لم تكن تمر ساعة، إلا ويفاجئها بشيء جميل، كلمة حلوة، هدية ذات معنى، أو ترتيب لعشاء أو سهرة.

كان يملأ عليها حياتها، وكانت تشعر معه وكأنها ملكة أحلامه وكل عالمه. إلى أن التقت ذلك الرجل بدافع الفراغ، حيث عادت مجددا تسمع الكلام الجميل، لا يمر عليها يوم إلا ويرسل إليها ماسجا على الموبايل،

أو بريدا إلكترونيا. وحين يلتقيان كل مساء، يقضيان الوقت يتحدثان في كل شيء، حتى بات كلاهما يشعر بالآخر، دون أن يحدثه عما يشغل باله.

يحس بها عن بعد، وبعد دقائق فقط من بدء الحديث بينهما.

- ما لك ؟ شكلك مش مرتاحة ؟

إحساسه بها وبما تمر به، كذلك تقديره لها يأخذ عليها عقلها، تتذكر أيام خطبتها. كأنه هو، وتظل طوال اليوم تنتظر الموعد اليومي، حين تجلس أمامه والضوء بينهما، تشعر وكأن روحها قد رُدَّت إليها.

يحبها كما تحبه. هي متأكدة من ذلك، فالمرء لا يحتاج إلى أن يقول أو يشرح كثيرا، ليعبّر عن مشاعره الصادقة.

الصداع هذه الليلة يمنعها من النوم، أخذت حبتي مسكن، ثم اندست في فراشها، أغمضت عينيها واحتضنته، شعرت بدفئه وبحرارة حبه الغامرة. بدأ الصداع يغادرها، ولم تعرف متى نامت بالضبط، إلى أن كان الصباح، وبدأت تتذكر الحلم الجميل الذي طاف بخيالها.

بعد قليل من الوقت فوجئت بزوجها يعود إلى البيت مبكرا على غير عادته، ثم ينفجر في وجهها صائحا:

- ما هذا يا ست الهام ؟

ولوَّح لها بالورقة التي كان يمسك بها في يده.

نظرت إليه، ثم أدركت أن لحظة الحسم قد أزفت.

- زي ما أنت شايف !

- شو يعني ؟ والله لو تشوف حلمة ودنك !

بهدوء شديد، ردَّت عليه قائلة:

- إسمع، لقد اتخذت قراري بعد تفكير عميق، وما عاد يجدي في الأمر شيء.

- طيّب، الي مع أمك كلام تاني.

معرفتها به، أتاحت لها القدرة على توقُّع ردّ فعله، وحتى تختصر عليه وعليها الوقت "والمرمطة"، بادرته بالقول:

- شوف يا أستاذ خالد، زي ما دخلنا بالمعروف بنطلع بالمعروف.

فكَّر للحظة في أن يشدها من يدها ويدخل بها إلى غرفة النوم. لكنها قبل أن يجيب أو يحسم أمر ما يقول أو يفعل، أردفت قائلة:

- بمووووووت فيك

تطلع إليها بنظرة متسائلة، وقبل أن يدرك معنى ما ترمي إليه، تابعت:

- كلمة السر . . . شو نسيت ؟

ثم سارت خطوتين، وجاءت باسطوانة (CD)، وقالت:

- سجلت لك هنا كل شيء، وحتى تكون مطمئنا، هناك نسخة مع المحامي.

تهالك الرجل، وبدأ يتذكر كل شيء، عشرة أيام كاملة، يعود إلى البيت ويجدها نائمة، يحاول أن يوقظها فترفض، إلى أن كانت ليلة أخبرته فيها أنها ستنام عند أمها. وفي تلك الليلة بالذات، جاءته ماسج على الموبايل:

﴿تسجيل الماسج﴾

- وينك ؟ من نص ساعة مستنيتك على النت ؟

كانت الرغبة تجتاحه، ولم يفكر في التفاصيل، وكل ما يذكره أن تلك المرأة، التي كشفت له عن صدرها وساقيها، طلبت منه أن يتعرى أمامها، حتى أفرغ حاجته، دون أن يرى وجهها.

- لقد خنتني

- لكنك كنت أنت

فكَّر للحظة أيقرر دحض دعواها ؟ أم . . .

- حسن، إلهام، غدا نفترق.

في اليوم التالي، وفي الموعد المحدد، كانت تتحدث إليه، سألها عما حدث معها فأخبرته بأن كل شيء بينهما قد انتهى.

أظهر فرحة مفاجئة.

- بهذه السرعة ؟

- لقد كانت الخطة محكمة

- ونحن متى نتزوج ؟ علينا أن ننتظر انتهاء مدة العدة، أليس كذلك ؟

- ليس الأمر هكذا، أحتاج وقتا طويلا لأفكر.

إستأذنته، و أغلقت الجهاز، ثم ذهبت إلى فراشها، وغطت في نوم عميق.

*****

الأمن غير مستتب

منذ تلك اللحظة التي صار فيها السيد فادي شخصية عامة، إنقلبت حياته رأسا على عقب. كل شيء صار محسوبا بدقة وتحت السيطرة. الدخول إلي مكتبه والخروج منه، كذلك البيت، الداخلون إليه والخارجون من عنده. الحراسة تحيط به أينما مضى وحيثما ذهب. أجندة وقته محسوبة بالدقيقة. لا يصله إتصال إلا عبر مديرة أعماله، ولا يدخل عليه أحد إلا بعد أن يجلس بعض الوقت عند السكرتيرة.

صار فادي سيدا بكل معنى الكلمة، متأنقا، يضحك بحساب، ويتحدث بهدوء وتنميق، يضبط أعصابه ومشاعره. لم يشعر بضغط العمل، فهو في ذروة شبابه. وفي حقيقته كان يتوقع هذا التغيير، منذ أن تحولت علاقته بسيده إلى علاقة شخصية، منذ أول يوم رافقه فيه إلى بيته، وتعرف إلى زوجته والى إبنته الوحيدة، التي صارت زوجته، بعد عرس كان حديث المجتمع، وصار ساعد سيده الأيمن.

- إسمع يا فادي، لم تعد منذ اليوم تلميذي النجيب وحسب، بل صرت صهري ووريثي في كل شيء، أتفهم ؟

- أفهم يا سيدي.

- عليك أن لا تفهم وحسب، عليك أن تقدّر حجم المسؤولية الملقاة على عاتقك. أنت منذ اليوم عليك أن تصير شخصا آخر.

- أفهم يا سيدي، وأقدر.

أنت منذ اليوم شخص آخر، لا ينظر إلى الوراء مطلقا، لاهدف لك سوى أن تسير على طريق النجاح بثقة وثبات.

- ألم أقل لك يا أبى ؟ كنت دائما تشد أذني. وتقول: أدرس يا ولد، فنحن لا خيار لنا سوى أن نتعلم. يا بني إنجح في دروسك حتى تخرج من الفقر، وحتى تنفع نفسك.

كانت تلك الخطوة الأولى. فأنا مذ خرجت عن طوع أبى، وبتُّ أعتمد على نفسي، بدأت السير على الطريق الصحيح الذي أوصلني إلى هذه المكانة.

يغلق الباب على السؤال، نحن في العمل لا نعير اهتماما للمسائل الشخصية، لا نعرف العواطف، كل شيء محسوب بدقة. ولو كنا غير ذلك، لضاعت البلد من بين أيدينا، ولكنا غير جديرين بمواقعنا ومسؤولياتنا.

لا يخفي الصحفي إعجابه بمنطق السيد الذي يحاوره، وإن كان قد أفقده فرصة أن يحصل على "سبق صحفي"، كان يمكن له أن يعزز حظوظه في وظيفته.

سكرتيرة السيد فادي تعرف التعليمات جيدا، لا وقت عنده، لزيارات مجاملة، وبابه مغلق في وجه كل من يقصده في أمر شخصي، أو في مراجعة لمظلمة.

- من أنت يا سيدي ؟ ماذا تريد بالضبط ؟ وما هو الموضوع الذي تودُ بحثه مع حضرته ؟ أترك لنا إسمك، عنوانك، مهنتك، ورقم هاتفك. ونحن نتصل بك ونحدد لك موعدا.

- الصحافة مستثناة من هذه الإجراءات يا غادة.

- أفهم سيدي.

- تفضَّل حضرتك، إنتظر هنا قليلا، ماذا تشرب ؟

ثم تجري إتصالها الداخلي.

- سيدي مندوب العربية في انتظارك.

دقائق وتدور الكاميرا، وهكذا تحول السيد إلى " نجم "، لا يكاد يمر يوم إلا ويظهر فيه عبر فضائية هنا، أو يتحدث فيه إلى إذاعة هناك. لا أحد يقرأ صحيفة إلا ويجد له تصريحا، ولا أحد يمر على موقع إلكتروني إلا ويجد له أثرا.

إلى أن جاء يوم، دعي فيه على عجل إلى حفل بمناسبة عامة، كانت فرصته لأن يتميز عن كل رجالات المجتمع، خاصة وأن الجميع يتنافس على الظهور في الصورة. وحيث أنه كان عاديا بالنسبة له أن يتقَّرب إليه الآخرون، فإنه لم يتردد لحظة واحدة، حين تقدمت منه الفتاة الشقراء، ممشوقة القوام، تحمل " كاسيتا " بيدها، لتأخذ منه حديثا صحفيا.

شعر بنشوة بالغة، لأن الفتاة الجميلة خصَّته بالحديث، دونا عن كل الحضور، وحيث أن الأضواء كانت خافتة، وكان صوت الموسيقى هادئا، لم يتبيَّن ملامح الفتاة جيدا، وإن كانت الأصباغ تزيدها فتنة، ثم تسريحة شعرها وطبيعة ملابسها، تظهرها وكأنها من بلاد " برة ".

شعر بحنين مفاجيء، حين ألقت عليه تحية المساء، ثم باضطراب حين بدأت تسأله أسئلة شخصية.

- سيد فادي، أصحيح أنك تزوجت من إبنة مسئولك، بهدف التقرب إليه والارتقاء في سلم الوظيفة ؟

- ؟؟؟

- سيد فادي، ألم تكن قبل ذلك على علاقة حب مع فتاة أخرى ؟

- ؟؟؟

- أحببتها أيام الفقر، وكنت قد وعدتها...

إنتابه الغضب، قاطعها على الفور

- ما هذه الأسئلة ؟ وما شأنك أنت وحتى الجمهور بأموري الخاصة ؟

- ما شأني أنا ؟ أحقا أنك لم تعرفني ؟

ثم نزعت الباروكة عن شعرها، والنظارات عن عينيها.

أخذته المفاجأة، فلوَّح بعفوية إلى مرافقيه، الذين سرعان ما أحاطوا به، وأبعدوه عنها، بعد أن نزعوا شريط الكاسيت من جهازها.

في اليوم التالي، كان بريده الإلكتروني يتلقى رسالة مرفقة بفيلم صوَّره مرافقها، عبر موبايله خلسة.

﴿- هذه أول القصة، أو نهايتها، وأنت تعرف التكملة والتفاصيل، فهناك الرسائل والصور، التي يمكن لها أن تشكِّل مادة إعلامية في غاية الأهمية لقصة صحفية مثيرة﴾.

﴿ يمكن أن تضاف أيقونة موبايل عليها مادة فيلمية، كذلك صورة الماسج الإلكترونية ﴾ .

*****

Sms

سيجارته في يده، ينتظر موعد البرنامج باهتمام، أمامه ورقة وقلم، حتى إذا بدأت المذيعة في تقديم حلقة اليوم، ركّز إنتباهه، وهو يسحب أنفاس السيجارة بشراهة.

كان السؤال غير معقد، بل إنه وجده بسيطا.

رتّب المربعات، ووضع الأرقام في داخلها. وبعد اقل من نصف دقيقة كان قد توصل إلى الرقم المطلوب، تناول جوّاله على الفور وطلب الرقم الدولي، جاءه صوت الموسيقى .

﴿ هنا يمكن تحميل نغمة الانتظار ﴾

المذيعة تحرق أعصابه

- عشرون ألف دولار، ماذا تنتظرون ؟ رقم واحد بس

شو عم تستنوا؟ يا الله بقيت ٥ دقائق.

يتطلع إلى محموله، لقد طلب الرقم، وما زال الطرف الآخر، لم يفتح الخط له، حتى يلقي بقنبلته، ويبعث بإجابته الصحيحة، ويقبض العشرين ألف دولار.

دقائق يا مرفت وتنفتح الدنيا لنا، أعرف أنك انتظرت معي، وأعرف أنك عانيت كثيرا في صد «الخطّاب»، تحججت بأكثر من سبب، لكنها قد هانت يا حبيبتي. خمس دقائق ويكون بمقدورنا أن نتزوج وأن نفتح بيتنا الذي حلمنا به أربع سنين متواصلة، نعدُّ فيها الأيام والليالي، ونرتب فيها أحلامنا. سأشترى لك شقة بالتقسيط، أملأها لك أثاثا، غرفة

نوم معتبرة، ثلاجة، تلفزيون، غاز، وحتى مهد ولي العهد، سأجلبه منذ البداية حتى يكون فأل خير علينا.

- شو عم تستنوا ؟ أربع دقائق ونص، هيا، أنتظر اتصالا.

ما زال ينتظر، لقد احتاط للأمر وعبأ بطاقته منذ الصباح. يمرُ من أمامه الشريط المتحرك على شاشة التلفزيون، لكنه لا يهتم به، أذناه معلقتان بشفتي المذيعة، يعد الثواني، ويترقب أن تفتح الخط، وتقول معنا المشترك هاني.

- هيا، إفتح أيها الخط اللعين.

- شو عم تستنوا، ما في حدا، السؤال بسيط، رقم واحد بس، وعشرين ألف دولار بانتظاركم. شو هو الرقم ؟

هو بين الواحد والتسعة.. هه ما في اتصال ؟

﴿ المربعات

٢، ؟ ، ١٠

٣، ٦، ١٨

٤، ٧، ٢٨﴾

- انتو اللي شو عم تستنوا ؟ إفتحوا الخط

يتوالى الشريط أمامه

﴿هنا يمكن أن نضع شريط متحرك

لأحلى سوسو في الدنيا من حمادة، من عبد للصديق الغالي خليل.. هجرتني ورحت أنا ما اصبر. يا دلوعة السعودية اسمك إيه،

I love u Heba -mmm أمير الشرق أنت من وين حنان. للتعارف بليززززززززززززز.. العاشق أشلونج، ميمي حبيبي أنا زينة﴾.

(شاشة تلفزيون عليها المربعات وشريط متحرك)

- هه.. في محاولة اتصال، الو، مين معي..

سقط قلبه بين قدميه، حين توقف صوت الموسيقى.

- للأسف لقد فصل الخط، بقيت دقيقة.. ٥٧ ثانية، وعشرين ألف دولار، مين سعيد الحظ ؟

- أنا.. أنا سعيد الحظ.

هكذا كانت تردد أمي لي دائما، وتدعو لي كلما اتجهت إلى القبلة، بأن يرزقني الله المال الحلال، والزوجة المسلمة والخلف الصالح.

أنت على موعد مع كل هذا الآن يا هاني.

- بقيت نصف دقيقة... ما زال لديكم الوقت، أنتظر اتصالكم.

جوّاله مازال يرتجف بيده، لا شك أنه هو من يحجز الخط، لن يكون هناك فائز غيره. فقط لو يفتح له الطرف الثاني أبواب الحظ.

- عشر ثوان، تسعه، ثمانية، سبعة، ممكن.. في حدا بدو يتصل ؟ ستة، خمسة، أربعة، ثلاثة، ثانيتان، واحدة..

ثم ينتهي الوقت.

ينقطع الإتصال، ولم يعد يسمع الموسيقى. انتابه الغضب، فكَّر في أن يلقي بجوّاله على طول يده، أو أن يقوم بتحطيم التلفزيون. إقترب منه ليغلقه.. كان الشريط مازال يمر من أمام عينيه..

﴿هنا شريط آخر مكتوب عليه

ألف مبروك - ميرفت X عمرو - الخطوبة/ تهاني، عقبال الفرحة الكبيرة يا ميرا... مبروك علينا.. أحلى بوسه يا ميرا... عمروووووووووووووووووو».

طار عقله، طلب رقمها على الفور

- ايش يا ميرفت ؟ صحيح هللي بشوفه؟

- أهلا هاني، ربحت الجائزة وألا لسة ؟ أقولك مبروك ؟

- مبروك ؟ مبروك إلك، وألا مبروك إله ؟

لم يحتمل ضحكتها، فأغلق الخط على الفور، وهو يشعر بإحباط شديد.

ألم تجد غير عمرو ؟ عمرو الذي ظل يتودد إليها طوال سنوات الجامعة ؟

أما هي فكانت تتأمل محمولها الفاخر بفرح، وتحلم بجهاز الـ (لاب توب) الذي وعدها به خطيبها، حتى يكون بمقدورهما أن يكونا معا، بعد منتصف الليل، وكأنهما عروسان ينامان معا في غرفة واحدة.

*****

إدّيني رنّة

في ذلك اليوم المشهود، سارع مسعود إلى بيع كل حمولة عربته البدائية من الخضار، وجمع النقود ثمنها، واتجه من فوره إلى المكان الذي وصفه له صديقه مبارك، وسأله عن ذلك الشيء الذي نسي إسمه، والذي هو بحجم الكف أو أقل، يغني ويدق، ويمكن عبره إجراء المكالمات مع من هم بعيدين عن العين، في الأماكن النائية.

سأله البائع عن نوع الجهاز الذي يرغب في شرائه، فما كان من مسعود إلا أن أعطاه الورقة التي كتب له فيها صديقه مبارك، نوع وماركة المحمول، الذي قد لا يكون أحدث نوع، ولا أفضل جهاز، لكنه يتناسب وما جمعه مسعود من نقود، هي حصيلة كل ما باعه من خضار في ذلك اليوم.

برمج له البائع الجهاز، وشرح له طريقة استخدامه، ثم أخبره برقمه، وحتى لا ينسى الرقم، كتبه له في ورقة، أخذها مسعود ثم قام بحفظها في محفظة نقوده. أما الجهاز نفسه، فأخذ يتأمله، وكأنه شيء مسحور، لا يصدق أنه بات لديه مثل هذا الشيء الذي يمتلكه أولاد الناس الأكابر، المتعلمين. وحين سأله البائع إن كان يفضل نغمة محددة، يقوم ببرمجتها له، أجابه على الفور ودون تردد: علوش.

ما إن وصل إلى القرية، حتى توجّه من فوره إلى بيت صديقه مبارك، وأخرج من جيبه الجهاز السحري، ثم قدَّمه له. تفحصه مبارك، ثم سأله عن الرقم، فاخرج له الورقة. سارع مبارك على الفور بتخزين رقم محموله الخاص في جهاز مسعود، ثم قام بتخزين رقم محمول مسعود في جهازه.

- هكذا يمكنك يا صاحبي أن تتصل بي وقتما تشاء، ويمكن أن أتصل بك في أي وقت.

ظهر الإرتياح على وجه مسعود... لكن مبارك قاطعه، حين همَّ بالحديث، قائلا:

- عليك أن تنتبه إلى أن المكالمات تحتاج نقودا إضافية.

إرتسمت علامة الاستفهام على وجه مسعود، فتابع مبارك قائلا:

- عليك أن تعبيء الجهاز بكارت مكالمات، وحين يفرغ، لابد أن تشتري واحدا آخر، وهكذا..

سأله كيف يمكنه أن يتصل به دون أن يستهلك البطاقة ؟

أجابه بأن ما عليه سوى أن يرّن عليه رنَّة واحدة فقط، ولا يفتح الخط، فيعرف أن صديقه يريده في أمر ما، وهكذا اتفق الصديقان على أن يتصلا ببعضهما بهذه الطريقة توفيرا للبطاقة وللنقود.

حين عاد مسعود إلى بيته، إجتمع مع أبيه وأمه، وكل أخوته إلى مائدة الطعام، وكانت مناسبة لأن يخبرهم عن الوافد الجديد، ثم قام بدّق رقم أخيه المسافر للعمل في الخارج، وبعد أن تحدث إليه، دار الجهاز عليهم واحدا.. واحدا، حتى فرغت البطاقة. ولم يبق ما يكفي فيه إلا لإرسال «الرنَة» فقط.

لكن المهمة الأساسية والغاية التي من أجلها اشترى مسعود المحمول ما زالت بانتظاره، فخرج على عجل إلى الحقل ينتظر وقت «الورَّادات» وحين لمح عن بعد طلَّة صبحة ذاهبة إلى غدير الماء تحمل جرَّتها على رأسها، إمتطى ظهر حماره، وسار وراءها، حتى إذا اقترب منها، أرسل رنَّته إلى صديقه، وأغلق الخط، بعد قليل كان صديقه يرد عليه، لينطلق

محموله بالغناء:

طلع الصبح ولك علوش

وسبقونا هالحصادة

هات المنجيل والمنكوش

والحقني بالزوادة

تحميل﴿أيقونة المحمول ومطلع الأغنية ﴾ .

ضحكت صبحة، وهي تظن أن ما يحمله مسعود ليس سوى مذياع صغير، كثيرا ما شاهدت الشباب في المسلسلات التلفزيونية يحملونه على أحزمتهم، ويضعون سماعاته على آذانهم. فعلَّقت بصوت خفيض:

فرحان على شقفة راديو ؟

إنتبه مسعود إلى أن الأمر لم يثر إعجاب «محبوبته»، فضغط على محموله وأسكت الرنين، ثم شرع في حديث وهمي مع صديقه.

- نعم مبارك، بدي إياك تعلِّمني على الكمبيوتر كمان، بعدين، سمعت إنه في محمول جديد بيصور، زي التلفزيون، آه بكره بنروح سوا ع المدينة وباشتريه.

حينها إنتبهت صبحة، ولمع في عينيها بريق الإعجاب بمسعود، الذي مسَّد على شاربيه باعتزاز، ثم تابع سيره وهو يدندن «علوش»، حتى وارته التلة المجاورة.

في اليوم التالي، فوجيء بصبحة تستوقفه، وفي يدها ورقة مكتوب فيها رقم محمول، طلبت منه بدلال أن يطلب الرقم. ما كان بمقدوره أن يحرج نفسه ويقول لها بان كارته «فارغ»، وليس فيه سوى «رنة» واحدة.

لكن ذكاءه الفطري سرعان ما دلَّه على المخرج.

تناول منها الورقة، وبدأ في طلب الرقم..

وضع محموله على أذنه، وبعد أول رنّة، قام بفصل الخط..

- شو ؟

تساءلت صبحة.

- أبدا الرقم مشغول. خلينا نستنى شوي، هو برجع إلنا.

بعد قليل، كان المحمول يشدو بعلوش، فتح الخط، ثم ناولها إياه.

- مين معي ؟

- أنت مين ؟

- أنت مين ؟

- أنا عاشق عيون السود !

- عاشق عيون السود ؟

تساءلت باستغراب

خطف مسعود المحمول من يدها، وبدأ يشتم من كان على الطرف الآخر. ثم اغلق الخط.

- أنت مين طلبتي ؟

- أبدا أنا حبيت أحكي مع أخوي حسن، صار له أسبوعين ما روَح علينا من الجامعة بالمدينة.

- يمكن كانت «الرنَّة» قصدي النمرة غلط.

ثم سار كل منهما إلى بيته، تبدو عليه علامات الإستغراب مما حصل.

*****

رسائل عبر المحمول

رنَة موبايل (يا سلام.. يا سلام.. أد ايه حلو الغرام)

فتح ياسر محموله، وإذا بصوت أنثوي يفاجئه، رغم أن صاحبته قبل أيام، وفي آخر رسالة (أوف لاين) على النت، كانت قد أخبرته، بعد أن أعطاها رقم محموله، بأنها ستهاتفه، لكنه نسي الأمر، فالنساء عادة لا يبادرون بالإتصال على الهاتف، وحتى أنه، رغم عادته حين يتلقى أي اتصال أن ينظر إلى الرقم على الشاشة، نسي من تكون هذه الأنثى وما اسمها، خاصة وأن الرقم كان يحمل كودا دوليا.

- كيفك وشو أخبارك ؟
- الحمد لله.
- حبيت أطمن عليك.
- أنا كويس، إنت كيفك ؟
- كويسة، بس ما عندي نت.
- ولا يهمك.. أنا باتصل عليك.
- إنت بعت لي ماسج ؟ ما وصلني.
- طيب بحاول مرة تانية.
- أوكي.
- أوكي.

عاد ياسر يقلّب أوراقه، عسى أن يعرف من تكون تلك المرأة التي اتصلت به، وبعد وقت وجدها، فسارع إلي محموله، بحث عن خانة الرسائل، حتى وجدها.

كانت المرة الاولى بالنسبة له، التي يرسل فيها رسائل عبر المحمول، وكم كان يتمنى لو يتلقى رسائل من هذا النوع من امرأة ما، أية إمرأة.

- Thank u

وأرسل.

بعد لحظات، كان محموله يخبره بنجاح العملية، «تم إرسال الرسالة».

إنتظر لحظة، وكان الرد يصله.

- Thank you for what ?

بفرح عاود الكرة.

- Thx 4 ur calling .

- Welcome Ta3al kol yom .

- Ok I،ll do

- إنت ما صدقت ؟

فاجأه أن جهازها يرسل باللغة العربية، لكنه خشي أن لايكون يستقبل باللغة ذاتها.

- ur mobile is E or arabic ?

- أنا جوّالي برسل ويستقبل عربي وانجليزي.

- إنت مشغولة ؟ مشتاق لك وحابب أسمع أخبارك.

- مش مشغولة، دوامي خلص الساعه ٢. وانت؟

ثم رسالة ثانية

- يا ريت والله وأنا كمان حابة اسمع اخبارك، بس للأسف ما عندي نت.

لمعت في راسه الفكرة.

- ولا يهمك، نبقى على اتصال من خلال الموبايل. انت تغديت؟

- لسة والله، روحت مع صاحبتي معزومة عندها.. وانت تغديت؟

- لسة.. شو رأيك ؟ إما بتعزموني، إما بعزمكو.

- تفضَّل معنا، بنطبخ كوسا وورق عنب.

- أنا غداي كفته.

- إذا كانت كفتة بطحينة، كل عني وعنك، صحتين.

- طيب روحي تغدّي، بعدين نامي، وحاولي تضلي على اتصال.

- ولا يهمك من عيوني. وكل شوي راح أعطيك مسد كول. وانت كمان رد عليه بمسد كول، عشان دايما أطمن إنك بخير، ماشي ؟

- ماشي.

تناول ياسر غداءه، ثم اندس في فراشه، ونام.

وحين صحا، تناول محموله، وإذا به أكثر من " مسد كول "، بحث عن الرقم الذي أرسلها، فإذا به الرقم ذاته. أعاد من جهته إرسال الرقم، بمسد كول.

وهكذا ظل الصديقان، طوال اليوم، يرسل أحدهما مسد كول، فيرد الآخر عليه بالطريقة ذاتها. كانت هي تؤنس وحدتها في الغربة، حيث تحيط بها الجدران، ولا تكاد تتحدث مع أحد طوال يوم العمل الشاق، الذي تمضيه مع ذوي الاحتياجات الخاصة. أما هو فإنه لأول مرة، يشعر بأن رفيقة، إمراة، تحيط به، يشعر بأنفاسها تحوّطه، ويراها إلى جواره وحواليه طوال الوقت.

بعد أن إنتهى اليوم عند منتصف الليل، أرسل لها:

- الآن سأنام، أحلام سعيدة أتمناها لك، وتصبحين على خير.

- أحلام سعيدة، تصبح على خير.

بعد ساعتين، كان يصحو على حلم أخضر. فرك عينيه، تطلع إلى الساعة، كان يشعر بسعادة طاغية، تناول محموله، شعور بالامتنان يدفعه إلى أن يكتب لها شيئا.

كتب كلمة واحدة على عجل - أحبك - ثم دقَّ الرقم بسرعة، وأرسل الرسالة.

بسرعة البرق، إنتبه إلى أنه لأول مرّة، يرسل الرقم دون أن ينظر إلى الورقة المكتوب عليها. أرعبته فكرة أن يكون قد أرسل إلى رقم خطأ.. دقّق الرقم على الشاشة بالرقم المكتوب على الورقة. شعر بارتياح غامر، ثم بسعادة لا توصف، فها هو، ولأول مرة في حياته، يحفظ رقما هاتفيا، وهو الذي كان يظن أنه يتمتع بذاكرة ضعيفة، رغم أن الرقم هذه المرة كان من أربعة عشر خانة بكوده الدولي.

*****

تعويذة الكترونية

أثار اهتمامي إسمها، لذا فقد ذهبت بمؤشر الماوس إلى الـ (الاي دي) الخاص بها، وضغطت عليه (كليك)، لأدعوها بذلك إلى محادثة على الخاص، خارج إطار الشات المعلن للعموم عبر الرووم.

- ما هو إسمك ؟

- رامي.. وأنت ؟

- لطيفة.

كان نفس الإسم الذي تحمله عبر برنامج المحادثة.

- من وين إنت ؟

- من العراق، وأنت ؟

- من المغرب.

كنت أتوقع هذا، وإن كنت أعتقد أنها إما من تونس أو من المغرب.

- ممكن أشوفك ؟

- ممكن، لكن إنت الأول.

أرسلت لها كامرتي. وبعد لحظات كنت أرى صورتها أمامي.

إنها تتمتع بقدر كبير من الجمال، إنها تعجبني.

ثم سألتني عن حيدر حبيبها الذي لا يفارق خيالها، تحدّثت لي عنه بحب شديد وشغف لا مثيل له، حتى انهمرت الدموع من عينيها. إنه أول حب في حياتها، تعرّفت إليه عبر الإنترنت، هاتفها، وصارحها بحبه، ثم اتفقا كلاهما على الزواج.

لكنه انقطع فجأة عن الاتصال بها، هي تعرف خطورة الأوضاع هنا، لذا فهي قلقة جدا عليه.

- ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك ؟

أعطتني عنوان منزله، وعنوان عمله، ثم رقم محموله الشخصي، الذي كان قد هاتفها عبره.

حاولت كثيرا أن أتصل به، لكن محموله كان كل مرة يجيبني بأنه مغلق.

كان لابد لي حتى أريح العاشقة المغربية، من أن أذهب إلى حيث يسكن حيدر أو حيث يعمل لأسأل عنه.

بعد أيام حاولت جاهدا أن أقنع لطيفة برومانسية مشاعرها تجاه حيدر، وأنه ليس هناك رجل في الدنيا يستحق أن تذرف عليه الدموع، إن كان قد هجرها، وأن مشاعرها ليست أكثر من مشاعر متخيلة وأنها غير حقيقية، لأنها لم تغادر العالم الافتراضي، عالم الضوء المبهر، الذي عرفناه حديثا من خلال الإنترنت. لكنها أصرّت على حبها له وقالت لي بأنها تفكر جديا في الإنتحار.

حاولت وحاولت معها، بما في ذلك، التقرب والتودد لها، عسى أن أسدّ فراغها العاطفي، حتى أني عرضت عليها الزواج معتقدا أن هذا ما تحلم به، بعد أن تقدم بها العمر إلى حدود العنوسة، كما تفعل كثير من الفتيات الشرقيات.

أبت لطيفة بشدّة، أعددت إسما إلكترونيا جديدا، ودخلت إليها عبره لأختبرها. أوهمتها بأني خليجي ثري، أدير شركة، وسألتها عن عملها،

وعرضت عليها عقد عمل براتب شهري خرافي.

لم تكترث لطيفة، واعتذرت بذوق وتهذيب، وقالت بأنها ستأخذ رأي خطيبها.

- أنت مخطوبه ؟

- نعم.

- ومن يكون سعيد الحظ ؟

- إنه حيدر.. إسمه حيدر، وهو عربي، من العراق.

تأكدت حينها من طيبة لطيفة ومن صفاء سريرتها، وما كان بمقدوري أن أدخل كل ليلة، خاصة في التوقيت الذي تكون فيه، لعدم قدرتي على مصارحتها بما ارتكبه تجاهها ذاك الرجل الذي تعرَّف عليها باسم حيدر.

بعد أسبوعين، فتحت البرنامج، فإذا برسالة أوف لاين، قد جاءتني منها، لم تكن هذة المرة تسأل عن حيدر، ولا تستفسر مني إن كنت موجودا، أو متى يمكن أن أكون موجودا. كنت واحدا من خمسة وعشرين شخصا أرسلت لهم معا.. تطلب منا أن نرسلها بدورنا، كل واحد إلى خمسة وعشرين آخرين من أصدقائه.

۞ هذه الرسالة من أخت فلسطينية وتقول شاهدت بعينى محمد صلى الله عليه وسلم فى منامى وأوصانى سلاما على الناس .. فيجب .. على كل من يقرأ هذه الرسالة أن يوزعها على الناس وينتظر أربعة أيام فسوف يفرح فرحاً شديدا واذا لم يوزعها فسوف يحزن حزناً شديداً

أمانة فى ذمتك الى يوم القيامه لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ... ارسلها لى ٢٥ شخص وستسمع خبرا جميلا ﴾ .

ولأني كنت حديث العهد ببرامج الشات، بل ولأن وقتي لايسمح لي بقضاء الكثير من الوقت على الإنترنت، فلم يكن لي في حينها خمسة وعشرون من الأصدقاء ممن لديهم بريد الكتروني.

بالكاد كانوا أربعة أو خمسة. أرسلت الرسالة إليهم، دون أن أدرك فيما بعد، أني قد أرسلتها إلى صديقي المسيحي الوحيد من بين أصدقائي. شعرت بالأسف، لأني ربما كنت قد جرحت شعوره بإرسالي هذه الرسالة له بالذات، وأنه ربما يظن أني أسخر منه.

من يومها ما عدت أفتح العديد مما يصلني من إيميلات، وأكتفي حين أفتح بريدي الإلكتروني بأن أضغط (ديليت) على معظم ما يصلني من رسائل مجهولة.

*****

×أخرحت معظم قصص هذة المجموعة رقميا عبر نظام الفوتوشوب، لتوظيف الصورة والصوت جماليا.

كتابات ذات صلة
(أصداء النصوص)

قراءة نقدية
في المجموعة القصصية «تهاويم الأرق»
للقاص رجب أبو سرية

عندما يشكّل الزمن بناء النص

علاء الدين كاتبة

أراد القاص رجب أبو سرية أن يؤرقنا بأحلامه، فأطَّل بها عنواناً متفرداً لمجموعته القصصية الجديدة.. «تهاويم الأرق» – عنوان يذهب به إلى الشعر، ولكن لا يهرب فيه من السرد. إن أقل ما يمكن قوله عن المجموعة، أنها محاولة جيدة ومحسوبة في التجريب على مستوى اللغة والشكل والمضمون، دخلها الكاتب بروحه الهادئة، وعلى مدى فترة غير قصيرة من الزمن في الأعوام ما بين ١٩٩٢ و ١٩٩٧، موزعة بين دمشق وغزة.. ويدل هذا بشكل واضح على أن الكاتب وجد في قصصه المتناثرة نكهة خاصة تجمعها، ألا وهي وحدة موضوعها، الذي شكَّل هارموني ونسيج داخلي لأغلب قصص المجموعة، ولذلك جاء العنوان موحداً للروح السائدة في النصوص المتعددة – والتي سنعرف عن قريب مدى الاختلاف والتباين فيما بينها -٠ ليس بهدف إثارة الغرائبية لدى

القاريء، بقدر ما أراد الكاتب أن يختصر علينا الطريق، فيهدينا المفتاح ومعه بطاقة الدعوة على الصفحة الأخيرة، بعدم التمعن، أو التحليل، أو إثارة الجدل أو التحريض من أي نوع - .. وهكذا يوقع القاريء الغافل في المنزلق، ويهبط به منذ البدء في دهاليز الأرق، علَّه يظل قابعاً فيها، حتى بعد الانتهاء من القراءة.

ماذا يريد الكاتب إذن من هذه النصوص التي يلقيها في حجر القاريء؟.. سوف نشعر بلا شك ببراءة دعوته الأخيرة، لأنه ببساطة لا يريد شيئاً، وواقعيته الشديدة تجعله أيضاً لا ينتهي إلى شيء، فيقف عند عرض الحال، والكشف عن حدود المفارقة البسيطة فحسب، لتبقى المجموعة – كما يذكر أيضاً تراوغ بين السعي إلى الكلام، والرغبة العميقة بالصمت، بين التمرد، وغرائز السكون.. إلا أن مالا شك فيه أيضاً، أنها سوف تثير أرق السؤال، فيقع القاريء في إشراك البحث عن إجابة. ليس داخل النص، وإنما خارجه، أي داخل ذاته القارئة.

يقرر الكاتب أن يبتعد قليلاً عن صخب الحياة، الذي عهدناه له في المجموعة السابقة «ليس غير الظل» .. فلا يفلت تماماً إلى عالم الخيال والحلم، بل يحاول السير هذه المرة وحيداً بين التخوم ويمر فوق الجسر الضيّق للهامش بين الحلم والواقع.

ينسحب الكاتب من الضوء الصارخ إلى الظلال، حيث تنبت الهواجس .. وقد ينساق للغوص أكثر في الظلام، حيث تتحول هواجس النهار في الليل أو المنام إلى كوابيس وأحلام مزعجة، ورغم هذا، لا يلغي الواقع، بل يبقيه حاضراً في الظل، وقد تلوح لنا ملامحه، لكّن همُّه يبقى داخل

الدائرة التي يهرب منها – كغيره – إلى زحمة الحياة .. إنها دائرة الأرق.

يختلف الشكل من قصة لأخرى باختلاف أجوائها، ونلحظ أن الكاتب كلما اقترب من حافة الحلم، فإن الشكل التقليدي يتفكك لصالح الأخير. ويتفاوت الحلم بتفاوت زمن السرد، رغم أن الحدث أو الفعل يعيش في المجموعة غالباً زمن (الفعل المضارع)، إلا أن هذا الحاضر لا يبقى زمناً عادياً ومحايداً للسرد، بل يرسم الزمن في مدى علاقته بالحلم وارتباطه بموضوعة الأرق/ الأفق الذي يشكل بناء النص.

ويمكن وفقاً لهذه الرؤية تقسيم المجموعة إلى أربع فئات مختلفة كما سنبرهن الآن .. وسوف نلحظ أيضاً أن اختلاف الشكل ترافق معه اختلاف اللغة، العلاقة بالمكان، وعلاقة الراوي بالشخوص، بل وتتفاوت أيضاً مدلولات الأرق (المضمون) من فئة لأخرى أو من قصة لأخرى وفقاً لآلية اختلاف زمن السرد.

يمكن توضيح هذه الاختلافات البينية بين الفئات في الجدول (١) المبين، والذي نعتمد عليه في الشرح، إذ نلاحظ في الفئة الأولى، والتي تضم القصص الثلاث الأولى، إدغام زمن السرد مع حلم الليل أو المنام، لتشكل تفاصيل الحلم أو الأحلام المتوالدة الشكل النهائي للقصة أو النص، بمعنى اندماج الشكل بالمضمون .. ثم ينفصل هذا التلاحم في الفئة الثانية من المجموعة إذ يقرر الكاتب الهبوط من أرق الليل إلى أرق النهار والحياة بمجملها .. يعود من زمن / أرض الحلم إلى زمن/ أرض الواقع. إلا أن هذا الكاتب الذي يترنح بين الحلم والواقع، يتوق للتلاحم مرة أخرى في (رجع الرؤى ومداهمة التضاد) الفئة الثالثة،

جدول (1)
تشكيل الزمن لبنية النص

ترتيب		الزمن	المضمون	الشكل	اللغة	علاقة المكان بالشخوص
الفئة الأولى	1. في المدينة الغريبة 2. العمق الدفين 3. الدمية	الليل أو المنام	أرق الحلم	نص الحدث (تلاحم الشكل بالمضمون)	لغة الحلم	سلبية
الفئة الثانية (أ)	4. وحدة 5. القلق الحار	النهار	أرق الوحدة وفقدان الأصدقاء	نص الموضوع أو الفكرة (تقليدي)	لغة سردية شاعرية، وتأملية أحياناً	بين الإيجاب والسلب
(ب)	6. إعلان تعارف 7. حلم مراهق 8. أحلام		أرق المراهقة والأحلام الطازجة			
(ج)	9. قراءة ليلية 10. اختلاج مفاجئ 11. روعة الأزرق		أرق الحنين للمراهقة والشباب			
(د)	12. وفاء السيدة 13. القرط الذهبي 14. جدي	استرجاع	أرق الحياة			
الفئة الثالثة	15. رجع الرؤى 16. مداهمة التضاد	مطلق (تلاحم الشكل المضمون بالزمن)	أرق الذات	نص مفتوح	لغة تأملية	منتفية
الفئة الرابعة	17. إشتهاء 18. حكمة 19. مسؤول	اعتيادي (الحاضر)	المقارنة	نص اللقطة	سردية	محايدة

وينطلق من الحاضر إلى الزمن المطلق. يخرج من ثقب الليل والكابوس إلى فضاء التأملات الشاردة وأحلام اليقظة، فتذوب عناصر البناء إلى حدٍ بعيد، ويندمج المضمون ليس بالشكل فحسب، بل يتلاحم الإثنان في فضاء الزمن المطلق، وتغيب الفوارق..

ولكن.. هذا القاص المراوغ، لا يؤثر أن يغلق الدائرة، إذ سرعان ما يفلت، ويفضّل السكون على التمرد، فيضيف إلى المجموعة ثلاث قصص قصيرة جداً تمثل الفئة الرابعة والأخيرة، يعتمد فيها على اللقطة/ المفارقة كعنصر رئيس للبناء ينزوي فيها عنصر الزمن، ويتحول إلى زمن اعتيادي.. ونبين في الرسم (١) المقدم حركة بناء الشكل بين الصعود والهبوط، استناداً لارتباطها في الزمن والمضمون .. ثم أخيراً، فإن ما يسجل للكاتب في الشكل من ناحية التكنيك، هو قدرته على كشف نهاية الحدث / الفعل / المفارق في آخر النص، بل وفي العبارة الأخيرة.

شكل (١) حركة بناء الشكل داخل المجموعة القصصية (النص المفتوح)

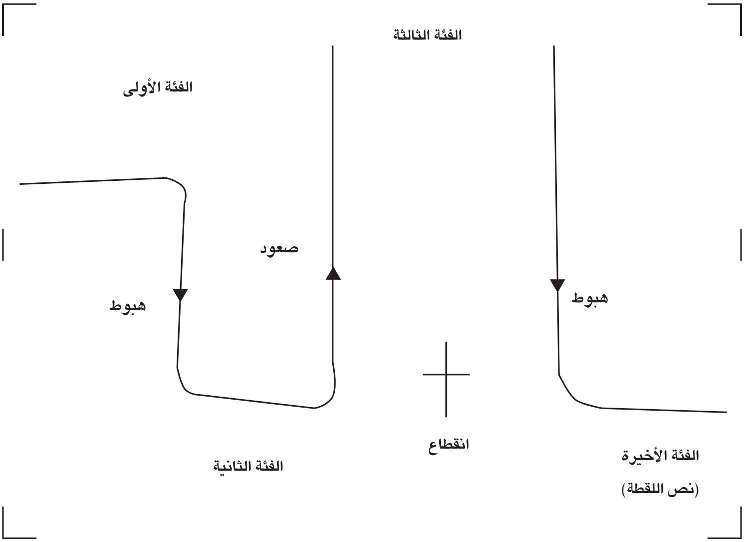

تعيش الشخوص عالم المدينة/المكان، الطبيعة الذي ينبت فيه الأرق.. ولكن هذا المكان لا يتكشف كاملاً دوماً، بل نرى ملامحه بالقدر الذي تريد منه الشخوص فحسب، فلا يكاد يحضر المكان خارجها، وتظل علاقتها به تتراوح بين السلب والإيجاب وفقاً لروح النص.

هكذا نلحظ أجزاء المدينة في الحلم تظهر غريبة ومخيفة. وقد جاءت اللغة تعبّر بشكل فائق عن أجوائها النفسية .. ف «يسود الليل»،

«الوشوشات الخانقة» ، «السكون القاتل» .. (ص٥)، «العيون المتربصة»، «كتل الظلام المخيفة» .. (ص ٨) ، «العتمة السحيقة» (ص ١١) .. الخ.

أما فيما بعد، فتصبح المدينة نهاراً أكثر ألفة، محبوبة، ومكاناً للانطلاق والتأمل في ثراء الشارع «بالأجساد الطازجة» كما في قصة القلق الحار (ص ١٩)، أو ذخر الطبيعة بالحياة والجمال .. «أراقب حفل التلاقح بين الندى والمطر، تدَّب الحياة في خلاياي، أودعهم، وأرغب في احتضان المدينة» (ص٣٧)، وفيما أعتقد، أن الكاتب وصل هنا إلى أقصى حالات التلاحم والحب للمدينة من خلال شخوصه.

لم ينكسر المكان كثيراً فيما بعد بسبب ما حدث من انقطاع في حركة بناء الشكل، إذ ينتفي المكان لصالح الزمن في النص المفتوح نهائياً، أما في نص اللقطة، فتبرز صورة المكان كخلفية للمشهد فحسب، محايدة، ومنفصلة عن شخوصها.

جاءت لغة النص في علاقة وطيدة مع المضمون، حيث نلحظ في البداية طغيان مفردات الحلم على مفردات السرد «وفي العمق بدت كتل الظلام مخيفة ومرعبة» (ص٨)، «في جوف العتمة السحيقة»، «تتحرك الكائنات بداخلي» (ص١١) .. ولكن مجرد ما نخرج من الكابوس، حتى تأخذ اللغة سمات أخرى، ويبرز هذا التنوع أكثر ضمن الفئة الثانية، أكبر الفئات على الإطلاق.

تتجه اللغة هنا أكثر نحو السرد، ولكنها لغة شاعرية، وتأملية أحياناً،

تتراوح بين الحدّة والرقة بقدر ما تضغط الحالة على شخوصها، بقدر ما تسم الحالة جميعهابسماتها، فينجح الكاتب في المزج بين أساليب اللغة وفقاً لاحتياجات النص الواحد في مواقعه المختلفة، فينتقل بسهولة من الحلم إلى السرد، أو من السرد إلى التأمل .. وهكذا.

وإذا أردنا ضمن هذه الفئة الواسعة، استقراء إحساس اللغة بالزمن، سنجد أن شخوص المراهقة – على سبيل المثال – بدأ إحساسها بانفلات الزمن نحو الأفق، تكاد تقترب به إلى المطلق، الذي يتوّجه الكاتب في نصوص أخرى. «فتطلع إلى الأفق، حيث ظهرت له زرقة السماء بصفائها الآسر، صفحة متسعة لإطلاق أحلامه كحزم من النور الملون» (إعلان تعارف، ص ٢٣).. يتوارى الزمن هنا، لكنه لا يختفي، إذ سرعان ما تنقلب حالة الانطلاق إلى قلق دءوب على الساعات والدقائق عند حضور موضوع المراهقة ..» إنها الرابعة إلا ثلثاً، فقد تكون ساعتي غير مضبوطة، إذن أسألها..» (إعلان تعارف، ص ٢٤) .. و عندما يضغط العمر، يختلف الإحساس بالزمن و «تمر الأيام برتابة مقيتة، وتموت معها الساعات الفارغة» .. وتختلف .. أيضاً تفاصيل الأرق، فتتسع لتمتد إلى الحياة بأسرها (قصة جدّي)، أو تنغلق على جمرة الحنين المتقدة للأيام الخوالي وللزمن الجميل الذي لا يعود .. «إنتابه حنين عارم لأيام الشباب» (إختلاج مفاجيء ، ص ٥١)، ولكن «الأيام تفرُّ كقطرات ماء من بين أصابعه» .. لا يختلف الإحساس بالزمن فقط، بل في المكان أيضاً،.. ويبدو شاهداً محايداً على الضجيج الذي ملأ الشوارع» (ص٥٢).

وهكذا تعمل اللغة على تكوين المضمون، وترسم أيضاً الإحساس

بالزمان والمكان وعندما تصل العلاقة بين العناصر إلى ذروتها، تحيل نفسها إلى لغة تأملية بحتة، سرعان ما تنكسر، وتهبط من عليائها إلى لغة السرد العادية، حيث يسير خطا الزمان والمكان متوازيين أفقياً، ومحايدين للمضمون والشخوص معاً..

إجتهد القاص في مجموعته على حضور شخصية محورية داخل كل نص تمثل موضوعة الأرق، باختلاف تلاوينها.. لكنه لم يجتهد على الأرجح في تحديد صيغة (ضمير الراوي، والذي يحدد مدى علاقته (أي الراوي) بالشخصية.

يمكن تحديد ثلاثة أشكال من علاقة الراوي (القاص نفسه هنا) بالشخصية المحورية، يوضحها جدول (٢-أ) المبين، وهي تتدرج من العلاقة المباشرة، حيث تظهر الشخصية الراوية بضمير المتكلم، وتنتهي بعلاقة انفصالية بينهما، باستخدام الراوي ضمير الغائب.. وتقع بين هذين الشكلين علاقة متوسطة ذات إشكالية، هي علاقة «التماهي» بين الراوي والشخصية، إذ تكون الشخصية هي الراوي في مضمونها، ولكن الراوي السارد يفضل استخدام ضمير الغائب لخلق نوع من وهم المسافة بينه وبين الشخصية.

جدول (٢)

أ

الترتيب			علاقة الراوي بالشخصية المحورية	الضمير المستخدم في النص
ف1	.1	في المدينة الغريبة	تماهي	غائب
	.2	العمق الدفين		
ف2	.3	القلق الحار		غائب + مخاطب
	.4	حلم مراهق		
	.5	اختلاج مفاجئ		
	.6	روعة الأزرق		
ف3	.7	رجع الرؤى		غائب + مخاطب
	.8	مداهمة التضاد		
ف1	.9	الدمية	مباشرة	متكلم
ف2	.10	وحدة		
	.11	قراءة ليلية		
	.12	أحلام		
	.13	جدّي		
ف4	.14	اشتهاء		
	.15	حكمة		
	.16	مسؤول		
ف2	.17	إعلان تعارف	انفصال	غائب + متكلم
	.18	القرط الذهبى		غائب + متكلم
	.19	وفاء السيدة		غائب

مفتاح 1 : ف = فئة

ب

أنماط الشخوص وعلاقتها بالحدث			
محورية	مفقودة	حاضرة	فرعية
/	/	/	/
أبو الفوز	الولد	المعلم يونس	صابرين
/	مؤنس		
/	/		
/	سلوى		
/	/		
/			
/			
/			
/	عصام		سلوى وغيرها
/	/		حازم
/	/		
/		عبد الدايم (الجد)	
/		/	السيدة ناضجة
/	/		
/		/	
/		/	
ديب	خديجة		
وفاء			الأولاد، أم الخير، القاص

مفتاح 2 : (/) = غير مصرح به

والسؤال إذن، هل هناك مبررات أو ضرورة فنية لخلق هذا النوع من العلاقة؟

.. فيما أعتقد، أن القاص الجيد لا بد له من المحافظة على المسافة بينه وبين الشخصية حتى لو كانت هي الراوية، وذلك حرصاً على حضورها داخل النص، وعدم استلابها من القاص نفسه، فيعطيها نوعاً من استقلال الحركة عنه، في سبيل تتبعها واستكشاف كوامنها، ومن ثم انفلاتها من قبضته إذا أمكن .. هذه العلاقة القلقة تحتاج إلى قاص محترف ومتعدد الشخوص أيضاً، يعرف متى يضع الشخصية المنبثقة عنه في مسارها الخاص في الوقت المناسب.. ولعَّل المساحة المتاحة في القصة القصيرة هنا، لم تسمح للراوي/ القاص بإفلات الشخصية من يده، وهذا ما يحلل غياب المبرر الفني لخلق علاقة لم تصل إلى غاياتها..

ولنقارن على سبيل المثال، علاقة الراوي بالشخصية في قصة «وحدة»، بينها وبين قصة «القلق الحار» التي تليها .. في الأولى استخدم الراوي ضمير المتكلم، فلم يظهر عنده إشكال في العلاقة، في الثانية استخدم الراوي ضمير الغائب، وبقراءة متفحصة، نستنتج إمكانية استخدامه لضمير المتكلم، دون إحداث أي خلل في البناء الفني.

وعلى عكس هذا، قصة «إعلان تعارف» التي تليهما مباشرة .. فإن استخدام الراوي لضمير الغائب، كان مبرر (فني) لحضور شخصية ثانية (الفتاة) مشاركة في صنع الحدث .. ورغم أن الشخصية المحورية هنا، لا مانع أن تكون نفسها الراوي، إلا أن استخدامه لضمير المتكلم، كان يمكن أن يضر بحضور الشخصيتين، إذ دخلته كل منهما بمونولوج

خاص بها – لتعبرا عن لحظة انفلاتهما من الراوي..

عموماً، من التجني القول، أن علاقة التماهي تخلو من الجمالية الفنية، أو من مبرر حضورها .. ففي أول قصة بالمجموعة «في المدينة الغريبة»، أتاحت هذه العلاقة للراوي مراقبة متأنية لأجواء الحلم، وتأثيراته المتراكمة على الشخصية الحالمة.

ولعل الكاتب في أغلب الأحيان، كان يقع لحظة الكتابة تحت تأثير حالته الوجودية – وهي لحظة غير واعية – أكثر من إدراكه للضرورات الفنية اللازمة لحضور الشخصية، وهي عملية واعية بلا شك .. وهكذا في كل مرة كان يضعف فيها الراوي/ القاص أمام الاعتراف، كان يلجأ للتماهي. ليس بغرض الهروب – كما قلنا – والذي هو ليس بهدف الكاتب. لكنها محاولة للإلتفاف على الذات المراوغة، ووضعها على سكة الإقرار ومن ثم المواجهة .. كانت هذه المحاولات من الكاتب تفشل أحياناً، و تنجح أحياناً أخرى، ولعل النجاح الأكبر الذي يسجل له جماليته، جاء في النص المفتوح، حيث تتوج الخطاب التأملي للذات، بحضور الشخصية داخل المرآة، ليخاطبها بضمير المخاطب، فيضعها أمام قدرها، كما في رجع الرؤى.. «لن يطول بك السير، يا أيها الولد المكبل بالرؤى، واستباقات المراحل، والتوقع والتوجس من قادم الأيام ..» (ص ٤٨)، أو لتناجي حلمها الطري وأمنياتها الجلية .. « ما أروع الأنثى حين تداهمك، بعد أن يطول اشتهاؤك، وما أجمل اللحظة، حين تمتد كدهر من السنين الصاخبة» (ص ٧٠، مداهمة التضاد).

.. ينقلنا الحديث عن علاقة الراوي بالشخصية المحورية إلى حديث مقارب عن طبيعة الشخوص التي شكلت أجواء الحدث داخل النص، وفي محاولة للاستقراء عبر الجدول (٢-ب) يتضح أن هناك مميزات عامة تكررت لدى الشخوص في النصوص المتعددة، تسمح لنا بتصنيفها إلى أنماط وفقاً لطبيعتها وعلاقتها بصنع الحدث .. وهي تتمحور في إطار أربعة أنماط رئيسية.

النمط الأول: الشخصية المحورية:

وهي شخصية حالمة غالباً، ينبني عليها تطور الحدث، دائمة القلق والتوجس، ودائمة البحث عن حضورها في الحياة الواسعة، وحضور الآخر فيها .. لذا فهي شخصية مستقطبة، ترسم في العديد من النصوص حضور الشخصيات الثانية وتهيىء حركتها ضمن توجساتها .. ولكن الواقع يتدخل أخيراً ليحدد مدى العلاقة الممكنة معها .. وكثيراً ما كانت تصاب بالإحباط (حلم مراهق)، أو تصاب بخيبة الظنون (القلق الحار)، وقد تنتهي بالانسحاب الهاديء (قراءة ليلية)، أو تستيقظ من حلمها على ضربات الواقع كما في قصة (حلم).. وهكذا.

النمط الثاني: الشخصية المفقودة (ثانية):

وهي شخصية شبه غائبة، سواء كانت صديقاً، أو فتاة معشوقة، يستهيم بها الحالم أغلب الوقت، ولا تظهر إلا في النهاية تقريباً لتحسم

الحدث بالطريقة التي ذكرناها آنفاً، وقد يخلق الراوي أحياناً من موتها حضوراً، يهيمن على الحدث، مثال (الولد) في قصة العمق الدفين، أو الزوجة (خديجة) في قصة القرط الذهبي.

النمط الثالث: الشخصية الحاضرة (ثانية):

وقد ظهرت في بعض النصوص على خلاف الشخصية السابقة، فهي حاضرة منذ البداية وتشارك في صنع الحدث بصورة موازية ومساوية تقريباً للشخصية المحورية كما في قصة «إعلان تعارف»، حتى موت الجد عبد الدايم (في جدي) لم يؤثر على فاعليته، بسبب الاختيار الموفق للزمن، وهو زمن استرجاع الذاكرة، لذا فإن حضورها تميَّز بالإيجابية أكثر من الشخوص في النمط السابق والتي تميّزت بالسلبية غالباً.

رابعاً: شخوص فرعية مشاركة:

إستند عليها الراوي في أجزاء من الحدث، ولكن حضورها كان استثنائياً أحياناً، غير مميز، ودون ملامح، مثل حضور سلوى في قصة وحدة، أو حازم في قراءة ليلية.. ولكن هذا الحضور بدأ يأخذ ملامحه أكثر عند السيدة «ناضجة» في اشتهاء، وقد ظهر هذا النمط أكثر ثراء في قصة وفاء السيدة، حيث تعددت الشخوص المشاركة، فمن الأولاد، والأم، والراوي، القاص نفسه، إذ ساعد حضوره المراقب والمحايد، على تقمص السيدة وفاء دوره كقاص، فاختلقت شخصية أخرى متخيلة (أم الخير) تحكي من خلالها لأولادها حكاية عيد الأم.

لعلّه يتوجب علينا ألا ننتهي من القراءة دون الغوص في موضوع الحلم، وقد لا حظنا كيف ارتكز القاص في الفئة الأولى خاصة على سرد الأحلام .. هذا ما ينحو بنا لقراءة سيكولوجية لها، وما يدعونا للقول أن الكاتب استند إلى حلم واحد تكررت تفاصيله بصورها المختلفة، وهو « حلم الهروب» أو «المطاردة» الذي يرتبط بالإحساس بالخوف الكامن في العقل الباطن، ويصنف هذا النوع ضمن «الأحلام النمطية» التي يتوحد بها أغلب الناس .. ولا أدري إن كان الكاتب مدركاً أن توظيفها يؤدي إلى استثارة هواجس وبواطن مماثلة لدى المتلقي، أم أن عبث الكتابة واستيهام الذات الحالمة قد جاء بهذه النتيجة!! ..

عموماً، للبرهنة على التكرار، يمكن أن نقارن بين مشهد الكلبة التي تتلوى دون رأس في المدينة الغريبة، وبين مشهد السيارة اللعينة التي يتوقعها الراوي أن تهرس عظامه في العمق الدفين، إذ أن كلا المشهدين يشكلان الذروة التي وصلتها عقدة الخوف .. أيضاً فإن هاجس الموت يبرز في نفس القصة بشكل واضح معبراً عنه بصورة الجسد المتصلب الملفوف بالقماش، حيث تتراءى منه أجزاء «تسوخ في الرمل الذي بدا كمستنقع من السبخ أو كالدوامة في بحر من اللزوجة العكرة» (ص٨) .. يستعيد المشهد نفسه في قصة (الدمية) عند النظر تحت الجسر، حيث يرى «المياه الراكدة والسبخ في أحشائها» (ص ١٢) .. ويظهر الجسر هنا كالحد الفاصل أو كالبرزخ القائم بين الحياة والموت .. لقد تمادى الكاتب هنا بالحلم على حساب الحدث، فيأخذ بالتنقل من حلم لآخر، رافعاً وتيرة قلقه الوجودي، ولم ينقذه من حقيقة الوهم غير الواقع

والدمية الجامدة بين يديه .. لعل هذه القصة ضمن المجموعة تمثل نموذجاً جيداً للخروج عن الشكل لحساب المضمون.

.. ينبع الخوف لدى الكاتب من أرق عميق يلاحقه بفقدان الأشياء طزاجتها وبراءتها الأولى، وهو قلق موضوعي نابع من صيرورة الحياة ومضيّها، لذا كان الزمن محوراً رئيسياً للأرق ... وقد تجلى الأرق في معانيه بالرغبة والبحث الدءوب عن المرأة الشهية، الطازجة، المتجددة دوماً. توالى حضورها عبر تقلبات الزمن، وظلت موضوعاً دائماً للتأمل والحلم .. وفي الوقت ذاته لم يرغب الكاتب/ الراوي أن يخرجها من تمنعها عنه، لأن هذا التمنع المقصود بات يشكل له لذة خاصة، تعادل خيبة أمله في المرأة نفسها، عندما تصبح ملموسة ومعاشه. لم تختلف المعادلة عنده في المنام عنها في اليقظة. فظلت امرأة الحلم «أشهى شيء في الوجود شريطة ألا تكون زوجتك» (الدمية، ص ١٣)» ، ويؤدي به هذا الاختلاف عندما يفترق عنه زمن الحلم، إلى البحث عن فتى كان مثله، ليحدثه عن اشتهاءاته المتمنعة لكل نساء الدنيا، عدا واحدة..

*****

قلق الذاكرة
بين ألق الحب وأرق الحرام

قراءة في مجموعة «تهاويم الأرق»
للقاص رجب أبو سرية

خليل حسونة

الأدب هو أكثر الوسائل وضوحاً في الكشف عن الوضع الاجتماعي للمرأة، ففي مجال الفكر المجرد يمكن للإنسان أن يبني آراء لا تعبر عن الحقيقة العميقة لرؤيته، أما في مجال الأدب، فإن الفنان يصور علاقات إجتماعية حقيقية. ويرسم صورة للعالم كما يراه بوعيه ولاوعيه معاً، وبهذا فلا بد للكاتب أن يكشف أعماق موقفه حين يكتب أدباً (١). فلقد أدى الإلتزام بقضيتي الإصلاح الإجتماعي والتحرر الوطني المتكيء على وعي مطلق بالظروف التاريخية والإجتماعية إلى بروز الإتجاه الواقعي وسيطرته، بحيث ظل الكتاب يسهمون إلى حد كبير في تعرية الواقع الإجتماعي المليء بالتناقضات والمآسي، وقاموا بمسئوليتهم كاملة في إدانة كل صور السلبية والتفسخ والانحلال الذي ينهك المجتمع ويفتك به (٢). كما أن التطور الفني الإبداعي المعرفي جعل التحول من المرجعية والنموذج والتجريد إلى التجربة والبحث والابتكار، هو تحول من الثبات والسكون إلى التنوع والجدل، وهذا ما يجعل الحداثة وضعية فكرية مساراً في الدرجة الأولى، قيامها على الإبداع يجعلها نقدية تحديداً،

والمراجعة الدائمة وإعادة النظر لا تنفصلان عن حركتها. وهذا يعني سقوط نظرية المحاكاة في موكب الإسهامات النهوضية والنماذج الأدبية التي تهدف لإبراز نموذج طوطمي. إلا أن كلمة السر في العمل الإبداعي الحداثي تتمثل في التجاوز والخصوصية التي تسم النص الحديث (٣) وهو ما تقترحه علينا مجموعة «تهاويم الأرق» للقاص المتميز «رجب أبو سرية» التي تبدأ معظم لوحاتها/ قصصها بنوبات الصداع، كإبراز يمهد للقلق المتوقع والعطش الذي لا يطفئه سوى امتلاك امرأة ذات روح وثّابة، وجسد طري.

في قصة «المدينة الغريبة»، وهي أول قصص المجموعة حالة الصداع الموجعة التي انتابته في الحلم جعلته يتخيل « أنه ليس سوى ساقين تحثان خطاهما إلى المجهول» (٤). وهنا تبرز ملامح الاستثارة لوعي البطل/ الكاتب الباطن لمثلبة التأزم الذي انتابه من الغربة/ الضياع/ التشرد/ اللا إنتماء/ أي حضور الغياب في نفسه وغياب الحضور. حالة الإسقاط هذه نجح الكاتب في التقاط أطرافها ليكبح فكرته التي تثقله داخلها والمتمثلة في: همهمة الوشوشات/هواجسه ومخاوفه/ شاهداً لقبر/ كلبة تتلوى/ دونما رأس/ آخر مطاف لركضه الهروبي (٥-٧).

هنا لا تجد الانفعالات الفائضة، حيث لم يعمد الكاتب لذلك، بل اعتمد الاقتصاد في التعبير تاركاً للقاريء استكشافها من التخيل، وبناء الأجزاء المخفية من المواقف والأحداث وجدانياً وعقلياً. بعد أن أعطانا المفاتيح، وكأنه يريدنا أن نشاركه همَّه/ تأزُّمه. لذلك «فضّل آلام الرأس على كوابيس الظلام» (ص ٦).

هذا الخوف الأزلي من العتمة نراه في قصة «الدمية» بوضوح مطلق، حيث يسير الكاتب في القصة من أول الليل حيث تبدأ خيوط الشمس تنسل من نسيج الكون خيطاً خيطاً، فيبرز لنا خطورة العتمة على نفسه، كمعادل موضوعي للضياع والاكتئاب الذي انتابه طيلة مسيرته داخل العمل/ القصة على تتابع مراحلها، من بداية رغبته في قضاء الحاجة إلى فشله في السباحة، وحتى دخوله الحارة المظلمة، وهروبه من الحانة، حالة الاحتقان المطلق هذه لا ينقذه منها سوى المرأة المشتهاة التي ليست بالضرورة زوجته، وهنا ملمح حيرته بين لعبة الحب والحرام من جانب، والرواء والعطش من الجانب الآخر، «أنسل إلى الداخل كلص، أسير على رؤوس أصابع قدميَّ، أندُّس فيما تركت لي كتلة الشحم من مساحة بالفراش، أتمدد على جانبي وأتأملها، إنها امرأة من ذهب، تجيئني في الليل، وتسبح في أعماق قلبي، ثم تطوف برأسي فتحيلني حلماً يلملم النجوم، ثم يجعل منها عقداً أطوق به جيدها، فتكافئني بقبلة، أنتشي، وأصير طيفاً، يجوب الدنيا التي صارت سهولاً من الثلج لا يسكنها سوى الفراش الملوّن وأنا، تتململ في نومها، أفتح عيني، ما أشهى النساء، ليس كل النساء بلى كل النساء إلا واحدة». (ص ١٣).

الحب الذي نراه هنا، حب شبقيّ شهواني، كنت أود من الكاتب وهو المتميز في فن القصة القصيرة أن يعدّها عود الخيزران أو قطعة الشوكولا، لقد أثارني وصفها لكتلة الشحم، فنفى عنها الرشاقة وأضعف حاسة التذوق الجمالي للمرأة المشتهاة، وهذا يؤكد صحة ما ذهبنا إليه من اعتماد الحب الشهواني الكامن في أحشاء النص، هذا الفهم

الإدراكي والذي خلاصته الصراخ/ المخاض/ القلق/ الجنس المشتهى/ جاء بالولادة. فجاءت فتاته إلى الدنيا لتعني تجدد خلاياه كونها امتداداً له. لذلك جعلته يهزم القلق ويحب الحياة، فيمدد خلاياه وينشطها، أي يدفع إليه النسغ الذي يزيد نضاره وحيويته.

«فقد تمددت خلاياي حتى شملت الكون بأسره» (ص ١٤) هذا الحلم الجميل الحالم، لم يطفئه ويلغيه سوى نفاذ الشحنة من البطارية.

إن النظرة التقليدية للمرأة تقوم على أساس أنها وظيفة للرجل، وهي رؤية تغوص في العقل الباطني البدائي للبشرية، عندما كان التقسيم الظاهري الفيزيائي هو أساس التقييم، فانطلاقاً من مفهوم الأنوثة وفكرتها تبدأ هزيمة المرأة بشكل جذري. فهي – تاريخياً – جزء من ملكيته التي تكتسب صفات السلعة، مفيدة، مريحة، ويفضل ألا تكون مستعملة من قبل. وقادرة كذلك على إنجاز وظائف محددة، أي أنها قادرة على أن تستجيب لمطالب الرجل واحتياجاته (٥).

ورغم أنها عند البعض هي الحقيقة – كما ترى بعض الديانات الغنوصية – فهي أيضاً مستودع لهذه الحقيقة لما لها من قدرة في رفض الخطأ، والاعتراض على كل اشتباه، وبما يحصل لها من قبول وحفظ قد تتعرض للرفض/ التغييب/ القهر باعتبارها فكرة لا طائل من ورائها. والتقديس لأنها الولادة/ الحياة/ الخلف. إذن فالحقيقة مع كل ما تمتعت به هذه الرؤى / المواقف المتباينة، سيدة تاريخ ضمن التاريخ، تاريخ لا نكاد نخرج منه إلى ساحة الظل القصيرة، عندما نتبين أن الضياء لن يفيض من أعماق السماء ولا من بشائر النهار الأولى (٦) إلا بالعودة إلى الولادة

الأولى، ورحم الوجود/ المرأة.

بناءً على هذا الفهم تسبر قصة «إعلان تعارف» أغوار الإنسان المراهق، وبترميز فلسفي إجتماعي رائق يغوص الكاتب في أحاسيس البطل والبطلة، ليؤكد عدم استغناء الايجابي عن السلبي في العلاقات الإنسانية (الذكر/ الأنثى) فما يفكر به أحدهما ينعكس في وجدان الآخر على ما يعتمل في النفس، فالشاب في محاولة منه للبحث عن الفتاة ذات الشعر الكستنائي يشحذ ذهنه، لابتداع كيفية المبادأة/ الاقتراب/ المحادثة/ بهدف الوصول للالتقاء لها «نكس ناظريه وعاد يفكر في الطريقة الأمثل للتعرف إليها» (ص ٢٤).

في هذه القصة لم يجنح الكاتب إلى الإعلاء أو الإسقاط، بل لجأ إلى التحليل السوي وإبراز ما يدور في خلد الطرفين «الفتاة/ الشاب». ففي نقلات رائعة تعتمد الحوار النفسي الداخلي الصامت، وبين تلهف الشاب وتحفز الفتاة يغوص الكاتب بين الذاتين/ النفسيتين، ليؤكد لنا التكامل بين السالب والموجب، فلا غنى لهذا عن ذاك، والعكس. وهنا وَفقَّ بين النظرية الغنوصية والتأليهية للمرأة دون أسطرة، وبين الوعي بالممكن الواقعي في العلاقة بين الطرفين السالب والموجب.

«كلها انتباه وانتظار لأية حركة أو كلمة قد يبادرها بها هذا الشاب المهذب، الذي جلس إلى جوارها» (٢٥). ورغم أن كلاً من الشاب والفتاة ظل يبرر لنفسه تردده، إلا أن الشاب حسم الأمر بالإعلان عن رغبته في التعارف. الفن جهد إداري عاقل يستلزم مهارة فنية عالية، ومعاناة مستمرة في تشكيله على نحو ما (٧). ويرى برجسون أن جوهر الإبداع هو

الانفعال العميق الذي ينتج عنه بزوغ الحدس، وما الحدس إلا تخطيط متكامل كل ما فيه إمكانات وحسب(٨). وهذا ما تأخذنا إليه قصة «حلم مراهق» فالجارة المهذبة البسيطة التي أحبها ليست مهذبة، وحبه المراهق الذي أنقذه من اعتماده مراسلاً للأسرة في شراء حاجياتها لم يشفع له التدقيق في سلوك جارته، فهذه البريئة (كما يعتقد) وصاحبتها ركبتا السيارة الفاخرة، بعد أن همس رفيق السائق لهما بكلام لم يسمعه المراهق، لكنه خمَّن كنهه «وفي لحظة كانت تنطلق المركبة مع آهة – حرقت كل ما بقي في صدره من مشاعر الطفولة البريئة» (ص ٣٢).

العودة إلى التجربة والمعيش تجعل النص الإبداعي حقلاً للاستقصاءات والاختراقات المستمرة لطرح الأسئلة، وإعادة صياغة الأسئلة الكبرى، أي تجعله بؤرة للوعي، وهذا ما رشحه لأن يستجيب لأنواع من الطموح المعرفي، من تحليل إجتماعي أو نفسي أو سياسي أو تأمل فلسفي أو أسراري صوفي، إذ أن الاتجاهات نحو التجربة والمحسوس قد فتح الكتابة على البعد المكاني، فلم تعد اللغة كصوت مرجع الإشارات الوحيد، وذلك أن الاختراقات لم تقتصر على أشكال التعبير وإعادة رسم خارطة الأنواع، بل بلغت جسد الإشارات اللغوية واخترقت حدود الأبجدية، ورغم مظهرها الفني البسيط إلا أن نصوص «رجب أبو سرية» دخلتها أشكلة إشارية مختلفة احتلت موقعاً دالاً وهي إن احتفظت بما ترمز إليه في حقولها الخاصة فإن دلالتها غير المباشرة تبقى أكثر أهمية لأن حضورها توكيد على الصفة الكتابية للنص، وعلى اعتباره حيزاً للتلاقيات، واستقطاباً لأي دال بما يفضيه النص اليك (٩). وهذا ما

تؤكده لنا قصص «وحده» (ص ١٥)، «القلق الحار» (ص١٩)، وبالذات قصة «قراءة ليلية» (ص٣٣) التي يتحدث فيها عن جدول عمله اليومي الحياتي والتي تبدأ بقراءته لزوربا، حيث تجعل منه أسير تعويذة سيطرت عليه وعجز عن الفكاك منها، كونها تمثل صراعاً بين إرادتين ظاهره/ «القراءة – الطمأنينة/ وباطنه: النور – موت الساعات. فالمرأة المحجبة هي الصديقة اللدودة في حالة تشابك معرفي صدامي/ إرادي بينها وبين الكاتب «أتمنى لها النجاح وأرغب للحظة أن تستمر إلى الأبد في حالة امتحان» (ص ٣٤). هذا الصدام التشابكي يشكل حالة تفجر سيكولوجي لحالة الوعي فتَّقت المخفي والغامض، كون «المرأة من منظور الرجل تجسيداً حياً وأبدياً للتناقض»(١٠).

وتعترف «سيمون دي بوفوار» أن الجنس الأنثوي غامض حتى بالنسبة إلى المرأة بالذات، وأنه مخفي وملتو، ولأن المرأة لا تعرف نفسها فهي تراها لا تعرف أيضاً إلى حدٍ كبير رغباتها» (١١) كما أن الخوف الذي توحي به للجنس الآخر مرده إلى هذا اللغز الذي هو مصدر العديد من المحرمات والأهوال والشعائر التي تشد المرأة أكثر من رفيقها، بما لا يقارن بعمل الطبيعة العظيم، ويجعل منها «محراب المجهول» (١٢) وهذا ما اعتمده في أحيان كثيرة التحليل السوسيولوجي ولقد وقف «ووردز وورث» موقفاً متوازياً «يجمع بين الفيض المتدفق المنساب وإرادة العقل الواعي» (١٣) الفيض المنساب جنون الذات المرأة/ الرجل/ الجماعة المحاطة بإرادة العقل الواعي المتمثلة في الإدراك/ المعرفة/ الفعل أياً كان نوعه ومستواه. لهذا جاءت قصة «القرط الذهبي» (ص ٤١) صورة

للجشع المطلق الذي يدفع للجريمة والخوف من العقاب باستمرار القتل من جديد وسلخ آدمية الإنسان عنه. ف«ديب» صار في نهاية المطاف يتاجر بالأعضاء البشرية «الحي عنده أبقى من الميت»، وأن يرافق الحلي جسداً بضّاً زاهياً وضاجّاً بالحياة، أمتع من أن يدفن مع جسد ميت (ص٤٢) يعتمد الذرائعية الفجَّة في تبرير أفعاله الشنيعة يتطلب إبراز ما يوجد في العمل الفني من جدلية الموضوعي والذاتي، المطلق والنسبي، غير التنويعي/ التأويلي.

لهذا، لايمكن اعتبار المجادلات حـول المعنى الفكري لهذا العمل الفني أو ذاك عقيمـة، وغير مجديـة، إن مغزى وفائدة هـذا القـول تكمـن في الذات، وفي أنها تسمح في نهاية المطاف بتقرير الحدود، التي تصبح داخلها مشروعة وحتمية لمختلف نماذج التأويل، والتي يبدأ خارجها التعسف الذاتي المحض (١٤) بناءً على ذلك نستطيع أن نؤكد أن مجموعة «تهاويم الأرق» تطرح عالمها السريّ على ثلاثة مستويات:

- المستوى الأقل عمقاً:

وهو المستوى الذي تبرز فيه ملامح ذاتية الكاتب والتي تنم عن رفض للحضارة التقليدية والحضارة على اختلافاتها، وأنها تعبير عن إحساس مؤلم وحاد بالإرهاق والضجر إلى درجة الموت من هذه الدورات الحضارية التقليدية التي لا تنتهي، فهناك مفارقة بائنة يوضحها الكاتب في مجموعته تسكن أعماق أبطالها، إذ أننا نكتشف البؤس والخوف والمعاناة، فالأبطال وهم في هذه المجموعة صورة لشخص واحد/ بطل

كثيراً ما يستعيد ماضيه ويقارن بين بؤسه القديم وقلقه الجديد المليء بالأرق النفسي.

وعندما تتكشف هذه الحقيقة من خلال موقف متأزم، يلجأ إلى المرأة/ العودة إلى الطفولة/ الأمومة/ من جانب، منطلقاً للهروب نحو المرأة المشتهاة من جانب آخر، هذا المستوى مثَّلته قصص «العمق الدفين» (ص٧) التي أبرزت التداخل/ التناقض، بين الحلم بموت الإبن وبطن زوجة «أبي الفوز» المنتفخ «فتمنى من أعماقه أن يحقق الله رغبة جاره فيرزقه الولد الذكر» (ص٩)، و «رجع الرؤى» التي كانت بمثابة منشور سياسي أيديولوجي صارم، لكنه لم يغيِّب الفكرة الأولى النابضة بين الجوانح التي تؤكد اشتهاء المرأة، فحديث المقاتلين انعكاس لما في نفوسهم» حين يستقبله الرفاق مرحبين، فيجلس وسطهم يحدثهم عن الدنيا التي غادرها وراءه، وعن الناس الذين يمارسون حياتهم ويكادون ينسونهم في مواقعهم، يأكلون ويشربون، ويتسامرون، ثم يندسون آخر الليل في فراش دافئ، مع صحبة أنثوية طازجة» (ص ٤٨) وإذا كان الجنون هو المتاع الذي يصون العقل من التفسخ (١٥) فإن المرأة عند «رجب أبو سرية» هي المنوط بها ذلك، لذلك ظلَّ يحلم بفيضها «حتى إذا مرَّت الأيام تشَّهت روحه الأنثى وموعدها المدبر في الخفاء» (ص ٤٨) وتدخل ضمن هذا المستوى أيضاً، قصة «إختلاج مفاجيء» التي تستحضر حالة حب قديم شطبت تأزم البطل، فالقصة تتحدث عن حالة قرف حقيقية «يسير صاحبها المثقف إلى لا اتجاه وعلى غير هدى، هائماً في الطرقات المحايدة، ودونما هدف محدد». (ص ٥١).

هذه الصعلكة المرغوبة من الكاتب تجعلنا وكأننا نراه بشكل يطرح فيه عالمان: عالم خارجي ذكري تسوده القوة/ الرغبة، وعالم داخلي أنثوي تسوده الخدمة/ العطاء، وهو ملمح من ملامح شخصية الكاتب الذي أعرفه جيداً، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن هذه القصة بالذات تمثل أحاسيسه ورغباته «أثناء تلمسه البطاقة عاد في ثناياها إلى ضجيج الشباب، فعانق فكرته المراهقة، وصار يبحث عن الآنسة/ السيدة سلوى / سالي، التي كانت تلتقيه دائماً في كافيتريا الشاطيء الأزرق حيث كانت مواعيد الشباب، إذ اكتشف أنها تبادله الشعور نفسه وتحتفظ بالذكريات نفسها».

- المستوى الأعلى:

ويتمثل في الدلالات الإجتماعية التي أكَدها في قصصه بين الحتمية الإجتماعية والمركَب الأوديبي المحسوم منذ البداية لغير هذا المركب رغم الاقتراب منه، وهذا ليس بمستغرب، فلغتنا اليومية تنمُّ عن تملُّك المرأة، وهو أمر يغوص في العقل الباطن الفردي والجماعي، ففي العلاقات الجنسية يقال إن الرجل يمتلك المرأة في حين يقال عن المرأة أنها تمنح ذاتها، وليس هذا الكلام مجرد مجاز في معظم الأحوال، فالدور الذي تلعبه علاقات المال والثروة والسيطرة، المرتبة الأولى الاجتماعية في إرغام المرأة على علاقات جنسية لا رغبة لها فيها، هذا الدور ما زال بالغ الأهمية (١٦) حيث منطلق الكاتب منذ البداية يتمثل في أن المنطقة الواعية تكتنز جوهر الإنسان وحقيقته الخيّرة الصادقة، القادرة على

إنقاذه من كل زيف (١٧) فالأطر الاجتماعية القائمة، والقيم السائدة هي امتداد لمواصفات معبّرة عن مجتمع إقطاعي عشائري متخلف تحكمه فكرة القبيلة على ما عداها، المرأة فيه ملكية للرجل وتابعة له. ولكن الظروف الاجتماعية قد تغيرت، وبدأت تتبلور قيم تنفي كل أسس المجتمع العشائري بقيمه الزائفة.

ومما يزيد مجتمع «رجب أبو سرية» حرية أنه منقطع عن الزمان، فمعظم العلاقات التي في داخله طارئة وموقوتة، سوف تنتهي أو على الأقل سوف ينتهي طابعها العابر بمجرد انتهاء المرحلة، تمثل ذلك جلياً في «إعلان تعارف» (ص ٢٣) و «حلم مراهق» (ص ٣٠)، و«قراءة ليلية» (ص ٣) و «إختلاج مفاجيء» أيضاً (ص ٥١) حيث المرأة لا تشعر بأي ندم عندما تستحضر حبها القديم، ليس هذا بل تحاول بلورته فعلاً/ نزوة، إذ لا شيء في القصة يشير إلى أنها نادمة، بل هي تدرك ما تقوم به، فتفاجئنا بانتصار الأنوثة على الأمومة رغم أنها تحاول التوفيق بينهما «علينا أن نعود، فلا بد أن يكون الأولاد قد ناموا» (ص ٥٥)، وضح ذلك عبر إبراز الواقع دون تأطير الشغل الفني بترسمات وحدود متقاطعة، كما في قصة «روعة الأزرق» (ص٥٧) التي أكدت تقليدية القيم الإجتماعية التي تظلم الآخر خاصة الفتاة فالبطل انهزم أمام التقاليد رغم حبه الجارف «تخلى عن إنسانيته بسبب وضعها الاجتماعي الذي تحاربه التقاليد، لخطأ ليس لها فيه ذنب، فهي اللقيطة التي تعترف بذلك، وعندما أحبها وأحبته كسر قلبها الذي رقص بسبب انسحابه، ودون أن يلقي تحية الوداع، غادر المكان على عجل» (ص ٥٩). قصة «مداهمة التضاد» تدخل في هذا

المستوى، فتبيّن استمرار الكاتب وحبه المتأصل للقلق والصمت الكامن والذي لم ينقذه منه سوى امرأة الحلم التي داهمته، «ما أروع الأنثى حين تداهمك بعد أن يطول اشتهاؤك، وما أجمل اللحظة حين تمتد كدهر من السنين الصاخبة» (ص ٧٠)، وهي إبراز ملامح الدلالات الاجتماعية، ورغم أن أمورها شغلتنا عنها مطالب الحياة.

- المستوى الأكثر عمقاً:

والمتمثل في الدلالات السياسية التي تهدف إلى محاكمة التاريخ القمعي السلبي الزائف من جانب ومن الجانب الآخر السلوك الثوري/ الفجّ لبعض الأفراد في المجالين السياسي والاجتماعي حيث تصبح الثورة ثورة الطبقة الجديدة والذي برز في قصة «رجع الرؤى»

(ص ٤٩) التي برزت كمنشور سياسي أيديولوجي صارم، لكنه لم يغيب الفكرة الأساس الناهضة.

«حين يستقبله الرفاق مرحبين، فيجلس وسطهم يحدثهم عن الدنيا التي غادرها وراءه، وعن الناس الذين يمارسون حياتهم ويكادون ينسونهم في مواقعهم، يأكلون ويشربون ويتسامرون ثم يندسون آخر الليل في فراش دافئ، مع صحبة أنثوية طازجة» (ص٤٨).

الكاتب في موقفه الرؤيوي هذا يحاكم الواقع بهدف البناء المستقبلي، وبحسٍ نابضٍ يهجس بما يجب أن يكون، إنه ينتقد بالدرجة الأولى الصرامة التنظيمية لتنظيم ما قد يكون عانقه ذات يوم، وصدم به عندما قارن بين النظرية والتطبيق، لهذا كان عنوان القصة «رجع الرؤى» دالاً

على موضوعاتها الداخلية تماماً، فالأوامر التنظيمية الجافة، والصرامة المقامة في غير محلها لن تؤدي إلى النتيجة المرجوة.

«لن يطول بك المسير يا أيها الولد المكبل بالرؤى واستباقات المراحل، والتوقع والتوجس من قادم الأيام، فلتحفظ عليك عقلك، يا أيها الرجل الذي سطَّرته أوامر كسلى، ودبَّجته تعاليم الصرامة في الزمن الرخي، بلا هوى، ماذا لو انفتحت حوانيت الظلام في العتمة القصوى، أو ماتت الطرقات التي تفترُّ عن احتمالات التردي».

في الجانب الأول تعتبر قصة «أحلام» «الفائزة بإحدى جوائز إبداع لعام ١٩٩٢، صاحبة المستوى الأكثر عمقاً، رغم أنها ليست الأرقى فنياً، بمعنى أن الكاتب تجاوزها وتقدم عنها كثيراً، فقد شكلت القصة نسيجها قطعة فنية منثورة، لربما يعتبرها البعض تفكيكاً للوحة فنية متقدمة مزج المبدع فيها ألوان الكلمات بكلمات الألوان، فعكست داخلية الكاتب الشفافة حالة الحب المرهف لديه والتي اصطدمت – معرفياً – بكل حالات معاداته الحب الفردي/ الجمعي/ عندما استحضر الكاتب وبشكل ذكي همَّ الشعب الوجه الآخر لتاريخ الأمة – محاولاً محاكمته – والمتمثل في (الهراوة/ البندقية/ الخازوق/ الجوع).

«يلفت انتباهي حشد من الناس، يشاهدون متحفاً، يشيرون بأيديهم إلى مخلفات العهود البائدة ويضحكون، هذه هراوة/ هذا سوط، تلك فلقة، ذلك دولار، هذا سكين، هذه بندقة، تلك قنبلة، هذا صبي محنط مات من الجوع، وتلك فتاة صرعتها رصاصة، هذا خازوق» (ص ٣٩)، هذا النقد الصارخ البنَّاء للوجه الآخر من تاريخ الأمة، ينبيء عن دخيلة الكاتب

العطشى لتحقيق واقع أفضل، بما يعني اعتماد مشروعية حلمه الذي يتمثل في نفي حالات القمع التي طرحها الكاتب والتي تجد جذورها في الحلم العملي، الذي يستوعب الواقع منطلقاً في مجال الممكن حتى حده الأقصى، إنه عند «رجب أبو سرية» – كما نعتقد – ليس هروباً من الواقع – بل استيعاب له بنظرة فاحصة موضوعية وجادَّة، تكمن في مدى الحاجة إليها، الأمر الذي يدفعنا للتأكيد على أن الكاتب – من هذا القبيل – ليس من عازفي بوق المديح (١٨) فهو لم يلتزم بالسائد، ولم يدخل الأدب من بوابة السياسة اغتصاباً أو العكس، بل هناك لديه تشابك جدلي بين هذا وذاك.

وأخيراً

فإن الوعي بالإبداع إمكانية تلازم العملية المعقدة، فهي لا تتم في غياب أو ذهول، بل بإرادة واعية مسبقة مليئة بالشحنات النفسية والاجتماعية يتم الوعي بها، فهو يخرج من الذات ويعطي للذات، وهو أمر يحدث عكسه عند صاحب الوعي، فهو يأخذ من الذات ليعطي المجتمع، كما أن نمذجة النموذج تزيد من ثقله، مثلما توميء من خلال العمل الإبداعي بأروع جوانب الحياة خصباً ونماء، إنها خصوبة التناقضات فيه، وخطوات التحقق في الذات والواقع (١٩) وبالتالي ففكرة الحتمية التي عبَّر عنها الكاتب في هذه المجموعة والمتمثلة في انتفاء الحياة من دون امرأة/ غير الزوجة، المرأة العاشقة/ الملتهبة التي تذيب الأرق وتذهب الصداع، والتي تبدو كقدر متعالٍ على الأفراد، وكأن الحياة داخل المجتمع انحراف عن الجوهر، والقوانين الاجتماعية ليست حتمية تماماً، فتعارض الغايات الإنسانية ووعي قوانين المادة تمنح الإنسان مزيداً من الحرية في مواجهة العالم (٢٠).

كان «دستويفسكي» يحاول أن يبرهن على أن الظلم تحت القيصرية هو قدر إلهي وجاءت روايته لتبرهن أنه قدر إنساني يمكن تجاوزه. لهذا السبب تبقى أفكار دستويفسكي لا قيمة لها، بينما يكتسب فنه ثراءً متزايداً مع الزمن، ولكن ما نجده عند «رجب أبو سرية» عكس ذلك تماماً، إن فنه ينطبق/ ويتطابق مع فكره، والحتمية الميكانيكية التي يتبناها أدَّت إلى ميكانيكية في البناء الفني في قصصه، وهي التي قامت على مثلث خشبي رئيس، قواعده تمثلت في الأرق/ الحلم/ المرأة المشتهاة، لهذا انطلق نحو التجديد وأصبح من رافعي لواء الحداثة المغلَّفة بواقعية ليست مرفوضة، إذ أدرك كما أدرك «جلجامش»، من قبل، في جحيم التجربة، أن الجواب على معضلة الفناء يقوم في الإبداع كامتداد لوجود الإنسان، كخلود مغاير لخلود الآلهة، (٢١) وهو ما برز جلياً في أعماله، وبالذات تهاويم الأرق.

هوامش

١- قراءة في أعمال، غالب هلسا، دار ابن رشد.

٢- المضمون الثوري في القصة الليبية القصيرة، فوزي البشتي، ط١، ١٩٦٦.

٣- مواقف، العدد (٥١-٥٢) صيف وخريف ١٩٨٤.

٤- تهاويم الأرق (قصص قصيرة)، رجب أبو سرية، ط١، ١٩٩٨.

٥- جينالوجيا المعرفة، ميشال فوكو، دار توبقال، ط١، ١٩٨٨.

٦- إشكالية الإبداع الشعري، عبد الفتاح عثمان، مجلة ا=فصول، القاهرة، يوليو/ أغسطس ١٩٩.

٧- الأسس الفنية للإبداع الفني في الشعر خاصة، د. مصطفى سويف، القاهرة، دار المعارف، ط٢، ١٩٥٩.

٨- نقد مجتمع الذكور، روجيه غارودي وزملاؤه، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٢.

٩- الجنس الثاني، سيمون دي بوفوار، مارس ١٩٤٩.

١٠- الجينوفوبيا، ولدرير، باريس ١٩٧٠.

١١- العملية الإبداعية، سحر مشهور، فصول (يوليو، وأغسطس)، ١٩٩١.

١٢- الفن والاستقبال الفني، كاجان، دار ابن خلدون، ط١ ١٩٨٢.

١٣- أسئلة الواقعية والالتزام، نبيل سليمان، دار ابن رشد، ١٩٨٦.

١٤- النموذج الثوري في الأدب والفن، عبد الله الفوري،١٩٨٧.

١٥- نقد مجتمع الذكور، غارودي، سابق، ص ٨٩.

١٦- نقد مجتمع الذكور، المصدر السابق، ص ٦٩.

١٧- قراءة في أعمال، غالب هلسا، مصدر سابق ص ١٠٥.

١٨- أسئلة الواقعية والالتزام، نبيل سليمان، دار ابن رشد، ١٩٨٦، ص٨٠.

١٩- النموذج الثوري في الفن والأدب، مصدر سابق، ص ٥٠ وص ٨٣.

٢٠- قراءة في أعمال، غالب هلسا، سابق ص ١١٦.

٢١- مواقف، العددان (٥١ – ٥٢) مصدر سابق، ص ٤٧.

*****

نثار الروح والجسد: حكايات رائقة بحجم كف اليد

خليل حسونة

نثار الروح والجسد، حكايات رائقة بحجم كف اليد، نستطيع الادعاء بأنها تدخل ضمن الوعي الحداثي للإبداع الذي يحاول استخراج دخيلة المتلقي ليسهم في بناء المضمون أو تخيل الغاية، في خط متساوق يعمل جاداً على كشف عوالم الكاتب الباطنية، عبر عادية صارمة تتدفق موجة إثر موجة، مشعلة نار الحياة في نهر المشاعر الإنسانية الذي طال جفافه وتذبذبه، عبر جملة من الاستقصاءات تقف ناهدة بين سلطة المُتبَّع وسلطان الحاجة.

إنها إعادة لترتيب العقل ومراتب الروح عبر نفي التقليدي وإقصاء السائد. تجعلك رغم صرامتها تكتشف بنوع من الدهشة، والمتعة الكبرى كيفية تشكل الذات المتشظية بالحلم والحمى. وهي تحتفي بالشخصي والحميم لرجل مرتبط بالمكان واللحظة، دون أن تقتصد عشقها. لتؤكد لنا أنها الناطق باسم الأفكار والأحاسيس التي تعتمل في نفوس الناس. وهي تنتقل بعفوية ورشاقة بين العديد من دقائق حياتنا اليومية التي التقطها من زوايا المألوف وأركان العادي في توحد جمعي. أضفت لغته الرشيقة ذلك الانبهار الذي أوصلنا للدهشة المرجوة. فخطفنا من همومنا وأصابنا بالرعشة اللذيذة وهو يبرز لنا الوجه الآخر لحياته، حياتنا.

في هذه المجموعة المتميزة لكاتب متميز تظهر الفرادة، كون الكاتب

فيها يريد أن يقطع الصلة بين اللاسائد والسائد. على قاعدة نسق أسَّسه دفعة واحدة، تمهيداً لتأصيل حالة إبداعية تعتمد التجريب المحبب الذي يعتمد بدوره على نزع التقديس والأسطورة عن المعتاد الشائع. لكشف آفاق الممكن والمستحيل، عبر الوهج المنبثق من الإبهار، يلغي القطيعة ويمسك الوشائج المفترضة بين نبرة الروح وشظايا الجسد. لبلورة حميمية يفترضها الكاتب لهمّ إبداعي. أو ربما لأنه لم يعان تجربة الحب المبكرة لاعتبارات كثيرة. وضعت بصماتها على جسد المجموعة من «طفولة» وإلغاء «النحس الحزيراني» وحتى «عماد باشا» و«الافتراضي». الذي أكد مقولة الكاتب «ما أصعب أن تكون أعزباً بعد زواج أو أن تكون قاحلاً بعد خصب» كجدلية نافرة تسكن أغوار الكاتب النفسية، لتؤكد حالة التوليف الممتد من الحسي إلى الفلسفي، الذي يبرز التعارض بين الرؤية كفعل بصري، وبينها كتصرف تأملي. نزع الكاتب عبرها حواسه من قيود العقل والعادة معيداً اكتشاف المعتاد عبر لهب العبارة بعيداً عن الشعاراتية. فالكاتب في نصوصه يلتهب: يسخر، يقارن، ويفارق وينتقد بشكل لاذع. فالمروي عنه هو اليومي المعيش، المغلَّف بخشونة مغلَّفة بالكبرياء والأنفة.

ورغم أن هذه القصص لا تستعصي على التصنيف كقصص قصيرة جداً، إلا أنها تعيد إلينا باقتدار أصداء المجموعة الرائعة التي كتبها الروائي الياباني العالمي ياسوناري كاواباتا ومجموعة الولد الفلسطيني الصادرة عام ١٩٧٧ لمحمود شقير، وبعض نصوص الشاعر علي الخليلي في بعض الدوريات والتي كلها تتجاوز الطوطم المقدس لتكريس الهارب

والمحتمل. بلغة متفجرة مفترضة في دلالتها، ترى نفسها في غامض البياض، وجبروت الحروف، وهي تنتقل بك في النار إلى الماء إلى النار، من السطحي إلى الأعماق، ومن الخطابة إلى العقل والوجدان باعتبارهما القمة الأعلى في إدراك الإحساس بمأساة الكائن، الكاتب، الإنسان.

من هذه الزاوية يمكننا أن نفهم هذا النقد، وتلك المقاربات، وعلى هذا الأساس نعد القاريء بمتعة خاصة إن هو استطاع لملمة هذا النثار المحبب.

*****

نثار الروح والجسد: أحياز الواقعية النقدية(*)

د. نبيل أبو علي

أفرد القاص «رجب أبو سرية» مجموعة قصصية كاملة للتعبير عن رأيه في الواقع الفلسطيني، هادفاً الى كشف الزيف الموجود في هذا الواقع، وتعرية الفئة المتسببة في تشويهه، وقد كثّف موقفه في عنوان المجموعة، «نثار الروح والجسد»، هذا العنوان الذي ينطوي على قدر كبير من الإحباط والتعب، والذي تشابكت دلالاته مع عناوين العديد من قصص المجموعة، فعنوان قصته «دوام الحال» يتقاطع مع المثل الشعبي القائل: «دوام الحال من المحال»، ليعبر منذ الوهلة الأولى عن رفضه لهذا الحال، وتأكده من عدم ديمومته، ولكن محتوى القصة يعارض دلالات العنوان، ويغلق نافذة الأمل، ويقرر أن دوام الحال ممكن، تعبيراً عن يأس القاص من الخروج من المتاهة التي دخلها الشعب الفلسطيني بعد أوسلو، وأن الواقع أضحى مقلوباً، فهناك استثناءات لشخصيات مهمة جداً، يمكنها أن تمر عبر الحواجز في كل الظروف، وفي كل وقت، لم يعنني الأمر كثيراً، لأنني اعتقدت بأنه يتعلق بشخصيات هي فعلاً مهمة.

إلى أن داهمني الاكتشاف يوماً، حين رأيت مبدعاً كبيراً، هو شخص مهم جداً بكل مقاييس، يتوسل إلى مرافق لشخص مسؤول أن ينقل له حاجة عبر الممر المستحيل، حينها قمت بالبحث والتقصي عن المفهوم الملازم للشخصية المهمة، فتوصلت إلى النتيجة بأنه لا يتجاوز واحداً من اثنين -مسؤولاً عسكرياً يعلّق على كتفه ما يدل على مكانته، أو موظفاً

(*) (٤١) نثار الروح والجسد: ٥١-٥٢.

كبيراً يحتل مكانة وظيفية أو إدارية ذات شأن.

لا ينطبق الحال بالطبع على كاتب أو مبدع أو فنان مهما كانت أهميته، أو تراكمت أعماله، وحتى لو طبقت شهرته ومكانته الآفاق(٣٨).

ولأن الآمال في اصلاح الخلل، وإعادة المجتمع إلى جادة الصواب تنعقد على رؤى المفكرين والمبدعين، وتوجيهاتهم، أعلن الكاتب يأسه من تغيير حال المجتمع، لأنه لا يحترم المبدعين والمفكرين، ولا يعترف بأهميتهم، يقول: «حينها فقط كتمت غيظي، وتكومت على ذاتي، وأيقنت بأن دوام الحال ممكن على كل حال، وفي كل ميدان وفي أي مجال، وأن حياتنا -والحمد لله- تمام التمام وعال العال»(٣٩).

وقد حرص القاص في قصص هذه المجموعة التي تدخل في أحياز الواقعية النقدية المشبعة بالهم السياسي على تكريس رفضه لتصرفات الذين يدّعون المكانة والأهمية، من الموظفين المدنيين والعسكريين، ففي قصة بعنوان «مسؤول» يكشف المظاهر الزائفة لمدعي الأهمية، ويفضح العلاقات المشبوهة بين المدراء وسكرتيراتهم(٤٠).

وفي قصته «عماد باشا» يجعل الرتبة العسكرية «عماد» اسماً للمسؤول، ثم يكشف زيف هذه الرتبة، لأنها منحت الأهمية لمن لا يستحقها، فاستغلال رتبته وبزَّته العسكرية للمباهاة أمام النساء، والإيقاع بهن، ويرى القاص أن مكان مباهاة القادة العسكريين هو ساحة المعركة، والدفاع عن الوطن المستباح، يقول: «ولم تعد الأوسمة التي تلقاها دونما مناسبة أو سبب يؤهله لأن يكون جديراً بها، تثير في نفسه زهواً بارداً، لأنها ترافقه على الدوام، وبها يمكنه أن يتقدم من النساء بقوة لا يخالها

تتوفر لدى الرجال الآخرين! ولأن مصاحبة النساء تكون أجمل حين تتم في إطار طقسه الخاص، فقد اعتاد أن يبدأ ليلته بكامل بهائه المصطنع، ثم يلج فيها مصطحباً كل العوامل المساعدة على الإنتشاء من السوائل الى الدخانيات المهربة، يراقب وحده فضائيته المحببة، والتي عبرها أمكنه أن يتعرف على الوسائل والأشكال الحديثة للتعامل مع المرأة، هكذا يمضي العماد وقته، وهكذا اعتاد أن يقضي لياليه،... ثم في لحظة الذروة يلطمه القدر على قفاه، حين يصطدم كفه -خطأ- بجهاز التحكم عن بعد، فتنقلب قناة البث، لتعرض شريطاً إخبارياً للحرب الدائرة في مكان آخر»(٤١).

*****

في مجموعته القصصية «تهاويم الأرق» أبو سرية يطرح إشكالية نص اللقطة

بقلم: حسين اللهواني

في مجموعته التي أصدرها الاتحاد العام للمراكز الثقافية وحملت إسم «تهاويم الأرق» يتعرض رجب أبو سرية لأكثر من قضية إنسانية ويتصدى للعديد من الظواهر والمفاهيم والمقولات الإشكالية، ويمعن في البحث عن كنه الذات البشرية بكل تعقيداتها وتشعباتها، إنحناءاتها، تمردها، مفارقاتها التي تبلغ حد المكابرة والاكتفاء بداء الصمت العميق، أو الخروج عنه وعليه والركون إلى منزلقات فجائعية وتأتأة الكلام، الكلام الذي يقود إلى ما لا تحمد عقباه من نتائج وتبعات وآثار.

في «تهاويم الأرق»، نجد نصوصاً مختلفة التراكيب والنسيج، فمن النص الكلاسيكي الذي يتبع شكلاً ومضموناً ما هو متعارف عليه من شروط بشأن القصة القصيرة، ومن النص الذي يمزج ويخلط بين شروط أكثر من رؤية ونظرية فنية (واقعية، سريالية، بنيوية، وجودية)، وصولاً إلى النص اللقطة المكثف بعمق جوهراً ومظهراً، وانتهاءً بنصوص لاهوية محددة لها، ولا تنطبق عليها الشروط والمعايير والمحددات الكلاسيكية، ولم تتطرق إليها أي من المدارس والنظريات الفنية التي تعنى بإبداعات القصص القصيرة، تحديداً.

وإذا كانت القصص القصيرة (العادية) لا تثير إشكالاً في مواصفاتها بالنظر إلى بنيتها، نسيجها، وعدد كلماتها والمراد منها وما إلى ذلك فإن

«أبو سرية» قد آثار فعلاً وحقيقة وممارسة إشكالية جوهرية بصدد هوية الجنس الأدبي.

ففي نصوصه الثلاثة القصيرة جداً التي عنونها بـ (اشتهاء، حكمة، مسئول) يطرح القاص نصاً لا مألوفاً يمكن أن نسميه بالنص – اللقطة، ومثل هذا النص أصبح مألوفاً ومتعارفاً عليه في المجموعات الشعرية أو النصوص النثرية التي لا تمتلك مواصفات تصنيفها في خانة الشعر.

ظاهرة نص – اللقطة إذاً، ظاهرة دارجة مقبولة، شائعة أجاد بعض الشعراء توظيفها وتثميرها وأخفق غيرهم في التعاطي معها.

وعدا عن التركي «عزيز نيسين» وقلة من الروائيين الذين لم يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، فقد تجرأ أبو سرية وفي محاولة منه لكسر (التابو) المتداول، على نقل الظاهرة ذاتها من الشعر إلى جنس أدبي آخر هو القصة القصيرة.

فهل نجح في هذه المحاولة التجريبية أم أخفق؟

وقبيل أن نجيب على هذا التساؤل، وعن إمكانية النجاح من عدمه، لا بد من تأكيد القول، بأن القاص وبالاستناد والارتكاز إلى قصصه الثلاث (اشتهاء، حكمة، مسؤول) قد لجأ إلى التجريب المحسوب بدقة، وليس التجريب العبثي العشوائي، وقدم نصاً واضح الدلالة، سلس الفهم، ناضج الرؤية، متألق النتيجة، منطقي العرض، ومقنع في عناصره، التي تشكل بنيته الأساس، علاوة على تفاصيل التفاصيل التي تكمل المشهد وتضيء جوانبه من زوايا ومنظورات مختلفة.

المشكلة الأساسية التي أثارها الكاتب متعلقة ليس بمحاولة التجريب بقدر ما هي مرتبطة ببنية نص اللقطة على صعيد القصة القصيرة، جوازيته، إمكانيات استمراريته، صيرورته، ومآله، وتلك مسألة أخرى.

وإذا كان أبو سرية قد طرح مشكلة نص اللقطة بكل الجدية والحدّة وأقدم على مغامرة محسوبة كما قلنا، فإننا نعتقد وضمن هذا المساق، أن للمبدع أن يختار شكل النص الأدبي الذي يعبر فيه عن رؤيته بخصوص (ظاهرة، مشكلة، قضية، مقال، فكرة وما شابه)، ونوعية الأدوات التي يراها صالحة والأسلوب الملائم، وللمبدع كذلك أن يطرح أسئلته وإيصال مواقفه، قناعاته، بالطريقة التي يجدها ملائمة ومناسبة من ألف باء الظواهر المجتمعية الإنسانية وإلى أبسط وأهم وأعقد المفاهيم.

فلا قوننه في الإبداع، ولعل من أشد المخاطر والمثالب التي يمكن أن يعاني منها المبدع مسألة القولبة أو ما نطلق عليه اصطلاحاً بالصنمية الأدبية.

صحيح أن للمبدع أن يسترشد بالأساس بالمعايير والمواصفات التي خلصت إليها المدارس والنظريات الفنية (رغم اختلاف منطلقاتها، منتوجاتها ونتائجها ومبتغاها)، وما توصلت إليه الثقافة الإنسانية، لكن الصحيح أيضاً أن نظريات فيثاغورس وحساب المثلثات، وشؤون الضرب والطرح والقسمة ونظريات الكيمياء الحيوية، لا يمكن بأي حال تعميمها في مجالات الأدب والفن، وأن القضية مرهونة بتوفر شروط الحد الأدنى لأي جنس أدبي (قصة قصيرة، نصوص نثرية، رواية، مسرحية شعرية، ملحمة تاريخية).

نقول

أنه لا بد من توفر بعض الحدود والشروط والمعايير حتى لا تختلط الأجناس الأدبية ببعضها بعضاً لدرجة تبديد هويتها، رغم جوازية المزاوجة بين أكثر من جنس أدبي، ضمن سياق عمل واحد وتحضرني هنا محاولة مهمة أقدم عليها الكاتب حسين البرغوثي، ذات مرة.

وإذا أجيز لنا القياس، فأن مسألة شائكة كنص اللقطة الذي نحن بصدده، تشبه تماماً النقاش الفلسفي الذي أثير بخصوص مقولة الحرية.. وكحل لهذه الإشكالية إرتبطت الحرية بالضرورة وأقرَّها (الفكر الماركسي)، رغم أنه لم يتم الإقرار بهذا المفهوم في الفكر الرأسمالي وأدبياته.

الفيصل الرئيس والعامل الحاسم الذي يضع النقاط على الحروف ويكفي المؤمنين شر القتال هو أن يكون النص أياً كان تصنيفه مفهوماً، متجانساً شكلاً ومضموناً، جوهراً ومظهراً، منطقي التسلسل يحرض العقل على التساؤل، على القلق، على الاستيعاب والإدراك والفهم، يتوسل المعرفة والثقافة لإضاءة مجاهيل غرف الدماغ وتنويرها، والارتكاز إلى سلوك حضاري، تقدمي يقلل من رعونة وظلامية موروثات سلبية، وطرح إشكاليات أو تقديم إجابات لإشكالات (سيسولوجية، أبستمولوجية وفنية).

لم يتقيد أبو سرية بالمفاهيم الكلاسيكية للقصة القصيرة، وحاول تجريب نص اللقطة ونعتقد أنه حقق «خبطة» وهذه تحسب له، أنه اجتهاد على قاعدة من اجتهد فأصاب وليس قاعدة من اجتهد فأخطأ، لم

يكتف أبو سرية بالتجريب والاجتهاد على صعيد الشكل، وإنما عمد أيضاً إلى إثارة ظاهرة لا تقل أهمية وخطورة عن سابقتها، ألا وهي ظاهرة الموروث الاجتماعي للأفكار والعادات.

وكنموذج لطرح الظاهرتين المشكلتين – نص اللقطة، موروث العادة، معاً، سنختار قصته التي أطلق عليها اسم حكمة (ص ٧٤) وخلص بها ومعها إلى نتيجة معاكسة ومضادة.

وحكمة المختار في المجموعة ليست إلا نموذجاً للكثير من المقولات المتداولة بلا تدقيق والشائعة شيوع الخرافة، والتي ما أن يمحّص المرء كنهها حتى يحار في أمرها وغرائبيتها، ويكتشف أن الواقع لا صلة له بها.

الواقع إذاً هو الفيصل في ثبات مصداقيته وصدقيه أية حكمة وأي قول وأي متداول شعبي من الكلام، والواقع وحده دون سواه إما أن يؤكد تواصل وتتابع دلالات أية حكمة أو قول وإما أن يعمد إلى إسقاطها ونفض يديه من كل ذلك.

وبكلمات أخرى، تتوفر للحكمة دينامية وقابلية الإستمرارية إذا ما توفرت لها في الواقع إمكانيات تمنحها هذا المعنى، وتنعدم استمراريتها إذا افتقرت لعناصر الصيرورة، الحكمة التي هي عبارة عن جملة استخلاصات لخبرات وتجارب حياتية، تناقض مفهوم المختار مشكوك المصداقية والصدقية، حسب مفهوم ورؤية الكاتب ذاته.

إن قراءة خلف سطور اللقطة/ النص تؤكد أن حكمة المختار وبيوت الحارة ليستا إلا رمزين لحكم ليست بالحكم ولحارات مجاورة متعددة ومنتشرة جوار الحارة الرمز.

القاص يشكك في حكمة المختار ويعمد إلى التساؤل، ويحرض على السؤال، لا يكتفي بالتساؤل، وإنما يدعو للبحث عن إجابة عقلانية واقعية تسندها التجربة والخبرة، وكأنه يقول لقارئه عليك بالتدقيق في المألوف والشائع من المقولات والحكم والمأثورات في الموروث الهش الذي يفتقر لعناصر الإقناع أو كما يقول المصلي هذا الجمل وهذه المئذنة، فإن قفزها سنصدق الرواية، وإن لم.. فليس علينا إلا إعادة النظر والتدقيق فيما يرد إلينا من أقوال أو ما نقوله من تعميمات و موروثات لا حياة في نسيجها ولا نبض في جسدها.

تهاويم الأرق، مجموعة قصصية موزعة على سبعة عشر عنواناً وتسعة عشر نصاً، يشكل كل منها، حالة، يتابعها الكاتب في أخص تفاصيلها، ومنها وعبرها، إما أنه يشخص حالة لانتقادها وطرح رؤياه تجاهها، وإما أنه يطرح تساؤلات مرة الطعم وحاذقة النكهة، أو يعمد على السخرية المريرة وطرق أبواب ومزاليج الروح، وعدا عن كل ذلك وعلى العكس مما ذهب إليه أبو سرية على غلاف مجموعته، نراها مثيرة حقاً للجدل والقراءة والتمعن لالتقاط أقسى أنواع المفارقة حضوراً.

*****

نثارُ الرُّوحِ والجَسَد لرجب أبو سرية
«محاولة للملمة بعض النثار»

جبر جميل شعث

هل الثقافي يكون –دائماً- نتاج سياق سياسي ؟ أم أن الأيدلوجيا هي التي تنتج وتلوّن العمل الثقافي؟ والى أي حد يستطيع الكاتب المسيَس/ المؤدلج أن يفلت بنصه من السيأيديولوجي ؟ برأينا إنه لا يستطيع وإن ادَّعى الحيادية والمراقبة المجرَّدة للظواهر والمظاهر السياسيولوجية. تأسيساً على هذه التساؤلات، وعلى رأينا نحاول أن نقارب العمل القصصي الأخير للقاص/ الروائي «رجب أبوسرية» المسمى «نثار الروح والجسد» هذا العمل الذي نستطيع أن نضعه تحت مصطلح « التجريب السردي» الذي يغور في العمق من خلال السطح، ويمارس المكر الفني المحبب على العادي ليوصله إلى اللاعادي. وما هو غير العادي،من وجهة نظر الانسان العادي، في سيدة تقود سيارتها الفارهة، وفي ولد يحمل منديلاً متسخاً يمسح به زجاج السيارة طمعاً في عطف تلك السيدة عليه بقليل من النقود، التي لا تعيره أي اهتمام بل إنها تتظاهر بعدم رؤيتها له، وتتشاغل عنه بتمسيد فروة قطتها السيامية النظيفة ؟.

إن هذه القصة القصيرة جداً المعنونة ب«إشارة» والتي تنطوي على تورية ماكرةعميقة الدلالة، حيث إن المعنى القريب السطحي لها هو إشارة الضوء المرورية.

المعروفة، أما المعنى البعيد العميق، هو ما يشير إليه ذلك الموقف بين السيدة المستعلية المترفة وبين الولد المتسوّل الرث، وقصة اشارة، في رأينا،هي ذروة سنام العمل القصصي كله، هي القطب وما يليها تفاصيل لها وتنويعات عليها. إن الكاتب هنا يعرض للطبقية في المجتمع، وهنا تتجلى أيدلوجية الكاتب التي لا نعرف إن كان ما زال عليها، أم أنها تسربت إليه من ماضٍ ليس بالبعيد، وهو يُدين، بدون فجاجة، المنطلقات السياسية التي أدَّتً إلى الراهن السوداوي المقلوب، الذي كان موقف السيدة مع الولد أحد تجلياته الكثيرة المنتشرة في المجتمع وفي معظم قصص المجموعة ؛ ففي قصة " تاج " يدين الكاتب الواقع السياسي العربي، ومن ضمنه الفلسطيني بطبيعة الحال، المتخلف، رغم أنه لم يكن موفقاً في تحميله الفتاة ذات الخمسة أعوام ما لا تحتمل. وفي قصة "حدث في يوم السبت " يدين الكاتب الإستلاب أمام الآخر وذوبان الهوية. وفي قصة " موعظة حسنة " ينتقد بشدة اليسار من خلال بعض مقولاته وتصوراته، ويستخف به/بهم. ولم يفت الكاتب أن يطلق سهامه على الحال الثقافية في بلادنا التي تتبع السياسة وتخدم السلطة ؛ فالمبدع الذي انتظر جائزته بكل براءة، ظناً منه بنزاهة القائمين عليها، والذي مات وهو ينتظر المستحيل، لم يكن من بنات خيال الكاتب، انه أحمد عمر شاهين الذي حجبت عنه جائزة الترجمة، وهو من هو في عالم الترجمة والبحث والأدب، وبعد أن رحل الرجل وصارت عظامه مكاحل أعطيت الجائزة لذويه من باب رفع العتب والخوف من أقلام المخلصين، وهو الراحل محمد حمزة غنايم الذي لم يمنح جائزة فلسطين، رغم أنه كان

مرشحاً بقوة، ولكن قوة الوثن المانح المانع كانت أكبر.وفيما بعد وتداركاً للموقف أرضته وزارة الثقافة،بطباعة كتابه « الغرائبي».

الكاتب والموقف من السلطة والتسوية:

في كل قصص مجموعة "نثار الروح والجسد" يرجع القاص رجب أبو سرية، ما أصاب المجتمع الفلسطيني من وهن وتردد وتفاوت وإحباط ولامبالاة وضياع، إلى السبب الرئيس وهو المنطلق السياسي الخاطيء المتمثل في اتفاقية «أوسلو»المنقوصة غير المتوازنة، وهو بهذا يدين الساسة الذين صعدوا الجبل الباذخ سعياً وراء النسر في القمّة الشمّاء، وإذ بهم يعودون بفأر هزيل. لقد انتقد الكاتب السلطة بشدّة في قصة "ضدان" لأنها تحاول أن تغطي عجزها بتدجين الشعب والابتعاد به عن التفكير في القضايا المصيرية الكبرى ؛ من خلال إلهائه بالمعيش اليومي فأنت لا تكاد تدخل أية مؤسسة حكومية إلا وتسمع حديث الموظفين عن الدرجات والعلاوات والقهر الوظيفي والحسد الوظيفي ...الخ. انه مكر الساسة ومكر السلطة في النظام الرسمي العربي المهتريء المتخلف سبب الهزيمة،الرجل العجوز الماجن العاجز الذي آن له أن يموت « قصة يوم الفرح والمأتم».

« ... حتى أنه تعرَّف إلى معنى الطرق الالتفافية، باعتبارها أطول الطرق، وأحياناً تكون أقصرها، قبل أن تأخذ شكلها ومعناها وحضورها على خرائط العراك السياسي بين المتخاصمين اللدودين، اللذين يحاولان أن يكونا جارين حسنين دون جدوى !» هذه الفقرة من قصة

«لباقة» ص٢٧،٢٨ومنها سأحاول استكناه موقف الكاتب من موضوع التسوية مع الآخر.

يوصّف الكاتب ما بيننا وبين الآخر (الإسرائيلي) بأنه خصام والخصام كما نعرف هو أدنى درجات العداوة التي سرعان ما تزول وعادة ما تكون بين الأخوة والأقارب والجيران، وهو بتوصيفه هذا يوحي لنا بأنه يؤمن بإمكانية حدوث هذا التصالح يوماً ما، مع اعترافه بصعوبة حدوث ذلك الآن لأسباب مختبئة خلف سطوره. وحتى لايفهم من كلامنا ونحن بصدد مقاربة عمل إبداعي مختلف ورائع لكاتب مثقف متميز، إننا ضد السلام والتعايش مع الآخر نقول: إننا مع السلام ولكن سلام الأنداد القائم على الحق وإرجاعه لأصحابه.

× نثار الروح والجسد مجموعة قصصية «رجب أبو سرية» منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين ٢٠٠٥. قدم للمجموعة الكاتب الشامل خليل إبراهيم حسونة.

الغلاف للفنان: باسل المقوسي.

*****

رجب أبو سرية في «نثار الروح والجسد»
عالم يعج بالفوضى والضجيج

يسري الغول

أحداث يومية تتكرر بشكل عادي بسيط يلتقطها القاص الفلسطيني رجب أبو سرية في مجموعته القصصية الجديدة "نثار الروح والجسد" والتي صدرت مؤخراً عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين. خلال هذه القصص يعايش القاريء الواقع بمتغيراته، الهمَّ اليومي و التسوُّل بأشكاله الغريبة، المؤلمة، كمسح زجاج السيارة في قصة "إشارة"، و الغور في الأعماق لاجتثاث مكنونات الإنسان المعاصر، المريض، الهائم على وجهه شوقاً لحياة قديمة كانت أفضل، و هائماً في طرقات الوطن البائد في طيات الانزوائية و العبودية و التطرف و الرشوة والعدوانية و عدم العدل أو المساواة، فهذه القصص رغم بساطتها إلا أنها مراوغة، مفعمة بطاقة شعرية مرهفة و قدرة فائقة على تقطير التجربة الإنسانية والقبض على جوهر النفس البشرية و التعبير عن صبواتها و مطامحها وأحزانها ببساطة و يسر آسرين فيبتعد بنا عن السطحية التي لا تكاد تذكر في قصصه لحنكته في سرد اللحظة الآنية بطريقة أدبية رفيعة، فالقصص هنا هي قصص قصيرة جداً و يمكن وضعها تحت إطار الأقصوصة و كما ندرك جميعاً أن كاتب الأقصوصة ينظر إلى الأشياء بمنظار خاص كما يقول أحد الكتاب الفرنسيين «كاتب الأقصوصة الحديثة مضطر إلى رؤية العالم بطريقة معينة لا تنبثق من مناخ الأزمة المعتاد فحسب و لكن

من طبيعة الشكل الأدبي للأقصوصة الذي يجنح إلى تحليل التجربة الإنسانية بطريقة إختزالية إلى عناصرها الأولية من هزيمة و اغتراب» وتذكرني هذه القصص بمجموعة زياد خداش «موعد بذيء مع العاصفة» التي تشبه إلى حد كبير قصص الكاتب رجب أبو سرية، لكن الفارق أن زياد خداش انتقل من الأقصوصة إلى القصة في مجموعته «خذيني إلى موتي» لكن أبو سرية لا يزال في عالم الأقصوصة، فمجموعاته الأُول «ليس غير الظل» و «تهاويم الأرق» تُظهر ذلك النَفَس القصير في كتابة القصة لدى رجب أبو سرية، و كل هذا أعطى كاتبنا طبيعة خاصة يتفرد بها عن غيره في عالمه الخاص الجميل و الرائع، فالشكل الأدبي هنا ليس وعاء للتجربة لكن التجربة ذاتها تشكلت بهذا النسق المعين، فنجد أن وحدة الأثر أو الانطباع - و التي تعتبر أهم خاصية من خواص القصة أو الأقصوصة - تحققت في معظم القصص مثل «مطلَقة» و «كان صديقي» و «هو، هي» .. الخ. منتقلاً من السطحي إلى الأعماق دون ثرثرة زائدة أو إستطراد لا يفيد القصة بشيء ليتوحد مع ذات القاريء التي تفكر بالنسق نفسه الذي تبنّاه الكاتب في قصصه. نستشف أيضاً في مجموعته نثار الروح و الجسد العوالم الجمالية و التي نستطيع إدراجها في إطار الكلاسيكية مبتعداً عن المونولوج في أغلب القصص.

يرتبط أيضاً رجب أبو سرية بالمكان و اللحظة فتظهر فنية الكتابة و روعتها في التقاط الحدث بصورته العفوية غير المربكة كفلاش يرتطم بجدران الواقع الذي يذكره الكاتب، لكن الكاتب فشل في بعض القصص من الخروج عن التقريرية المفرطة ففي قصة «دوام الحال» شعر القاريء

فعلاً بأنه يقرأ حدثاً عادياً لا طعم له ولا يمت إلى عالم القصة بشيء بل أنه يقرأ حدثاً ما في جريدة ما. بالنسبة للأسماء و القصص فهي أسماء حديثة مثل إنترنت و إعلانات و لباقة و من قبل من بعد، و يوم الفرح و المأتم الخ، لكن هناك تفاوت بين القصص من حيث القوة و الجاذبية عن البعض الآخر فقصة «هو، هي» بروعتها كانت في طليعة المقارنات الأدبية بين أشخاص وعوالم مختلفة، فهو العجوز الأربعيني الذي يقبل بنزوة قد تحدث أو فكرة بزواج، أما هي فتفكر بالزوج الذي سيطرق أبواب بيتها / ثم هو الذي ينفر من تهاويم الموت و هي التي تبحث عن قربان الحياة، كذلك قصة «الفتى و الكهل» فالكهل هنا بثياب فتى أما الفتى فهو بثياب كهل و هذه القصة تعبر عن الأرق و الألم الذي يعيشه الشاب المقهور والمكبوت بحثاً عن وظيفة و عمل يقيه برد التسول لكن للأسف سيطر عليها أصحاب الكهولة، فالكهل في أحضان وثيرة منشرح الصدر لا يأبه لتوسلات الحياة بالعودة إلى شيخوخته، كذلك قصة مطلقة التي تظهر المنظور الاجتماعي للمرأة المطلقّة و الابتعاد عنها و كأنها أصبحت جيفة رغم أنها كانت الحب الأول للبطل، تفسير آخر لها قد يفهمه القاريء بأن المطلَقة قد تقبل بأي زوج لأنها تعلم أنها الآن لن تتزوج سوى إنسان فارغ لا يمتلك سوى ألم الماضي، كذلك باقي القصص الأخرى فهي قضايا إجتماعية بسيطة قد يراها الإنسان في أي لحظة أو يلمسها في الطريق أو البنايات أو العالم من حوله عدا قصة «مبدع» التي لن تكون أبداً، فالمبدع يموت في نهاية القصة منتحراً لأنه كان يعتقد أن المسابقة التي تقدم لها ستظهر قدرته في كتابة القصة فيحصل على إحدى الجوائز

التي أعلنت عنها تلك الجهة، لكنهم يخذلونه بأنهم تناسوا تلك المسابقة ولم يعلنوا عن النتائج، وتذكرني القصة بما حدث معي قبل عامين، ففي مسابقة أعلنت عنها وزارة الثقافة وكان القاص رجب أبو سرية أحد المشرفين عليها تقدمت مع مجموعة من الشبان لتلك المسابقة و بالفعل فزنا وحصلت على المركز الأول لكنني حتى هذه اللحظة لم أحصل على الجائزة المرموقة التي أعلن عنها في ذلك الوقت أو أي شيء آخر، كذلك باقي الفائزين، فلم ننتحر لأننا حصلنا على أفضل من تلك التي يقدمها اتحاد الكتاب أو وزارة الثقافة وهي قدرتنا على الخروج عن طاعونهم و سرد ما يجول بخواطرنا على ذلك الورق الذي تركه جميعهم على ارض صلبة.

*****

قصص «ليس غير الظل» لـ «رجب أبو سرية»
ملاحظات على الشكل والمضمون

فتحي درويش

بعد روايتين هما: دائرة الموت ١٩٩٢، عطش البحر ١٩٩٤، صدرت للقاص رجب أبو سرية مجموعة قصصية بعنوان «ليس غير الظل» وهي من الإصدارات الجديدة لاتحاد الكتاب الفلسطينيين.

تحتوي هذه المجموعة على عشر قصص قصيرة، يعالج فيها الكاتب الموضوع الإجتماعي، إلى جانب تناوله لمواضيع سياسية محددة كالإنتفاضة والعمل الحزبي.

وفي قراءتي لهذه المجموعة، سوف أتوقف طويلاً أمام المضمون، باعتباره جوهر ولب القصة، منطلقاً في ذلك من دور ووظيفة الأدب كعنصر هام من عناصر التنوير الاجتماعي، ورافعة من روافع الاستنهاض في المجتمع، دون أن أغفل في ذلك حق الكاتب في تناول الموضوع الذي يرتئيه وبالطريقة التي يراها مناسبة.

وسوف أقصر تناولي لهذا المضمون على قصتين هما: قصة «بروش شلو» وقصة «وميض الرغبة» باعتبارهما تعالجان موضوعين مختلفين ومضمونهما أكثر وضوحاً من القصص الأخرى؟

«بروش شلو»

وتتبدى خطورة هذا المضمون في قصة «بروش شلو» والتي تعني في العبرية «في رأسه»، من خلال الربط بين تلك الليلة الخائبة التي قضاها الجندي الإسرائيلي «عازار» مع صديقته راحيل، والتي حاول خلالها أن يثبت لها رجولته دون جدوى، وإطلاق النار بشكل عشوائي على الفلسطينيين في مخيم عسكر إبان الانتفاضة.

وكأن قيامه بإطلاق النار بشكل عشوائي، يأتي كردة فعل على فشله في معاشرة صديقته راحيل، وهذا ما يصوره الكاتب في تلك القصة، وفي ذلك تسفيه للصراع وتصويره بغير حقيقته.

«بعد أن قضى ليلة خائبة مع صديقته راحيل، حاول خلالها أن يثبت رجولته معها حتى الصباح، لكنه لم ينجح وكان يمنّي النفس لو يطول به الوقت، فحمل شعوره بالإحباط والغيظ من حيوية هؤلاء الفتية الذين لا يكلّون ولا يتعبون وما عاد يفكر في شيء سوى أن ينهي مهمته بأسرع ما يمكن ليعود إلى فتاته، يحاول معها، وبقى هكذا طوال يومه، كلما ألقى فتى بحجر تذكّر قذفته الخائبة وضحكات راحيل فيضطرب كيانه وتنطلق منه الرصاصات عشوائياً وبكثافة في كل اتجاه، حتى إذا ما أصاب الرأس صاح منتشياً: بروش شلو، ومن البعيد يخال وجه راحيل يفترُّ عن علامة الرضا، فيهدأ قليلاً ثم تدفعه النشوة ليحاول مرة أخرى».

ويتبدى هذا القصور الواضح في المضمون، في أكثر من موضع واحد في هذه القصة تحديداً، حيث يصور الكاتب الأمر وكأنه

مجرد غيرة، وحين يسعى إلى تقديم مفاهيم عن الآخر أقل ما يقال عنها أنها تحمل معنى الاستهتار والاستخفاف بهذا الآخر، في الوقت الذي نسعى فيه إلى فهم هذا الآخر ودراسته بشكل موضوعي.

«وميض الرغبة»

تعالج هذه القصة وقصص أخرى في هذه المجموعة موضوع الجنس الذي يستحوذ اهتمام الكاتب، فيفرد له السواد الأعظم من صفحات هذه المجموعة.

إلا أن معالجاته لهذا الموضوع تحمل في طياتها معان ومواقف قد يساء تفسيرها: على أنها موقف موجود لدى الكاتب من قضية الدين والتدين، فأغلب أبطال وبطلات هذه القصص ينتمون إلى الجمهور المتدين، الشيخ علاء بطل هذه القصة، قصة «وميض الرغبة» والأستاذ درويش مدرس التربية الدينية الذي يضبطه البطل في قصة «الأستاذ» متلبساً بحضور الأفلام الجنسية في أستديو «زهران» فيفرُّ منه، بطل قصة «وميض الرغبة» شاب جامعي متدين يدعى علاء، وهو لشدّة ورعه وتدينه يصبح مرجعاً لأهالي منطقته يستشيره الناس في أمور الدين وما حلَله الله وحرَمه للناس.

إلا أن الشيخ علاء هذا تضطرب حياته فجأة بعد أن يتعرض لإغواء جارته المطلقة «ماجدة» التي ظهرت له أجزاء من جسدها البض، حينما

كانت تقوم بتنظيف درجات السلم،يستحوذ التفكير بها على كل كيانه ويصبح فكره مشتتاً بين أمور الدنيا والدين.

«لم تتبرج تلك المرأة المطلقَّة؟ تذكرَّ ثوبها الأحمر، تذكر ليلته، أنها الممتلئة البيضاء المثيرة للرغبة، تعاطف مع وحدتها وحاجتها للرجل، حاجتها للرجل.

لطم رأسه بكفه، ولكن هل يعقل؟ ولم لا؟ ألست رجلاً؟ هل تراني كذلك؟ وأنا ما بي أنا؟ إنني بحاجة إلى امرأة كما هي بحاجة إلى رجل، فما الذي يمنع ذلك؟ الحلال، الحرام، الرغبة، الدين..» وبعد مخاض طويل يتأخر الشيخ علاء في الذهاب إلى الجامعة عن قصد، ينزل درجات السلم ثم ينحني مع انحنائها كي يرى اكبر مساحة من جسدها، يتنحنح فتنتصب هي وتدخل شقتها فيدخل وراءها بعد أن يخالها تقول له: تفضل.

«الشكل الفني»

وإضافة لقصور مضمون هذه القصص،فهي لا تخلو من عيوب الشكل الفني، على الرغم من حرص الكاتب على الاهتمام بالشكل والارتقاء بمستواه عبر سعيه لإدخال الحوار والمونولوغ الداخلي في قصصه، لخلق جو لافت أو مناخ قصصي يشد إنتباه القاريء.

وقد نجح الكاتب بالفعل في قصة «وميض الرغبة»، في تصوير تداعيات روح الشيخ علاء بطل هذه القصة، عبر رصده للمخاض الفكري الذي مرّ به، والذي أدى به إلى مثل هذا الانقلاب المفاجيء.

ويبدأ بطل هذه القصة منسجماً مع ذاته كإنسان شرقي يحتل الجنس

حيزاً هاماً في تفكيره، إلا أن المفارقة العجيبة سرعة هذا الانقلاب لدى شاب متدين وورع كبطل القصة.

«الشخصيات»

شخوص هذه المجموعة، تبدو غير منسجمة مع ذاتها، حيث يبدو ألبون شاسعاً بين القول والممارسة العملية لهذه الشخصيات، فالأستاذ درويش بطل قصة «الأستاذ» لا ينسجم سلوكه مع كونه مدرساً للتربية الدينية، وزينب الفتاة المتدينة في قصة «زينب» ترغب في ممارسة الجنس لكنها تشترط أن يسبق ذلك طقوس شكلية بالزواج.

وحتى شخصية محمود بطل قصة «الأستاذ» رغم تعاطفه مع أفكار زميله المتحررة، إلا أنه لا يستطيع إعلان موقفه خوفاً من الأستاذ «درويش» وحتى لا تتأثر علامته النهائية في التربية الدينية.

«محاور المجموعة»

تتكيء مجموعة « ليس غير الظل» إلى المحاور الرئيسية التالية التي تشكل جميعها كلا واحداً في البناء الفني للمجموعة:

الانتفاضة: ويعالجها الكاتب في قصة واحدة من قصص هذه المجموعة، هي قصة «بروش شلو»، إلا أن معالجته لهذا الحدث تبدو قاصرة بفعل الملاحظات التي تحدثت عنها آنفاً، مع ضرورة الإشارة إلى أن الكاتب لا يضيء في هذه القصة أي مشهد من مشاهد الانتفاضة، إلا أن الكاتب هنا يضيء الجانب الإنساني، أو الجانب الآخر لهذا الحدث

عبر رصده لشبكة العلاقات الإنسانية والاجتماعية بين طرفي المعادلة، الجندي الإسرائيلي «عازار» وصديقته والفتى الفلسطيني «مصطفى» «وخطيبته».

الجنس:

ويفرد له الكاتب أغلب قصص هذه المجموعة، عدا قصة واحدة أو قصتين، وأن تتناوله بأشكال مختلفة أو تطرقه من أبواب عدة.

*****

أدب ما بعد حداثوي

الدكتور تيسير مشارقة

هذا زمن التحميل والتنزيل، عالم ما بعد حداثوي صار عالمنا بلا منازع، فلا روح لجهاز حاسوب بلا انترنت ، ولا طعم ليوم بدون (شرفات) فصار هذا الموقع (على سبيل المثال) بيتاً دافئاً لا يمر يوم دون العبور إليه ..وصرنا في بعض الأحيان نفرش وننام فيه.

حمّلت القصة المضغوطة (طلاق نهائي) للقاص المثابر رجب أبو سرية . وهذه المرة الأولى التي أقرأ فيها قصة قصيرة فلسطينية رقمية.

جميل الشكل والمضمون.

إنها تجربة ينبغي أن تُدرس جيداً وبكل تأكيد هي الأولى رقمياً فلم يحدث أن شاهدنا قصصاً رقمية فلسطينية من قبل.

التقيت رجب أبو سرية في القدس في مؤتمر للرواية وكم سررت أنه مبدع في مجال الأدب وهو المخضرم سياسياً، وإحدى رواياته تبوأت منصباً مهماً من بين الروايات العربية وحازت على جائزة سعاد الصباح.

المسألة بالنسبة للقصة القصيرة الرقمية أنها تجريب جديد له بريقه . وهي أقرب إلى التقطيع البصري المهم وله ذائقة معينة. وربما في الأساليب التعليمية الحديثة المرتبطة بتكنولوجيا التعليم سيكون لهذه المواد الرقمية مكانة ما.

ولأننا تعودنا على رائحة الورق والحبر (في السابق) ربما لا تدخل أدمغتنا هذه الأساليب الحديثة في التوصيل الأدبي..ولكنها تبقى تجربة حديثة وسابقة لأوانها فلسطينياً ، وربما تجد في جيل الشباب من يستذوقها بهذا الشكل، علماً بأنها جاءت وفق (البور بوينت) اللطيف، مع العديد من الاضافات التصميمية الرائعة.

إنها المستقبل، أقصد العالم المحوسب والرقمي والأدب الرقمي سيطرق مخيلاتنا وعقولنا عنوة ..فهذا النمط المستقبلي وما بعد الحداثوي من وسائل القراءة والكتابة سيكون ثورة وانقلاباً مهماً في تاريخ الأدب الفلسطيني.

شكراً لرجب أبو سرية الأديب القدير على الجرأة والاقدام والصبر على هذا الانجاز.

أما على صعيد المضمون والفكرة فقد سعدت بالاطلالة على هذه الفكرة اللماحة والواعية والواقعية في العصر الالكتروني الحديث..

إنها مشكلة الخيار الحر والطوعي في العلاقات الاجتماعية..وبات خياراً إلكترونيا بل رقمياً في النهاية.

وكثير من العلاقات الاجتماعية تسقط لعدم وجود تفاهمات (أو تنازلات) ثنائية.

إنها مسألة التنازل عن بعض الأنانيات ..

ألا تعرفون أشخاصاً عازفين عن الزواج لأنهم أنانيون لا يقبلون شريكاً لهم في فتات الدنيا ولأن أنانياتهم وذواتهم تضخّمت بحيث لا يستطيعون قول كلمة "نعم" ، أو يقدمون تذللا أو تنازلا بسيطاً عن مواقفهم لصالح الشريك الآخر.

إنها الحياة.......

الإثنين ٠٤-٠٢-٢٠٠٨ ١٢:٥٣ صباحا

السيرة الأدبية

الاسم: رجب أبو سرية.

حصل على بكالوريوس إدارة الأعمال من جامعة حلوان بالقاهرة بتقدير جيد.

مدير عام في وزارة الإعلام الفلسطينية.

إتجه إلى الأدب والإعلام منذ الثمانينيات.

عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ عام ١٩٨٣.

عضو الإتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين منذ عام ١٩٨٩.

عضو إتحاد الكتاب الفلسطينيين منذ عام ١٩٩٥.

عمل محررا ثقافيا في مجلة الهدف الفلسطينييه منذ عام ١٩٩١ حتى عام ١٩٩٤.

وعمل رئيسا لتحرير مجلة الشبيبة الفلسطينية منذ عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٤.

المحرر الثقافي لأسبوعية (مجلة) الدار عامي ٢٠٠٣ / ٢٠٠٤ .

منسق عام شبكة الكتاب الفلسطينيين ورئيس تحرير موقع شرفات عام ٢٠٠٨.

نائب رئيس اتحاد كتاب الانترنت العرب / فرع فلسطين عام ٢٠٠٨.

أمين سر إحتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩ .

مدير تحرير مجلة الغيداء المختصة بشؤون المرأة الفلسطينية عام ٢٠١٠.

صدرت له الكتب والأعمال التالية:

الروايات:

دائرة الموت - رواية فازت بالجائزة الأولى في مجال الرواية في مسابقة سعاد الصباح بالقاهرة بين الشباب العربي عام ١٩٩١.

أعادت طباعتها مكتبة الأسرة بالقاهرة عام ١٩٩٦.

ثم طبعت مرة ثالثة عبر دار ميريت للنشر والتوزيع بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

عطش البحر - رواية صدرت عام ١٩٩٤ عن دار الينابيع بدمشق

وأعادت طباعتها دار ميريت بالقاهرة عام ٢٠٠٥.

نبوءة العرافة - رواية صدرت عن دار أوغاريت برام الله عام ٢٠٠٣.

وأعادت طباعتها دار ميريت عام ٢٠٠٥.

حرم الرئيس / رواية قيد الطبع .

سفر النساء / رواية قيد الإنجاز .

مذكرات إمرأة ساقطة / رواية قيد الأنجاز .

القصص القصيرة:

ليس غير الظل - مجموعة قصص قصيرة صدرت عن اتحاد الكتاب الفلسطينيين بغزة عام ١٩٩٦.

تهاويم الأرق - مجموعة قصص قصيرة صدرت عن اتحاد المراكز الثقافية بغزة عام ١٩٩٨.

نثار الروح والجسد - مجموعة قصص قصيرة صدرت عن اتحاد الكتاب بغزة عام ٢٠٠٥.

خراريف - مجموعة قصص قصيرة نشرت الكترونيا .

ضمير الأنا الغائب - مجموعة قصص قصيرة نشرت الكترونيا .
كليكات مشاغبة (موبايل - نت) مجموعة قصص رقمية، نشرت الكترونيا.

المسرحيات:
مسرحية أبو عرب في خانة اليك عرضتها بغزة فرقة البيادر المسرحية وشاركت في مهرجان الفوانيس بعمان عام ١٩٩٨.
مسرحية غزة ع التكة - عرضتها فرقة البيادر المسرحية بغزة وشاركت بمهرجان المسرح الأردني ٢٠٠٣.
آخ لو كانت ولد - مسرحية تربوية عرضتها فرقة الجلاء المسرحية بغزة ٢٠٠٢.
مسرحية العزل، ومسرحية السيد المدير العام، منشورتان الكترونيا.
مسرحيات قيد الانجاز: تاء التذكير، جنون العظمة، العراف، الرجل العانس .

شعر:
حروف بيضاء / مجموعة شعرية نشرت الكترونيا عبر دار قرطبة ٢٠١٣.
واو الدهشة / مجموعة شعرية قيد الأنجاز .

دراسات وأبحاث:
الأغنية السياسية في الوطن العربي - دراسة صدرت عن دار الأهالي بدمشق عام ١٩٨٩.
بحثان، الأول بعنوان: الأطفال - الأبطال في أدب غسان كنفاني.
والثاني بعنوان - الرواية الفلسطينية في المنفى.

هذا وله مئات المقالات الأدبية والصحفية والمقابلات الإعلامية وله مقالان أسبوعيا في جريدة الأيام الفلسطينية منذ عام ١٩٩٦.

كما شارك بعدد من المؤتمرات الثقافية

rajab22@hotmail.com

الهاتف: ٠٠٩٦٢٧٩٦٤٥٠٦٢٥

٠٠٩٦٢٧٨٦٦٥٩٠٣

٠٠٩٧٠٥٩٩٤٠١٦٨٧

٠٠٩٧٠٥٩٨٨٣٣٥٣٣

*****

المحتويات

١- شهادة قصصية

٢- نثار الروح والجسد

٣- تهاويم الأرق

٤- ليس غير الظل

٥- خراريف

٦- ضمير الأنا الغائب

٧- موبايل / نت (كليكات مشاغبة).

٨- كتابات ذات صلة (أصداء النصوص)

*****

الفهرس

شهادة قصصية 5

نثار الروح والجسد ١٧

طفولــة ١٩

إشــارة ٢٠

قليلٌ من الذوق...فقط؟ ٢١

مُعــارض ٢٢

ثلاثون عاماً فقط ٢٤

تـــاج ٢٥

حدث في يوم السبت ٢٦

موعظة حسنة ٢٨

كان صديقي ٣٠

مبـدع ٣٢

من قبـلُ، من بعدُ ٣٤

مســـؤول ٣٦

لبـاقـة ٣٨

يوم الفــرح والمأتم ٤٠

الحب على الصورة الأولى ٤٣

إنتـــرنت ٤٥
إفتراضي ٤٧
إعلانات ٤٩
دوام الحـال ٥١
صبوة المراهقة ٥٣
وردة ٥٥
هـو . . . .هـي ٥٦
ضــدان ٥٧
الفتى والكهل ٥٨
عماد باشا ٥٩
مبادرة ٦١
مطلّقة ٦٢
«وجيه» ٦٤
عنوان ٦٥
تكنولوجيا ٦٦

تعاويم الأرق ٦٩

في المدينة الغريبة ٧١
العمق الدفين ٧٣
الدمية ٧٦
وحدة ٨٠
القلق الحار ٨٣
إعلان تعارف ٨٦

حلم مراهق ٩٠
قراءة ليلية ٩٣
أحلام !! ٩٦
القرط الذهبي ٩٩
رجع الرؤى ١٠٣
إختلاج مفاجئ ١٠٧
روعة الأزرق ١١١
جدّي ١١٣
وفاء السيدة ١١٥
مداهمة التضاد ١١٨
ثلاث قصص قصيرة جداً ١٢٠

ليس غير الظل ١٢٥

بروش شيلو ١٢٧
أحاديث الناس ١٣٠
الظـلال ١٣٥
الأستـاذ ١٣٩
وميض الرغبة ١٤٣
رسالة من النقب ١٤٧
المحبس ١٥٢
ليس غير الظل ١٥٦
رسائل إلى مجهول ١٦٣
زينب ١٧٠

خراريف ١٧٩
حديث الشيخ اليعربي ١٨١
خبرٌ عاجل ١٨٥
الشاطر حسن يذهب إلى كارني.. ولا يعود ١٨٧
زواجٌ خرق ١٩١
امرأة السماء ١٩٦
الكار والمكرور والفعل المجرور ٢٠٠
ثلاث بنات ٢٠٥
زواج مؤبد ٢٠٨
حكاية أم عايد بين الراوي والشاهد ٢١١
حلم معتاد ٢١٦
صحفي وصقر ٢١٨
بيان شخصي جدا ٢١٩
جرأة امرأة ٢٢١

ضمير الأنا الغائب ٢٢٥
إمتعاض ٢٢٧
بئر أولى ٢٢٩
وين سلاحك يا خال ؟ ٢٣٠
يحترق أمام الناس ٢٣١
قتل على الهواء ٢٣٢
دهاء ٢٣٣
قلب موقوت ٢٣٤
عبث ٢٣٥

غرق الحب	٢٣٦
جرأة	٢٣٧
مجرد فارق في التوقيت	٢٣٨
يقرأ الفاتحة على نصفه الميت	٢٣٩
على غير هدى	٢٤٢
سكون الليل	٢٤٤
رسالة إلى ميت	٢٤٦
حاجز تقني	٢٤٩
موبايل - نت كليكات مشاغبة	**٢٥١**
إيميل مزدوج	٢٥٣
فولت ماسج (لا أحد)	٢٥٧
عبّي لي كارت	٢٦١
طلاق نهائي	٢٦٥
خَلع	٢٧٠
الأمن غير مستتب	٢٧٤
Sms	٢٧٨
إدّيني رنَة	٢٨٢
رسائل عبر المحمول	٢٨٦
تعويذة الكترونية	٢٩٠
كتابات ذات صلة (أصداء النصوص)	**٢٩٥**
عندما يشكّل الزمن بناء النص	٢٩٧
قلق الذاكرة بين ألق الحب وأرق الحرام	٣١٤
نثار الروح والجسد، حكايات رائقة بحجم كف اليد	٣٣٠

أحياز الواقعية النقدية ٣٣٣
أبو سرية يطرح إشكالية نص اللقطة ٣٣٦
«محاولة للملمة بعض الشار» ٣٤٢
عالم يعج بالفوضى والضجيج ٣٤٦
ملاحظات على الشكل والمضون ٣٥٠
أدب ما بعد حداثوي ٣٥٦
السيرة الأدبية ٣٥٩
المحتويات ٣٦٣
الفهرس ٣٦٤

*****